الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جـامـــعة جيـــلالي ليابس سيدي بلعباس
كـلـيـــة الآداب واللغات والفنون
فسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه " ل.م.د" شعبة دراسات أدبية
تخصص: دراسات جزائرية

الموسومة بـــ:

المقامة وأدب الرحلة في الأدب الجزائري

دراسة موازنة في الأشكال والمضامين

إعداد الطالب:
فكروني أحمد

إشراف الأستاذة:
أ.د براهمي فطيمة

لجنة المناقشة:

أ.د سعيد عكـــاشة	أستاذ التعليم العالـي	رئيســـــا	جـــــــامعة سيدي بلعباس
أ.د براهمي فـــطيمة	أستاذ التعليم العالـي	مشرفا ومقررا	جـــــــامعة سيدي بلعباس
أ.د جـــــدي فاطمة	أستاذ التعليم العالـي	عضوا مناقشا	جـــــــامعة سيدي بلعباس
أ.د بلـــي عبد القادر	أستاذ التعليم العالـي	عضوا مناقشا	جـــــــامعة وهـــــران
أ.د مزاري عبد القادر	أستاذ التعليم العالـي	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة مستغانم
د. لـــــــوت زينب	أستـــاذ محـــاضر ـ أ ـ	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة مستغانم

السنة الجامعية: 1443- 1444هـ/ 2022 -2023 م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين:

الأب العزيز رحمه الله الغفور الرحيم.

والأمّ الكريمة عافاها الله الحفيظ الجواد .

إلى إخوتي وأخواتي أحاطهم الله ببرّه ورحمته

إلى زوجتي آتاها الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة .

إلى ابني لقمان يوسف الصدّيق جعله الله في الصالحين والعلماء .

وإلى كلّ من نحبّهم، وعلى رأسهم شيخي ومعلّمي "جبّاري محمّد عبد القادر".



المقدّمة

لم يكن الأدب الجزائري القديم يعيش منعزلا عن باقي النشاطات الأدبية العربية ، ولم يكن منغلقا على نفسه مقلّدا مكرّرا مجترّا ما يقوله ويكتبه الآخرون بل كان متواصلا متفاعلا بأمثاله في مختلف الأقطار والشعوب العربية والإسلامية ، وكان متوفّرا ا على قدر غير يسير من التجديد والإبداع في مختلف الجوانب والعناصر.

وما دراستنا هذه إلّا دليلا واضحا على ذلك، فقد كتب الأدباء الجزائريون قديما في العديد من الأنواع الأدبية شعرها ونثرها ، والمنجزات في هذه المجالات جلية للعقول ، والفضل في هذا المجال يعود إلى مؤرّخي الأدب والتراجم والسير الجزائريين، الذين أحيوها بعد وبعثوها من جديد . وكذلك الفضل الكبير يرجع إلى طائفة المحقّقين الذين لم يدّخروا جهدا صغيرا أو كبيرا في سبيل البحث عن المخطوطات الجزائرية وإخراجها من الضيق والخفاء إلى عالم السعة والبيان ، وذلك بوضعها أمام القارئ في صيغة كتب متفاوتة الحجم ومتعدّدة الأنواع ، والخصائص والأغراض.

ومن تلك الفنون الأدبية النثرية فنّ المقامة وأدب الرحلة موضوع بحثنا . فعلى الرّغم من العديد من الكتابات النقدية الجزائرية الحديثة في هذا المجال والتي غطّت مساحة معتبرة منه ، إلّا أنّ هناك مساحات أخرى لازالت خصبة للتنقيب والكشف تنتظر دارسين آخرين لإنارتها ونفض الغبار عنها، وتفصح عن مواطن القوة الكامنة فيها، ومواضع الجمال المصبوغة به. وهذا العمل يأتي في هذا السياق .

أهمّية هذا البحث تتجلّى في عدة قضايا منها :

– كثافته وثراؤه من الناحية الفنية الجمالية، فكلّما درست بانت زوايا مختلفة منه، من حيث المواضيع والقضايا والمضامين التي يزخر بها، ومن جهة الأشكال الفنية التي ينهض عليها . فكلّما قرأت تجلّت غصون أخرى لا تقلّ قيمة وشأنا عن سابقاتها، من هنا فالموضوع واسع رحب، لا يملّ منه، فله قابلية نصّية كبيرة على التجلّي الجميل ، والظهور المتجدّد الدّائم .

– وتبعا لذلك فهو يتّسم بالانفتاح على مختلف الإجراءات التراثية البلاغية والنحوية واللغوية والصوتية ، وعلى شتّى المناهج النقدية الحديثة بشقّيها السياقي الخارجي والنسقي الدّاخلي وما تمتلكانه من أدوات نقدية .

– الوجه الآخر للقيمة التي يحملها هذا الموضوع محلّ الدراسة هو هذا الارتباط الوثيق الذي يجده الدّارس بينه وبين العديد من الفنون الأدبية الشعرية والنثرية القديمة والحديثة ممّا يجعل النقد فيه واسعا ومتداخلا .

– كما له علاقة وثيقة بالعديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل التاريخ وعلم الاجتماع ، وبالعلوم الكونية مثل الجغرافية والطبّ .

ومن العوامل التي حرّكتنا لاختيار هذا الموضوع الأدبي الجزائري النثري والبحث فيه والكتابة حوله ما يلي :

– التعرّف على هذين الفنّين النّثرين الأدبيين والتعريف بهما .

– استكشاف ما بلغته العبقرية الأدبية الجزائرية في هذين النوعين الأدبيين .

– تبيين ما في هذه الكتابة الفنية من مظاهر الاتّباع والتأسّي والتجديد والابتكار في مختلف المستويات الخارجية والدّاخلية .

– الغوص في البنى العميقة لهذين اللّونين الأدبيين عبورا بالبنى السطحية لهما .

عاشت الدراسات النقدية الحديثة حول المقامة القديمة وأدب الرحلة في الأدب الجزائري القديم في كنف الدراسات الأكاديمية بالجامعة الجزائرية أكثر منها في الدراسات خارجها، منها أطروحات الدكتوراه ورسائل الماجستير والماستر والمقالات وهذه الدراسات على الرغم من القيمة التي تكتسيها المصنفات العديدة من الأعمال فيها إلّا أنّها لم تشهد عالم النّور بالطبع والنشر إلى حدّ كتابات هذه الأطروحة. وهذا فيه من الحرمان والتغييب الكثير . ثمّ أين الارتباط والغيرة والحرص على حياة جزء وركن قويّ ومهمّ وضروري من التراث الجزائري ؟ وأين الانشغال على عملية التواصل بين القدماء والأجيال التي تعاقبت بعدها ؟

إنّ المهتمّ بالأدب الجزائري ليتساءل عن الأسباب القائمة وراء عدم التطرّق بالإيجاز أو التفصيل لفنّي المقامة والرحلة الجزائريتين من قبل "محمّد الطمار "في كتابه القيّم االواسع (تاريخ الأدب الجزائري)، و "عبد الملك مرتاض" في كتابه (الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور) . كما يلاحظ الباحث أنّ الناقدين "عبد الله خليفة ركيبي" و "عمر بن قينة"

لم يعيرا اهتماما كبيرا ولائقا باللونين الأدبين من مقامة وأدب رحلة ، أمّا الأوّل ففي كتابه (تطوّر النثر الجزائري الحديث) وبالنسبة للثاني ففي كتابه (فنّ المقامة في الأدب العربي الجزائري).

وبالنسبة للباحث الناقد " مختار حبّار " من جامعة وهران في مصنّفه (الخطاب الادبي الجزائري القديم في الجزائر، دراسة بيبلوغرافيا) فقد اكتفى بتقديم تراجم لأصحاب الرحلات والمقامات إلى جانب عشرات الأعلام من العلماء ورجال التصوف ، ومن الشعراء والكتّاب في مختلف الفنون النثرية. ويعدّ الكتاب بمثابة الدليل العلمي الرصين في إرشاد الباحثين معرفة حياة وآثار ما ذكرهم من الشخصيات ، كما يوفّر هذا الكتاب على الباحثين المهتمّين والطلبة المتخصّصين المشقّة والتعب والوقت والجهد .

وفي هذا السياق لا بدّ أن نذكر الجهود الكبيرة التي بذلها المؤرّخ والناقد " أبو القاسم سعد الله " في سبيل خدمة التراث الجزائري بمختلف مكوّناته ، ومنه الأدب الجزائري القديم شعرا ونثرا . فقد نالت المقامة والرحلة مساحة معتبرة من ذلك الفضاء الرحب من تلك المساحة الواسعة. والمطّلع على مؤلّفات أبي القاسم سعد الله : (تاريخ الجزائر الثقافي) ، و (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، و (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري) .

وفي هذا الكتاب الذي يمكن إدراجه في باب السيرة تناول فيه مختلف آثار هذا العلم الأديب الجزائري ووقف وقفات متأنّية عند رحلته ومقاماته محلّلا وشارحا ، جلّى فيها

العديد من القضايا ذات الصلة بالبناء اللغوي والمواضيع المرتبطة بالمضامين العديدة التي تناولها صاحب الرحلة في الرحلة والمقامات.

والملفت في انشغال هذا الكاتب الجزائري أنّه هو الذي قام بتحقيق رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري المسمّاة (لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال). كما قام مرّة أخرى بتحقيق عمل آخر وترجمته، هو (رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية) .

بالرجوع إلى أطروحتنا وبعد اطّلاعات على العديد من المدوّنات ذات الارتباط الوثيق بالمقامة وأدب الرحلة في الأدب الجزائري قديمه وحديثه، وقراءات لبعض المصادر والمراجع المتعلّقة بهما ارتبطْتُ بالموضوع والذي حفّزني أكثر لمبادرة العمل في الموضوع والانشغال به هو ما أثاراه في ذهني من وقت لآخر من تساؤلات متباينة وعديدة أذكر منها :

- ما المقامة ؟ ما هي نشأتها وتاريخها ؟ من هم أعلامها ؟ وما هي خصائصها المختلفة عند بعض النقاد المعاصرين ؟
- ما هي المتون المقامية التي يشتغل عليها البحث ؟
- ماهي مضامين المقامة الجزائرية القديمة ؟
- وما هي مواضيع وقضايا أدب الرحلة الجزائرية القديمة ؟

– كيف حال المقامة في بعض أشكالها الفنية وميزاتها الجمالية ؟

– ما أدب الرحلة ؟ كيف كانت نشأته في الأدب العربي القديم ؟ وما هو تاريخه عند الأدباء العرب ؟ من هم أعلامه ؟ وما هي سماته ومظاهره عند بعض النقاد في العصر الحديث ؟

– ما هي المدوّنات الرحلية التي تتناولها هذه الدراسة بالبحث ؟

– ما هي مواضيع وقضايا أدب ارحلة الجزائرية القديمة ؟

– كيف كان بناؤها الفنّي من خلال نماذج منها ؟

هذه الاسئلة ومثيلاتها هي التي صاغت معالم الإشكالية التي بنيت عليها بحث رسالتي ، ومن أجل السعي للإجابة عليها صغت الخطّة التالية :

استهللت بحثي بمقدمة حول الموضوع .

الفصل الأوّل: أفردته للمقامة الجزائرية غند القماء. وبعد التمهيد لهذا الفنّ قسمت الفصل إلى شقّين هما: مضامين المقامة الجزائرية القديمة، وفي الشقّ الموالي الأشكال الفنية للمقامة الجزائرية .

أمّا الفصل الثاني : فقد تناولت فيه بعد التمهيد لأدب الرحلة عند العرب وعند الجزائريين، في القسم الأوّل مضامين أدب الرحلة الجزائرية عند القدماء. وفي القسم الثاني من الفصل تابعت الأشكال الفنية التي تأسّس عليها أدب الرحلة الجزائرية القديمة.

وفي الأخير كانت الخاتمة ذكرت فيها مجمل ما بحثت فيه ، مع ذكر بعض ما توصّلنا إليه من خلاصات ونتائج مع التأكيد على خصوبة وثرا كافّة الرحلات والمقامات التي تركّزت عليها الأطروحة التي هي الآن بين أيدي الأساتذة الكرام والطلبة المهتمّين بالأدب الجزائري عامة والقديم منه خاصّة.

ومن أجل تحقيق العمل بهذه الخطّة استندت على أساليب البحث التالية :

– التاريخي عندما تناولت المقامة وأدب الرحلة في تاريخهما ونشأتهما عند العرب والجزائريين وذلك في التمهيد للفصل الأوّل والثاني.

– الوصف والتحليل: استحضرتهما في أغلب مواطن البحث في الفصلين

– والاستدلال اعتمدته في بعض المواطن القليلة التي كانت تستلزم ذلك .

– وكنت بين في بعض المواقع من الدراسة أوازن بين بعض آراء النقاد ، وبين مقامات الكاتب الواحد ، وبين مقامات الكتاب عامّة.

وفيما يتعلّق بالأدوات التحليلية والوسائل التي طبقتها على مختلف نصوص المقامات والرحلات فقد أخذتها من التراث البلاغي والنحوي والنقدي ومن النقد المعاصر ، وهي أدوات مشتركة بينهما مثل الصورة والاقتباس والابتداء، وضمن الإجراءات الكبيرة من عنوان وابتداء واقتباس وصورة وسجع أحضرت أدوات نحوية مثل الجملة الفعلية والاسمية، والأدوات، والتوكيد .

والأدوات البلاغية من علم المعاني: مثل الحذف والتقديم والخبر والإنشاء، ومن علم البيان مثل الصورة التشبيهية زالصورة الكنائية، والاستعارة بفرعيها، والمجاز . ومن أساليب البديع مثل الجناس والطباق والمقابلة . امّا دراسة المضامين والتنقيب في مختلف محتوياتها فإنّ النصوص المقامية والرحلية التي طبّقت عليها هي التي وجّهتني إليها.

– لماذا الاقتصار على القديم دون الحديث ؟ كان طموحنا واسعا في بداية الأمر أن تكون الدراسة حول قديم وحديث فنّي المقامة وأدب الرحلة الجزائريين لكن بعد ما وصلنا بالكتابة حول المقامة وأدب الرحلة القديمتين في الجزائر أدركنا التعب والمشقة وأدركنا أن لو كتبنا حول الحديث لطال الزمن واتّسع البحث مديدا ، لذا كان الاقتصار على ما هو مبثوث في هذين الفصلين، وانصرفنا عنه فاسحين المجال لبحوث جديدة تتطرّق لإبداع الأدباء الجزائريين في العصر الحديث في المقامة وأدب الرحلة.

والدارس المدقّق في هذا الفضاء الأدبي الجزائري للحديث سيجد فيه قيما ثرية ذات علاقة قوية بالحسن والجمال من جهة وبالقضايا الواقعية والمضامين الجديدة والأفكار التي تستميل القارئ وتجعله متلقيا نبيها لها. كان أملي ومطمحي أن أدرس فنّ المقامة وأدب الرحلة في الجزائر عند القدماء والمعاصرين من خلال أربعة فصول، منذ بداية دراستي لكن ما إن وصلت إلى نهاية الفصل الثاني عند القدماء وبعد إنجاز عدد معتبر من الصفحات تراجعت عن ذلك ، كون البحث سيطول ويتطلّب منّي أكثر من وقت وجهد وتضحية،

وهذه الأمور لم يتوفّر لدي منها شيء وذلك يرجع لأسباب عديدة لا يسمح المقام ببسط الحديث عنها.

ثمّ لماذا جمعت بين دراسة المقامة وأدب الرحلة ؟ سيقول أكثر من واحد لو كانت البحث منصبّا حول المقامة أو أدب الرحلة لكان العمل أعمق وأكثر تحليلا وتفسيرا ولكانت النتائج متعدّدة ومثمرة أكثر ممّا هي عليه في دراسة اللونين النثريين معا !

الجمع بينهما يرجع لاندراجهما ضمن الكتابة النثرية، ولكونهما يشتركان في الجانب القصصي وفي العديد من الأمور الفنية الجمالية ، فضلا على التداخل البارز بينهما. فمثلا رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري تحتوي على مقامات، وابن محرز الوهراني كتب مقاماته في رحلته إلى المشرق، هذا من جانب. ومن الجانب الآخر فإنّ الرّحلات التي تناولناها بالدراسة والتحليل تتشابه مع المقامات في العديد من العناصر المشكّلة لهما .كما أنهما يتقاطعان كذلك في الطابع التاريخي الذي يلوّن بعضهما.

والحافز البارز الذي دفعنا لعملية الجمع بينهما هو رغبتنا العلمية في الكشف عن مختلف القيم وعناصر الإتقان والجودة من الناحيتين الفنية والمضمونية في العملين ممّا يعني تبيين المكانة الأدبية وعلمية اللتين تكتسيهما ، هذه المكانة التي لا تقلّ شأنا عن المقامة وأدب الرحلة في عند أدباء المغرب العربي والبلاد العربية عامّة. والوصول إلى ذلك يجعل القارئ قويّ الاطّلاع حول الموضوع فيندفع إلى القراءة والبحث فيهما من زوايا أخرى ، وما

أكثر القضايا التي يمكن أن التي يحتويها عالم المقامة وأدب الرحلة بها وتجودا بهما على المتلقّين المتخصّصين .

حسب اطّلاعنا للدراسات الجزائرية الحديثة لم نعثر على دراسة أكاديمية أو حرّة جمعت في بحثها بين المقامة وأدب الرحلة في الجزائر عند القدماء من الجانبين الشكلي والمضموني. لكنّنا عثرنا على دراسات عديدة تفرد هذا الفنّ أو الآخر بالشرح والتفسير والتحليل شكلا ومضمونا بإجراءات مختلفة . وقد سجّلنا في هذه البحوث المفردة أنّها لم تلمّ بالمقامات ولا بالرحلات من الجانبين المشار إليهما آنفا .

أذكّر الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة مناقشة هذه الأطروحة التي هي بين أيديكم بأنّ التصور الذي قدّمته للجنة العلمية التابعة لقسم اللغة العربية وآدابها للدراسة وللموافقة عليه كان وفق ما يلي : ((المقامة وأدب الرحلة في الأدب الجزائري دراسة في الأشكال والمضامين)) أمّا عبارة (موازنة) المثبتة في العنوان فهي اجتهاد من أساتذة اللجنة العلمية الموقّرة. ونظر لكون هذه العبارة لم تكن في تصوّري الذي بنيت عليه العنوان والخطّة الأولية المقترحة، لم استطع أن أجد لها موقعا في دراستي.

فما كان لي قصد صغير أو كبير في إجراء موازنة ما بين الفنّين النثريين المقامة وأدب الرحلة محور الأطروحة . لأنّني أعلم لو اجريت موازنة جزئية أو كلية اقتضى منّي ذلك فصلا آخر مستقلّا عن الفصلين، وهذا لم يكن من تصور البحث ولا من غاياته المرجوة.

من بين الكتب التي استفدنا منها في بحثنا هذا كتبا عبد الملك مرتاض– وهو من بين الكتب الأولى التي ألّفها – (فنّ المقامات في الأدب العربي) ويعدّ من الكتب القليلة التي كتبت حول فنّ المقامة عمقا وتفصيلا ، فزيادة على البيان والإيضاح والتوسّع و والإسهاب، والاهتمام بالجانب التاريخي ، ومناقشة مختلف الآراء ذات الصلة الوطيدة بالموضوع فقد جمع بين النظري والتطبيقي غير غافل عمّا تتفرّد بها المقامة العربية من خصائص وسمات في جهة المضمون والشكل. وقد استفدنا منه في بحثنا في عدّة مواطن .

وهناك كتاب آخر انتفعنا به وهو مصنّف انجزته الناقدة " غربي شميسة " (بناء المقامة عند ابن ميمون الجزائري من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في باد الجزائر المحمية) وقد تناولت الموضوع من خلال أربع مراحل : البناء المعماري ، البناء التدرّجي ، البنية الولائية ، البنية الأسلوبية ، البناء الإيقاعية .

وهو كما يبدو من هذه العناوين فقد جمعت فيه الباحثة بين الشكل (البناء المعماري ، البناء الأسلوبي، البناء الإيقاعي) وبين المضمون (المضمون) . وأهمّ ميزة يتفرّد بها هذا العمل هو البعد الكلّي عن الجانب النظري، والاهتمام التام بالموضوع من الجهة التطبيقية. والأدوات التي درست بها المقامات عند عند ابن ميمون تنتمي إلى الحقل البلاغي الحقل الأسلوبي .

وفيما يخصّ الكتابة في الفصل المتعلّق بأدب الرحلة في قسمه المتعلّق بالمضامين فقد استضأنا بما كتبه أبو القاسم سعد الله فيها في مختلف كتبه حول الرحلات الجوائرية. وفي الشقّ المتعلّق بالأشكال الفنية فكان المعين فيها قراءاتنا لمختلف الدراسات التي تناولت الاقتباس والصورة والسجع في تطبيقاتها على مختلف النصوص النثرية القديمة والحديثة.

والحديث عن الأهداف التي طمحنا إلى تحقيقها تتمثّل فيما يلي:

– الكشف عن قابلية واستعداد فنّي المقامة وأدب الرحلة الجزائريتين عند القدماء للتجاوب والانسجام مع مختلف وسائل التحليل التي تُجْرى عليها وأدوات النقد التي تدرس بها والمأخوذة من مختلف العلوم التراثية والحديث.

– تبيين مدى حرص الأدباء الجزائريين القدماء أصحاب الرحلات والمقامات على مكوّني العمل الأدبي الأساسين ، والمتمثّلين في المضامين مختلفة، والأشكال فنية المتباينة، وأنّ اهتماماتهم في هذه المسار الكتابي الإبداعي كانت معتدلة ومتزازنة ولم يغلّبوا طرفا على الطرف الآخر ، ولم يخلوّا بهذا أو ذاك. وهذا يعكس نظرتهم وفهمهم للون الأدبي الذي يكتبوا فيه عن بيّنة وبصيرة، وعن جدارة واستحقاق .

– التّأكيد على أنّه من بين المؤهّلات التي تجعل النصّ المتعلق بالمقام وأدب الرحلة قادرا على التجاوب الدائم والمستمرّ مع أي دراسة نقدية حديثة هي كونه كان منفتحا انفتاحا عمليا بالقراءة والفهم لعلى ماكان يكتب – إبداعا وشرحا – حول هذين النوعين النثريين من قبل الأدباء في المشرق والمغرب والنقّاد والشارحين .

فهل سنتمكّن من تحقيق هذه الأهداف المختلفة التي نطمح إليها من خلال دراستنا هاته، وحتّى إن لم نتمّن تمكنا كاملا منه هل سنحرّك بعض الاثلام نحوها؟ الإجابة حتما ليست من نصيبنا ولا من حقّنا ، وإنّما هي من نصيب القارئ ومن حقّ المتلقّي الذي سيبدي برأيه ويلقي بموقفه إزاء هذه الأهداف المسطّرة والمعلنة بعد قراءة الرسالة قراءة واعية وكاملة وتفهّم ما ورد فيها من نظرات أدبية ووقفات نقدية.

ونرجو إذا لم نصل إلى تحقيق هذه الغايات النابعة من اختيارنا لهذا البحث حول طرف من الأدب النثري الجزائري القديم فأملنا كبير أن تتحقّق من قبل غيرنا من الباحثين الجزائريين الذين يمتلكون قدرا من الطموح والغيرة على ما كتبه وأبدعة الأجداد الأفذاذ.

وفي الأخير أشكر أستاذتي الفاضلة الأستاذة الدكتورة " براهيمي فاطمة " على قبولها الإشراف العلمي على رسالتي ، وأشكرها على ما بذلته من جهود وخصّصته من أوقات من أجل قراءة الرسالة ترتيبا وتنظيما، تصويبا وتسديدا، نصحا وإرشادا ، تنبيها وتذكيرا . والشكر موصول لكلّ من أعانني وقدّم لي النصح والتوجيه من بعيد ومن قريب ، ولم يبخل عليّ بما أوتي قوة من أساتذتي الأفاضل وأصدقائي الكرام .

كما أشكر الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة من جامعة وهران ومستغانم وسيدي بلعبّاس على قبولهم المبدئي والعلمي مناقشة الرسالة ، وتحمّل مشاق القراءة المتعبة والتصحيح المضني. وأعتذر للسادة الأساتذة على ورد في الرسالة من أخطاء وهفوات صدرت منّي أثناء الكتابة .

والله أسأل العون والتوفيق من الله القوي المتين لكلّ عامل ساهر ، ومجتهد مثابر. كما نساله أن يمدّنا بفضله ونعمه لكي نستمرذ في مجال القراءة والكتابة والبحث .

فكروني أحمد

الأحد 07 جمادى الثانية 1444 هـ

01 يناير 2023 م

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعبّاس

الفصل الأول

مضامين المقامة الجزائرية القديمة وأشكالها الفنية

القسم الأوّل من الفصل الأول:

مضامين المقامة الجزائرية القديمة

تمهيد:

قبل أن نشرع في دراسة موضوع المقامة الجزائرية القديمة بما في ذلك من تعريف لغوي واصطلاحي لفنّ المقامة ، إلى جانب التفصيل والتحليل لبعض المقامات الجزائرية يجدر بنا أوّلا أن نقف عند كلمة "المضامين" بوصفها واحدا من الإجراءين – إلى "جانب التشكيل الفنّي" – اللذَيْن توسّلنا بهما بغية الكشف عمّا تحتويه متون الرحلات الجزائرية القديمة في داخلها من قضايا وجمال. فمفردة " المضامين " كلمة في صيغة الجمع، مفردها مضمون، والفعل المصاغ منها (ضمِن و تضمّن). وقد فتّشنا عن معانيها في بعض المعاجم، فوجدنا ((ضمن الشيء وبه، كعلم ضمانا وضمنا فهو ضامن وضمين: كفله. وضمّنته الشيء تضمينا فتضمّنه عنّي: غرّمته فالتزمه. وما جعلته في وعاء فقد ضمّنته إيّاه... وتضمّنه اشتمل عليه... والمضامين ما في أصلاب الفحول.))[1] الذي يهمّنا من هذه التعاريف اللغوية أنّ تضمّن الشيءُ الشيء من معانيه اشتمل عليه. وضمّنت الوعاء شيئا ما وضعته فيه من أشياء.

فالمضمون وفق ما فهمناه – ممّا سبق – هو المحتوى الذي يوجد في الشيء والموجود فيه. وانتقلت هذه المعاني إلى استعمالات مجازية منها مضمون القول أو المكتوب من أفكار وآراء، ومن مشاعر وأحاسيس، ومن قضايا ومواضيع، فكلّ ما عبّر عنه وقام بتبليغه القائل قديما وحديثا، أو الشاعر والكاتب في قوله أو مكتوبه فهو المضمون والمحتوى والفحوى، وكذلك هو المعاني والمغزى والمرامي والدلالات. وهناك جماعة من النقاد والباحثين في حقل النقد والأدب في العصر الحديث

1 – الفيروز آبادي، القاموس المحيط. تحقيق مجدي فتحي السيّد. ج/4. المكتبة التوفيقية القاهرة مصر. د ت ط . ص275، 276.

وظّفوا كلمة المضامين، مستعملين إيّاها في أعمالهم النقدية الشعرية أو النثرية ، من هؤلاء الدارسين المعاصرين نذكر منهم على سبيل التمثيل:

– الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض": خصائص المضمون[2] (أهمّ خصائص مضمون فنّ المقامات في الأدب العرب ي بوجه عامّ : الهزل، مواعظ، نقد اجتماعي، الرثاء، نظرات فلسفية وفكرية، غراميات، مدح.)

– "شلتاغ عبود شرّاد": (مضامين الشعر الحرّ[3]): وقد تحدّث في هذا العنصر عن : الثورة، الجزائر وطننا، تجارب الحبّ، الاتّجاه القومي، الموقف الحضاري . وهذه المسائل هي المحتويات التي عبّر عنها شعراء الجزائر في العصر الحديث من خلال نظام القصيدة الشعرية الحرّة، أو شعر التفعيلة.

– "يحي الشيخ صالح": (الباب الأول المضمون الثوري عند مفدي زكرياء): تطور النظرة الثورية ومجالاتها. صورة الثورة. الألم والمعاناة، صورة المجاهد الجزائري والغازي الفرنسي، الوحدة العربية والوحدة المغربية، الطبيعة الثائرة[4].

– "مصطفى الغاشي" وظّف اهذا الكاتب المضامين في العنوان التالي : (الرحلات المغربية نظرة نقدية على المضامين)[5] .

2 – عبد الملك مرتاض ، فنّ المقامات في اللأدب العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1980. من ص 281، إلى ص 356.

3 – شلتاغ عبود شرّاد، حركة الشعر الحرّ في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985. من ص 89 ، إلى ص 123.

4 – يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء دراسة فنّية تحليلية. ط / 1. 1407 هـ – 1987 م . دار البعث قسنطينة الجزائر. من ص 53 إلى ص 159 .

5 – مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة. دار الانتشار بيروت لبنان. ط / 1. 2015 م. ص 271.

وهناك طائفة من النقاد من يستعمل المضامين بأسماء ومصطلحات نقدية أخرى متنوّعة، تمليها على الناقد قراءاته وثقافته والأساتذة الذين تأثّر بهم، من هذه الأسماء والمصطلحات التي عرضها الدارسون والنقاد بدائل للمضامين نذكر ما يلي : الأهداف[6]. الموضوع، القضايا، الاتّجاه[7]. الحمولة[8]. الجانب الاجتماعي[9].

ومن البداية نؤكّد أنّ هذا الفنّ الأدبي العربي القديم لون مستحدث جديد إذا قيس بالوصية والخطبة والحكمة والمثل والرسالة. ظهر في العصر العبّاسي على يد طائفة من اللغويين والأدباء. فكلمة المقامة بمعانيها اللغوية العامّة كانت موجودة عند العرب القدماء في الجاهلية وفي صدر الإسلام وفي العصر الأموي، وذلك ما تثبته المعاجم العربية، لكن لم تعرف في مجال الكتابة والنقد، ولم تصر منتشرة متداولة إلّا في القرون الهجرية بدءا من القرن الثالث إلى القرن الرابع والخامس. وظلّت على ما هي عليه نوعا أدبيا وفنّا نثريا متميّزا بمواضيعه وخصائصه التعبيرية إلى وقتنا الحالي.

---

6 – عبد الملك مرتاض، فنّ المقامات في الأدب العربي. ص 194 إلى ص 198.

7 – ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر. فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م – 1954م) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 1983. وظّف الناقد إلى جانب "المضمون" كما أشرنا سالفا مصطلحات أخرى تتطابق ومفردة " المصمون"، مثل " الموضوع " في الصفحات: 186. 182. 184. 175. و " القضايا " في الصفحات: 128. 136. 144. و" الاتجاه " في الصفحات: 112 . 118.

8 – غربي شميسة، السيرة في الأدب الجزائري القديم من القرن السابع الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري دراسة في الأنماط والبناء. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 2010. ص 258.

9 – ينظر: نسيمة زمالي. قراءة في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء : الجانب الاجتماعي والفنّي وتحليل قصائد وفق المقاربات النصية المعاصر. دار الهدى عين مليلة الجزائر. ط / 2012 م . استعمل الكاتب "الجانب الاجتماعي" في الإلياذة ص 19. وقد درس فيه (ظاهرة التخنّث والانحلال، ظاهرة التنصّر، ظاهرة غلاء المهور، ظاهرة التزوّج بالأجانب، شرب الخمر والإتيان بالفواحش.)، وهذا تستخلص منه أنّ مقصوده بالجانب الاجتماعي المضمون والمحتوى.

فنّ المقامة الأدبية لا يكتبها أيّ كاتب كان، وذلك كونها فنّا لا يُقبل على كتابته إلّا طائفة قليلة من طبقة الكتّاب الكبار الموهوبين الذين أوتوا نصيبا كبيرا من الثقافة اللغوية والمعرفة الأدبية، من أمثال أولئك نذكر بعض الأعلام : "ابن دريد، وابن فارس، وبديع الزمان الهمذاني، والحريري " ... ولهذا يجد المتلقّي في المقامة ترفيها وتسلية، ويلفي فيها فوائد أدبية ولغوية لا تعدّ، كما تعود عليه بمنافع أخلاقية وتاريخية جمّة ذات قيمة عالية وشأن كبير.

والمقامة أدرجها النقّاد القدماء في ميدان الأدب والنثر الفنّي نظرا لتوفّرها على سمات لغوية رفيعة، وصفات أدبية عالية، تجمع بين النثر والشعر، وبين الحكاية والتاريخ، وبين الوصف للأحداث والوقائع وبين التخييل الجميل الساحر. ولم تحبس المقامة الأدبية نفسها خاصّة من حيث المضامين في قوالب ثابتة وساكنة بل حوت مع مرور الزمن إلى وقتنا الحالي كمّا لا يحصى من المواضيع والمضامين منها العلمية والأدبية، الدينية والواقعية، التاريخية والقصصية. وهذا جعل منها جنسا أدبيا لا زال خالدا يقرأ ويستمتع به، يدرس وينتفع به. ولفنّ المقامة الأدبية في فنون النثر الأدبي العربي القديم ما يماثلها من الفنون مثل القصّة والنادرة والحكاية .

1 – التعريف اللغوي:

– يرى "ابن منظور" أنّ ((المُقام والمُقامة الموضع الذي تقيم فيه والمقامة بالضمّ الإقامة. والمقامة بالفتح المجلس والجماعة من الناس.))[10].

10 – ابن منظور، لسان العرب. تحقبق ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيّد. ج / 14 . المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر. ج/ 11. ص 372.

– وينطلق "ابن فارس" من الجذر اللغوي للكلمة وهو من الفعل الثلاثي : ((قوم: القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على جماعة من النّاس. وربّما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم.))[11]

– و"الفيروز آبادي" يتخذ الفعل كاشفا: ((أقام بالمكان إقامة وقامة دام، والشيء أدامه، وفلانا: ضدّ أجلسه، ودرأه:أزال عوجه كقوّمه. والـمَقامة المجلس والقوم. وبالضمّ الإقامة كالـمَقام والـمُقام ويكونان للموضع. وقامة الإنسان وقيْمته وقَوْمَته وقوميّته وقوامه : شطاطه، جمع قامات وقيم كعنب.))[12].

– ومن أصحاب المعاجم في العصر الحديث نعرض للكاتبين "محمد سعيد اسبر ومنير جنيدي"، فلفظ المقامة عندهما ((بالإضافة إلى معنى القيام في (مقامة) استعملت في العصر الجاهلي بمعنى مجلس القبيلة أو أهاه. وفي العصر الإسلامي بمعنى أن يقف واعظ بين يدي خليفة أو أمير . وفي العصر العبّاسي بمعنى المحاضرة، وفارقها معنى القيام فصارت حديثا قام صاحبها أو قعد.))[13]

– أمّا صاحب المعجم العربي الحديث " خليل الجرّ " في تعريفه للمقامة فإنّه يوضّح ما يلي: ((المقامة المجلس. الخطبة أو الرواية تلقى في مجلس. قصّة قصيرة مسجوعة تشتمل على

11 – ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان. ط/ 2 . 1417 هـ – 1994 م. ص 869.

12 – مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي. ص 189.

13 – محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي، الشامل معجم في اللغة العربية ومصطلحاتها. دار العودة بيروت، لبنان. ط/ 1 . 1981. ص 889.

عظة أو ملحة. مقامات: حالات ثابتة ينالها السالك بجهده الخاصّ أهمّها التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكّل والرضا.))[14]. يخلص المستقرئ لمختلف التعاريف اللغوية السابقة لأصحاب المعاجم القدماء والمعالصرين إلى ما يلي:

المقامة في المرحلة الأولى كانت تدور حول مجموعة من المعاني هي: الموضع الذي تقيم فيه، الإقامة، المجلس والجماعة من الناس والقوم. إدامة الشيء، الموضع، معنى القيام. ثمّ انتقلت إلى مجموعة من المعاني في مرحلة ثانية هي: أن يقف واعظ بين يدي خليفة أو أمير ، المحاضرة، حديث قام صاحبه أو قعد. الخطبة أو الرواية تلقى في مجلس، قصّة قصيرة مسجوعة تشتمل على عظة أو ملحة. لا شكّ أنّ القارئ يهتدي إلى أنّ المقامة في حقيقتها كانت لها تلك المعاني في المرحلة الأولى على سبيل الحقيقة. ثمّ انتقلت إلى تلك المعاني في المرحلة الثانية واستعملت استعمالات مجازية. ومن انتقل ووصل بينها وبين المعاني الاصطلاحية الأدبية.

2 – التعريف الاصطلاحي:

– يبرز " شوقي ضيف " أنّ ((بديع الزمان هو أوّل من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء. إذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة. وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات. فكلمة مقامة عنده قريبة من كلمة حديث. وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنّق في ألفاظها وأساليبها ويتّخذ لقصصه جميعا راويا واحدا هو عيسى بن هشام، كما يتّخذ لها بطلا واحدا هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحّاذ

14 – خليل الجرّ، المعجم العربي الحديث لاروس. مكتبة لاروس، باريس. المنشورات الفرنسية المتّحدة. ط / 1973. ص 1142. (أسهم في تحرير القسم اللغوي منه محمّد خليل رباشا، وهاني أبو مصلح . أعاد النظر فيه محمّد الشايب).

لا زال يروّع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه بمن فصاحة أثناء مخاطبتهم ... فلم يكن يريد أن يؤلّف قصصا وإنّما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلّمهم أساليب اللغة لبغؤيسة وتفهم على ألفاظها المختارة ... فالمقامة أريد بها التعليم منذ أوّل يوم، ولعلّه من أجل ذلك سمّاها بديع الزمان مقامة، ولم يسمّها قصّة ولا حكاية. فهي ليست أكثر من حديث قصير. وكلّ ما في الأمر أنّ بديع الزمان حاول أن يجعله مشوّقا فأجراه في شكل قصصي.))[15]

– و "محمد رشدي حسن" من جهته يكشف أنّها ((قصّة قصيرة تروي خبرا ناميا في ذاته عن بطل محتال في لحظة من لحظات حياته. وليس هذا التعريف جامعا لكلّ مقامات التي قلّدت مقامات الهمذاني من ناحية الشكل، وإن"ما هناك مقامات لا يشملها هذا التعريف كما سنرة وبخاصة في مقامات السيوطي .. [16])) يضيف الناقد مجلّيا عنصر السحر والروعة فيها متحدّثا ((وممّا يجدب عواطفنا إلى المقامات ما نجده فيها من نثر يكاد يقارب الشعر من ناحية التعبير الجميل عن وقع الوجود على الوجدان بلفظ أنيق يدلّ على معنى نبيل. [17])) ، كما لم يفت الدارس "محمّد رشدي حسن" أنّ فنّ المقامة أركانه الأساسية لم تغادره ((ومنذ نشأة المقامات في القرن الرابع الهجري والمقامة عبارة عن لوحة لها اربعة أضلاع لا تستغني عن واحد منها. أحد هذه الأضلاع يمثّل الراوية والبطل معا. والثاني يمثّل السجع والمحسنات البديعية، والثالث معالجة المشكلات الطبقية والاقتصادية والفقهية واللغوية والنحوية والأدبية. والرابع يمثّل

15 – شوقي ضيف، المقامة. . ط / 3 . دار المعارف القاهرة مصر. ص 8.

16 – محمّد رشدي حسن. أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة مصر. 1394 هـ – 1974 م. ص 13.

17 – المرجع نفسه . ص 13.

الموضوع، وهذا يتغيّر))[18] ، لكن هل هذه الثوابت بخاصّة من جهة الموضوع والمضامين ظلّت مقترنة بها أم انسلخت عنها واستُبدلت بأخرى؟

– "يوسف عوض" يوضح أنّها ((شبه حكاية أدبية قصيرة مسجوعة، تدور حول بطل أديب متسول، واسع الاطلاع خبير بأمور الحياة ، يروي عنه راوية كلاماً بليغاً حافلاً بالبراعة الأدبية والشوارد اللغوية للتأثير في السامعين))[19].

– ومن جانبه "عبد السلام حكيم العيد" يصنّف المقامة في ((الفنون التعليمية التي وجدت لها وسيلة في اللغة العربية، تخلّقت من أمشاج عربية لغوية وأدبية وقيم إسلامية وإمسانية غامّة))[20].

– أمّا "أحلام عبد اللطيف حادي" بعد متابعتها للمقامات فقد لاحظت أنّها ((تصور تجربته الشخصية وتعكس وعيه الخاصّ وأجواءه الذهنية.[21]

وبالنسبة للناقد "الكك فكتور" فالمقامة ينظر إليها من منظور كونها ((حديثا قصيرا من شطحات الخيال أو دوّامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجوع، تدور حول بطل (أديب شحّاذ)، يحدّث عنه وينشر قضيته رواية جوّالة قد يلبس جبّة البطل احيانا. وغرض المقامة

18 – محمّد رشدي حسن . أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة.. ص 13.

19 – عوض، يوسف: فن المقامات بين المشرق والمغرب، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1986 م.ص 12

20 – عبد السلام عبد الحكيم العيد ، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث. د / ط . مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية. 1989 م . ص 25

21 – أحلام عبد اللطيف حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة، قراءة لتيار الوعي في القصة السعودية (1970 – 1995 م) ط / 1 . المركز الثقافي العربي المغرب . 2004م. ص 22 .

البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام وموارده ومصادره في عظة بليغة ... او نكتة طرية، أو نادرة لغوية لطيفة، أو شاردة لفظية طفيفة))[22] .

– وفي مقابل ذلك "ياغي عبد الرحمن" يقدّم المقامة بوصفها تلك ((القصة القصيرة المسجوعة، الدائرةحول مغامرة بطل واحد ظريف عالم باللغة يكسب عيشة بالحيلة والاستجداء، والتي يرويها راوية واحد، والتي تزخر بالحركة التمثيلية والحوار والسجال [23])).

– المقامات في تصور "صالح محمود عبد الرحيم" يمكن عدّها ((قصصا قصيرة تدور حول شخصيات نمطية من أصحاب الكدية غالبا، وتعتمد على فنّ الإضحاك أو السخرية أو النقد الاجتماعي أو النقد الأدبي أو الموعظة أو غير ذلك. وتصاغ بأسلوب يكثر فيه الغريب والصور البيانية وضروب البديع.[24])).

من خلال االتعاريف الاصطلاحية المختلفة التي أوردناها للنقّاد السالفين نستنتج ما يلي:

1 – تاريخها: "بديع الزمان الهمذاني" هو أوّل من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي في كتاباته في فنّ المقامة. منها استلهم العديد من الكتّاب التأليف فيها مع مراعاة العناصر الكبر والمكوّنات البارزة التي نصّ عليها بديع الزمان الهمذاني في مقاماته.

22 – الكك فكتور، بديعيات بديع الزمان الهمذاني. ط / 1 . 1961 م . المطبعة الكاثوليكية، بيروت. لبنان . ص 48.

23 – ياغي عبد الرحمن، رأي في المقامات. ط / 1. 1985 م . دار الفكر للنشر والتوزيع. عمّان، الأردن. ص 16 .

24– صالح محمود عبد الرحيم، فنون النثر في الأدب العبّاسي. ط / 1. 1994 م. مطبعة وزارة اللثقافة ، عمّان، الأردن. ص 166.

2 – طبيعتها ونوعها: المقامة الفنية مبنية على الحديث الملقى أمام طائفة من الناس . هذا الحديث الملقى في المقامة يطلق عليه حديثا، وقصّة وحكاية. هذه المقامة يرويه دائما شخص الراوي الذي يتصدّر اسمه بداية المقامة. موضوعها في بداية الأمر اجتماعي أخلاقي. المضمون الحيلة للعيش، السخرية، الإيقاع بلآخر . ومن أهمّ وظائفها الضحك والتسلية، إلى جانب إظهار البراعة اللغوية.

3 – في بنائها اللغوي اعتمد في تأليفها على الجانب الجمالي الذي يعتمد على اختيار الكلمات الرائعة المتأنّقة. وعلى والتراكيب الحسنة والجيّدة . والصور البيانية المثيرة الساحرة، وكذلك على الأساليب البديعية اللفظية وخاصّة الصوتية منها، مثل الجناس، السجع. فمن هذه الناحية اللغوية فالمقامة الأدبية في مختلف أطوارها التاريخية ولحدّ عتصرنا الحديث فهي تتقاطع مع الشعر وتشترك معه في العديد من المكونات البلاغية والركائز الأسلوبية في بنيته الصوتية الإيقاعية الداخلية.

4 – ظلّت المقامة على هذه المكوّنات والخصائص التعبيرية على يد بعض الكتّاب، لكن سرعان ما تغيّرت مواضيعها ومضامينها ووظائفها على يد كتّاب آخرين[25]. لكن القاسم المشترك بين هؤلاء والآخرين هو الحديث والقصّ القصير، والبناء اللغوي الجميل والإيقاع الموسيقي الداخلي المدوّي. وحضور الشعر بيتا، ومقطوعة وقصيدة.

4 – قيمها ومبرّرات دراستها :

25 – ومن هؤلاء الكتّاب الذين غيّروا في المضامين والموضوعات والوظائف أصحاب المقامات الجزائريين الذين سنتناول دراستهم في هذا الفصل وهم: ابن حمادوش الطبيب الجزائري، وابن ميمون وابن محرز الوهراني.

وقد اشتهرت المقامة قديما عندما سعى العديد من الأدباء إلى الكتابة فيها مع الاتّباع تارة لبديع الزمان الهمذاني وتارة الاختلاف معه في بعض الخصائص والمحتويات. وأضحت شهرتها باقية في العصر الحديث من خلال طبع المقامات القديمة ونشرها وتحقبقها بين الفينة والأخرى. وكذلك ابداع كمذ كبير من المقامات العربية في العصر الحديث في مختلف الدول العربية والغسلامية. وأمست ظاهرة أدبية ولغوية منتشرة ، فتقرّر تدريسها لطلبة الثانوية والجامعة. ولقد درست المقامات القديمة والحديثة من طرف عدد وفير من النقّاد في دراساتهم الحرّة والأكاديمية. فكشفوا ما فيها من قيم لا زالت تقرأ وتدرّس وتفهم.

تاريخ المقامة وأصحابها :

أ – النشأة: المكان الجغرافي الذي انطلقت منه المقامات الأدبية العربية هو من المشرق العربي، لذا ((لا اختلاف أنّ نشأة المقامات الأدبية كانت مشرقية، وأمّا الذي لا اتفاق عليه فهو زمن النشأة. وصاحب الفضل فيها كان بديع الزمان أوّل من أطلق اسم المقامات على عمل أدبي من إنشائه وقد لا قت مقاماته قبولا في نفوس معاصريه))[26] .

أمّا الرائد الذي بادر إليها مؤسّسا ومبدعا فهو معروف ، إذ ((ليس فيما أثر عن العرب مقامات سابيقة على مقامات "بديع الزمان الهمذاني" (358 – 398 هـ)، فهو من أجل ذلك مخترع هذا الفنّ ... وعلى كلّ فإنّ بديع الزمان الهمذاني إن لم يكن مخترع فنذ المقامات

26 – حسن عبّاس، نشأة المقامة في الأدب رالعربي. دار المعارف، القاهرة . مصر. د ت . ص 25.

فإنّ مقاماته أقدم ما وصل إلينا من هذا لفنّ الأدبي الرائع.)) [27]. وهذا الذي ذهب إليه الباحث الناقد "عمر فرّوخ" تؤكّده نصوص كثيرة لنقاد آخرين ، فهذا الدارس "عباس رهاني الجرّاح" يقرّر بوضوح المسالة التاريخية الأدبية ((ابتدع بديع الزمان الهمذاني (ت 398 هـ – 1007 م) المقامة العربية أوّل مرّة، وأكسبها الشهرة التي سرعان ما انتشرت في بلاد العرؤب ثمّ إلى بلدان العالم.))[28].

والقضية لا تتعلّق فقط بالإبداع والريادة وإنّما تتجاوز ذلك إلى المصطلح ((الأمر الذي لا يمكن أن ينكره الدارسون حول المقامة ((أنّ استعمالها للدلالة على المعنى الاصطلاحي للمقامات الأدبية، فلبديع الزمان الهمذاني فضل السبق في ذلك وهو أوّل من أطلق كلمتة مقامات على هذا اللون الجديد من ألوان الكتابة الفنية، إذ سمّى كتابه المعروف باسم كتاب المقامات))[29] ، فالمصطلح من وضعه. وليس المراد هنا بالوضع الاصطلاحي من الناحية النظرية وإنّما من الناحية العملية التطبيقية على مستوى الإبداع. فالمفهوم الذي وضعه للمقامة استنبطه النقاد قديما وحديثا من المقامات المأثورة عنه.

27 – عمر فرّوخ ، الرسائل والمقامات عبد الحميد الكاتب، بديع الزمان، الحريري. ط / 2. 1369 هـ – 1050 م. منشورات مكتبة ميمنه ، بيروت لبنان. ص 21، 22.

28 – عبّاس رهاني الجرّاح، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية. الطبعة الأولى. 2014 هـ – 1435 هـ . دار الرضوان للنشر والتوزيع. عمان، الأردن. ص 12.

29 – نبيل خالد رباح أبو عليّ، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتّى نهاية العصر العبّاسي 656م. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة مصر. ط 1993 م . ص 399.

ومن المواقف التي نعرضها في هذا السياق موقف "عبد الملك مرتاض" الذي يصرّح فيه من خلال عنوان " من هو منشئ المقامات " ؟ ((يقول مارون عبود : " إنّ خطة المقامات هي من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في رصنعها ، فالهمذاني هو الذي البسها هذا الطراز الموشّى، وعلى طريقه هذه التي شقّها سارت عجلة الأدب الف عام ، فعبثا نحاول العثور على اثر لهذه الخطّة عند غير البديع " . وإذا كنّا نذهب مذهب مارون عبود من حيث أنّ البديع هو أبو المقامات ، فإنّنا لا نذهب مذهبه في إنكار تأثّر البديع بسواه))[30] . فبعد أن أورد رأي مارون عبود في مسألة نشأة المقامة أعقبه برأيه يقرّه فيه على ما ذهب إليه في ريادة الهمذاني تأسيسا مع تأكيده على تأثّر بديع الزمان بمن قبله.

وخلاصة القول حول ما سبق أنّ أغلبية النقاد تجمع عند ذكر فنّ المقامة أنّها مرتبطة بالأديب "بديع الزمان الهمذان"ي، الذي له الفضل في بناء خصائصها الفنّية ومحتوياتها الاجتماعية والأدبية. هذا الفضل لم ينشأ من التنظير لها، وإنّما من إبادع الكتابة فيها . وقد عُرف هذا اللون من النثر الفني أواخر القرن الرابع الهجري على يدي بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ)، وتلاه تلميذه "أبو القاسم الحريري" (ت 516هـ) الذي نسج مقاماته الخمسين على منواله ، ثم شاع هذا الفن في كثير من البيئات العربية ، ومنها البيئة الأندلسية.

ب – أصحاب المقامات : " ابن دريد، بديع الزمان الهمذاني، الخوارزمي، ابن نباتة ". المقامات بعد البديع في المشرق: " ابن بطلان، أبو العلاء المعري، ابن ناقيا، أبو الهيجا الأصفهاني، شهفيرور ". في المغرب والأندلس: "ةابن شهيد الأنداسي، بن فتوح وابن شرف القيرواني، أبو

30 – عبد الملك مرتاض، فنّ المقامات في الأدب العربي. ص 138.

عبد الله بن مسلم، ابن الشهيد التجيبي، وابن مالك القرطبي وابن المعلّم، محمد بن الحسن الطوبي" [31] .

وزاد "الناقد عبّاس رهاني الجرّاح" أسماء أخرى : " أبو الأصبع عبد العزيز بن تمام العراقي " (ت ق 4 هـ) له ومقامات في الكيمياء. " أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي " (ت 405 هـ). له عدّة مقامات. " أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان " (ت 460 هـ) له مقامة في مسالة طبّية. " أبو النصر عبد الله بن محمّد بن الحسين بن داوود بن ناقيا " (ت 485 هـ) له تسع مقامات. " أبو حامد محمد بم محمد الغزالي " (ت 505 هـ) له مقامات صوفية. [32]

تقديم للكتب التي وردت فيها المقامات الجزائرية محور الدراسة:

1 – " التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية " لمحمّد بن ميمون الجزائري[33] (1120 هـ / 1708 م). الكتاب كلّه مخصّص لفنّ المقامة. يحتوي على ((ستّ عشرة مقامة أدبية من حيث الأسلوب تاريخية من حيث الواقع، كما ضمّ أيضا سبعمائة وخمسة وتسعين بيتا من الشعر))[34]. ففي مقامات لابن ميمون الأدب حاضر أسلوبا وتصويرا وخيالا

31 – ينظر : حسن عبّاس، نشأة المقامة في الأدب رالعربي. ينظر: ص من 43 إلى 118 .

32 – عبّاس رهاني الجرّاح، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية. ص13، 14.

33 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. تقديم وتحقيق الدّكنور محمّد بن عبد الكريم. ط/ 2 . الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر 1981.

34 – المصدر نفسه . من مقدمة المحقق محمّد بن عبد الكريم. ص 86.

ولإيقاعا. وإلى جوار الأدب الرفيع والفنّ السامي هناك الحضور على مستويي المواضيع والمضامين للتاريخ أحداثا وحركات وتقلّبات وإنجازات وانتصارات وانتكاسات.

والقضية الكبرى التي تناولها " محمد بن ميمون " في مقاماته والتي تشكّل المحور التام والمركز الهامّ ((سيرة الداي محمد بكداش من حيث رأيه المصيب وأعماله المرضية وأرومته الزكية . وقد ركز على سيرته أبان توليته وحكمه. كما خصّص جلذ الكتتاب لقصة الفتح الأوّل لمدينة وهران على يد هذا الداي وصهره أوزن حسن))[35] . وهنا نبرز كيف أنّ ابن ميمون اجتهد في فنذ المقامة مجدّدا غير مقلّد في المضامين، فلم يسر في الخطوات الاجتماعية والأخلاقية ولم يظلّ في السخرية والتهكّم ولم يتقيّد بالراوي والبطل، فقد نهج نهجا آخر.

2 – كتاب " منامات الوهراني ومقاماته ورسائله " لمحمّد بن محمد بن محرز الوهراني [36]: (575 هـ / 1179م. كما هو جليّ من خلال قراءة العنوان الذي وضعه المحقّق فإنّ الكتاب يتضمّن ثلاثة فنون نثرية: المنامة، المقامة، الرسالة. المنامات: ثلاث، مبنية على الخيال والغرابة والعجائبية ذات طابع نثري يتخلّلها الشعر له ولغيره. فهي في العالم الأخروي وعالم الجنّ والشياطين، والالتقاء بصلاح الدين. الرسائل: عددها ثلاثة وثلاثين رسالة على لسان الجماد والحيوان والإنسان. ومن خصائص كتابته في هذه الفنون: الانتقاد، السخرية، الفكاهة، الخيال، التهكّم. ومن ناحية البناء فنجده يستشهد بالقرآن والحديث وكلام العرب.

35 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. من مقدمة المحقق محمّد بن عبد الكريم. ص 83.

36 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تحقيق إبراهيم شعلان ومحمّد نغش. منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا. 1998 م . ط / 1.

3 – " رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال " لعبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري[37] 1179 هـ / 1766م . يتوفّر هذا الكتاب على قدر كبير من الأخبار العلمية، السياسية، الثقافية، والجغرافية والدينية. فيها فنون نثرية كثيرة إلى جانب الرحلة والمقامة مثل القصة، الإجازة، الحكاية، الغريبة، اللطيفة، الخطبة، عقود الزواج، كما يوجد فيه السير والتراجم. وفيها الشعر بأنواعه لشخصه ولشعراء آخرين.

37 – عبيد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله. المؤسّسة للفنون المطبعية . الجزائر 1983م.

أوّلا: مضامين مقامات " ابن ميمون " :

1 – مضمون المقامة السادسة:

عنوانها: (في استفتاح الملك صباحا، وما جرى لأهل الدولة غدوا ورواحا)[38]: هذه المقامة تدور أحداثها حول مبايعة[39] "السلطان محمد بكداش"، وما يحيط به من المقرّبين صهره والأربعة والذين بايعوه من أهالي مدينة وهران، كما تتناولت هذه المقامة أخبار الشريف الحاكم السابق.

أ – (تاريخ في استفتاح الملك صباحا): بهذا استهلّ كتابة هذه المقامة: ((وكان ذلك في التسعة والعشرين من ذي القعدة، الحرام سنة ثمان عشرة ومائة وألف))[40]. الملفت في هذه الجملة لمستهلّ بها أنّها فعلية[41]، مصدّرة بحرف الواو. تتكوّن من فعل الماضي الناقص "كان"، ومن الاسم المتعلّق بها وهو اسم الإشارة (ذلك)، وشبه الجملة من الجارّ والمجرور وما تبعهما بعد

38 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 139 .

39 – البيعة: (البيعة الصفقة على إيجاب البيع، جمع بيعات. والصفقة على إياب الطاعة)) أحمد رضا نعجم متن اللغة ، موسوعة لغوية حديثة. المجلّد 1 . دار مكتبة الحياة بيروت. 1377 – 1958. ص 373 .

– قال ابن خلدون: ((اعلم أنذ البيعة هي العهد على الطاعة، كأنّ المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له التظر في أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه في شيء من ذلك. ويطيعه فيما يكلّفه به من الأمر على المنشط والمكره. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري ، فسمي بيعة. مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة وعهود الشرع.)) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون. تحقيق محمد عبد الله درويش. دار يعرب دمشق سوريا. ط / 1 . 1425 هـ – 2004 م . ص 390.

40 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 139.

41 – أركان هذه الجملة الفعاية: أ .كان: وهي عند البلاغيين ناسخ وقيد من قيود الكلام التي تعطيه بعدا زمانيا معيّنا. ب . ذلك: نوع من أنواع المعارف، مسند إليه. ج . في التسعة والعشرين من ذي القعدة، الحرام سنة ثمان عشرة ومائة وألف: : مسند .

اسم الإشارة " في التسعة والعشرين من ذي القعدة، الحرام سنة ثمان عشرة ومائة وألف " في محلّ نصب خبر للفعل الناقص "كان". ونشير أنّ اسم الإشارة "ذلك" يعود على المشار إليه في العنوان، وهو "استفتاح الملك صباحا"، فالصلة الدلالية وثيقة بين العنوان والجملة التي بدأ بها ابن ميمون المقامة، لذا يمكن اعتبار الواو[42] (و) التي سبقت "كان" هي واو عطف في المقام الأوّل، كما يمكن اعتبارها واو استئناف في المقام الثاني. وبموجب هذه النظرة التحليل النحوي المساعد والاستنتاج الدلالي المستنبط فالعنوان يحضر بوصفه عنوانا، وبوصفه جزءا من الاستهلال.

يقف المتلقّي أمام هذا الاستفتاح وقفة خاصّة، بحيث يبصر في محتواه أنّه مصبوغ بالصبغة التاريخية الخالصة، التي لا يحضر فيها غير التأريخ وفقط. في هذا التأريخ قيّد فيه وقوع "استفتاح الملك صباحا"، فجاء متكوّنا من ثلاثة عناصر زمنية جلية، هي:

ـ تحديد اليوم : في التسعة والعشرين.

ـ تعيين الشهر : ذي القعدة. الحرام .

ـ تبيين السنة : ثمان عشرة ومائة وألف (1118 هـ).

وهذا الاهتمام الدقيق بالتأريخ له دلالته وقيمته، الأمر الذي يصبغ المقامة بصبغة خاصّة وبميّزها بميسم متفرّد، يجمع بين الصبغة الأدبية القنّية والطابع التاريخي التوثيقي.

42 – الواو عند النحاة : ((حرف عطف، واو القسم، واو الحال، واو الاستئناف، واو المعية، واو الجماعة، واو علامة الرفع، واو الاعتراضية)) ينظر: أحمد الخوص، قصّة الإعراب، الأدوات . دار الهدى عين مليلة الجزائر. 1991. من ص 385 إلى 391.

– اجتماع العساكر : بعد ذكر تاريخ استئناف الملك صباحا وتعيينه، يعقبه بقوله ((وقد اجتمع من العساكر ما ينيّف على اثني عشر ألفا))[43]، هذا النصّ فيه أمران اثنان، الأوّل يتعلّق باجتماع عساكر الملك، وقد صدّر الجملة المفيدة لذلك بالأداة (قد) التي تفيد التحقيق والتوكيد[44]. والأمر الثاني مرتبط بعدد العساكر الذين اجتمعوا حوله، وهو اثنا عشر ألفا وينيّف[45] عليه أي يزيد بقليل. وهذا التوكيد لخبر اجتماع العدد، ثمّ تحديده يجعل هذه المقامة تعرب عن تقاطع بينها وبين الكتابة التاريخية التي تعتمد الصدق والأمانة، بعد التوثيق والتقييد.

ب – استفتاح الملك وحيرة النّاس وتعقيب[46] " ابن ميمون " على ذلك : ((واستفتح الملك يوم الجمعة والناس ينتظرون مجتمعه، فلمّا طلع عليهم بدره بين أنجمه، تأسّفوا لقلّة وفده. ولم يعلموا أنّه اعتمد على قوله تعالى إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) وما أحقّه بقول القائل من شعراء الأوائل:

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

---

43 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 139.

– قد : ((حرف تحقيق أو حرف تقريبإذا جاء بعدها فعل ماض . أمّا إذا جاء بعدها فعل مضارع فإنّها تعرب حرف تقليل. وقد تفيد قد مع الفعل لاالمضارع التكثير في سياق يدلّ على ذلك)) ينظر: ص .

44 – إبراهيم قلّاتي، الأدوات. دار الهدى عين مليلة الجزائر. 1998م. وهي في علم المعاني من مؤكّدات الخبر ((حرف قد الذي من معانيه التحقيق ، ويؤتى به للتأكيد))، ينظر: عبد الرحمن حبّكة، البلاغة العربية. ج 1. دار القلم دمشق سوريا. الدار الشامية. ط / 1. 1416 هـ – 1996 م. ص 181.

45 – ينيّف : يزيد .

46 – التعقيب: ((التذييل، وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلةز تشمل على معناها، تأكيدا للفظ الأوّل أو بلمعناها. نحو قوله تعالى ((وقل جاء الحقذ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهزقا)) فجملة إنذ الباطل كان زهوقا تعقيب على الجملة السابقة تشتمل على معناها توكيدا لها)) بكري الشيخ أمين، علم المعاني. دار العلم للملايين، بيروت لبنان. ط / 6. 1999 م. ص 188.

فلمّا رأيت ما أخذهم من الذهول، وسمعت شهادتهم بأنّ وصفه تتحيّر فيه العقول، أنشدت متمثّلا:

الله أكبر أيّ شيء حزتَه ... حتّى استكان لأمرك العظماء

شهدت لك الاعداء أنّك ماجد ... والحقّ ما شهدت به الأعداء))[47]

ظهر الملك بارزا بائنا بين جنوده، وفي مقابل هذا المشهد كان ردّ فعل الرعية التي كانت تنتظر قدومه مع عسكره أن شعرت بالأسى والخيبة، وأحسّت بالألم والأذى بسبب ما رأت من قلّة الوافدين معه من الحرّاس والمقاتلين التابعين له.

هذا المشهد الذي تتقاسمه صورتان الظهور والبروز من جهة والأسف والأسى من جهة ثانية، حرّك ابن ميمون ناسج خيوط المقامة، فكان تعقيبهفي نفسه دون التصريح به جهرة على الذين ازدروا الوفد واستقلّوه. تعقيب " ابن ميمون " هذا مكوّن من ثلاث عناصر تعقيبية صغرى، نذكرها وفق ما يلي:

– القسم الأول: الآية القرآنية الكريمة[48]، هذه الآية التي اتخذها الملك زادا ومددا في جهاده للكفرة الغاصبين، والتي تنبّه المؤمنين المقاتلين والذين من حولهم أنّ النّصر والغلبة من عنده القوي العزيز، كما أنّ الهزيمة والخسران من عنده يسلّطهما على من لم يستوفوا شروط النصر، فما العدّة والعدد إلّا سبب من الأسباب التي تسهم في تحقيق الانتصار وتفضي إلى التمكين في الأرض، وليست هي كلّ الأسباب.

47 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 139، 140.

48 – سورة آل عمران / الآية 160. بقية الآية: (وعلى الله فليتوكّل المومنون) .

– القسم الثاني: هذا التعقيب كان ببيتا شعريا[49]. الشاهد فيه أنّ القلّة في العدد والعدّة ليست مجلبة للضرّ والخسارة، وأنّ العبرة ليست بالندرة والنقص.

– القسم الثالث: هذا التعقيب ذو طابع شعري مثل سابقه، ساقه ابن ميمون عندما بدا له أنّ الرعية المستقبلة للسلطان وعسكره اندهشت كثيرا ممّا لاحظته من تمام أوصافه وكمال ونعوته الذي امتلأت بها الأعين واضطربت وماجت أمامها الأفكار والعقول.

– هذا البيت الشعري الذي أنشده ابن ميمون فيه المدح والتنويه بالصفات التي وُهِب إيّاها هذا القائد المفدّى، والمزايا التي منحها هذا الزعيم المبجّل، ولعلاها وقدرها الجليل أقرّ بها الزعماء بمختلف أقدارهم، واعترف بها الخصوم على تباين خلافاتهم.

– مبايعة السلطان وأعوانه المقربون منه: بعد نظرة القلّة للسلطان ووفده، وما تلاها من اندهاش وانبهار لفضائله وأوصافه، جاء وقت الحسم الكبير والمسؤولية العظيمة، وهو المبايعة للحاكم من قبل أفراد الرعية الحاضرين ، ((وبويع له بالخلافة، وما أغظمها خلافة، وأبو الفتوح صهره الأمير حسن يفعل بين يديه كلّ حسن من الذبّ عنه بسيفه ولسانه، والفتك بمن يروم الخروج عن سلطانه، ... والأربعة الآخرون واقفون بالباب، يمهدون الملك بافصاح الخطاب. فمنهم صاحب السيف المحدود، الليث الهمام الحاج محمود، فطالما صال في المضمار وجال، وولي من يومه أمينا على بيت المال. والفتى الأمجد الحسام المهنّد، الذي جمع الباس، مع صغر الراس،

49 – وهو للشاعر الجاهلي السموأل، من قصيدة مطلعها : إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكلّ رداء يرتديه جميل. ينظر: السموأل، ديوان السموأل. تحقيق وشرح واضح الصمد. دار الجيل بيروت، لبنان. الطبعة الأولى . 1416 هـ – 1996 م . ص 66.

وصار وكيلا، وعلى ما يتحصّل ويخرج كفيلا، والآخر الذي مازال يخوض بحار الهلك، حتّى تنحّى عن خزانة الملك، والذي أفرده الزمان لفخره باللسان، ما لم تعلمه الجوارح، حتّى غدا رائح[50]))[51]. وهذه البيعة كان الحضور فيها مكوّن من ثلاثة أطراف : الحاكم المبايَع، والرعية المبايِعة، والبطانة المقرّبة من السلطان. هذه البطانة أشار إليها " ابن ميمون " وفق ما يلي:

– " أبو الفتوح " : هذا الشخص قريب بالزواج من محمد بكداش حارسه وحاميه وعينه وعقله. وفرْز أبي الفتوح عن الأربعة يفهم منه أنّه كان أقرب المقربّين من السلطان، وأكبر مستشاريه، وأوثق الأصحاب والأعوان. والناظر في لقبه سيوحي إليه بعدّة خصال ومحامد، وسيشير إليه بعدّة تصورات حول نشاطاته وحركاته، وإقداماته وطموحاته، التي تفوق فضاء القصر، وتعلو فوق حيزّ البلد.

– الأربعة الآخرون: وهو حاضرون أما عتبة الباب .... الحاج محمود صاحب السيف، والفتى الأمجد والآخر، ولم يذكر الرابع. السمة المشتركة في هؤلاء الثلاثة هي القوة والشجاعة والقتال ومقارعة الأعداء، (صاحب السيف المحدود، الليث الهمام الحاج محمود،) (والفتى الأمجد الحسام المهنّد،) (والآخر الذي مازال يخوض بحار الهلك،) والمثير للنتباه أنّ ابن ميمون قدّم هؤلاء الأشخاص بأوصاف اعتمد فيها على التشبيهات البليغة[52]: الليث الهمام، الحسام المهنّد، وعلى الاستعارة المكنية[53] الرائقة: يخوض بحار الهلك.

50 – هكذا في الكتاب.

51 - محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 141.

52 . التشبيهات البليغة: ((التشبيه البليغ: ما بلغ درجة القبول لحسنه، أو هو الطيّب الحسن. فكلما كان وجه الشبه قليل الظهور يحتاج في إدراكه إلى إعمال الفكر كان ذلك أفضل في النفس وأدعى على تاثّرها واهتزازها ... وسبب هذه التسمية أنّ

– أخبار الشريف : وآخر ما عرضه كاتب المقامة ابن ميمون المصير الذي صار إليه حال الداي السّالف حسين خوجة، ((ولنذكر ما كان من أمر الشريف ومعشره، وإخراجهم إلى بدو البلاد من حضره، ومن أوقد نارا صلي بها، ومن أسال دماء الفتنة غرق في في بحرها ...فلمّا انجلى ليلها، وتقلّص ظلّها، وانتشرت الراية وبويع الأجلّ، وعلموا أنّ ملكهم اضمحلّ، وأنّ سعدهم قد أفل... فأتي بالأمير من والي دادا ... ولمّا ظفر أمير المؤمنين ببطلهم ومقدامهم وأخذهم بنواصيهم وعاقبهم على جرأتهم وإقدامهم جعلهم جميعا في مركب ... ألجأهم الريح إلى قرية يقال لها دلس ... ثمّ أشرف ودفن ضحوة الخميس أواخر ذي الحجّة سنة ثمانية عشر ومائة وألف. فانظر كيف كرّ عليه دهره، بخطوبه ...))[54]، من خلال هذا النّصّ تتجلّى للقارئ ما وقع للحاكم السابق من ترحيل ونفي، ثمّ موته ودفنه في التّاريخ المحدّد سالفا. وحلّ الذي حلّ به عقب تولّي محمّد بكداش كرسي الحكم والسلطان بعد أن بويع من قبل أهل البلد.

2 – مضمون المقامة الثالثة عشر:

عنوانها (في استفتاح مدينة وهران وكيف صار عزّ الكفرة إلى الهوان)[55].

ذكر الطرفين فقط قد يوهم اتحادهما، وعدم تفاضلهما فيعلو المشبّه إلى مستوى المشبّه به. وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه.)).
بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية. دار المنار للنشر والتوزيع جدّة المملكة العربية السعودية، ، ودار ابن حزم بيروت لبنان. ط / 4. 1418 هـ – 1997. ص 89.

53 – الاستعارة المكنية: ((الاستعارة بالكناية وتسمّى المكني عنها أو المكنية، وهي التي اختفى فيها المشبّه به واكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلا عليه)).إنعام فوال عكاوي، مراجعة أحمد شمس الدين. المعجم المفصّل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ط / 2 . 1417 هـ – 1996 م . ص 95.

54 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 141، 142.

55 – المصدر نفسه . ص 225 .

هذه المقامة يدور مضمونها الكبير حول القتال من أجل تحرير مدينة وهران وما سبق هذا القتال وما تلاه. ينضوي تحته عدّة مضامين صغرى، تعالقت فيما بينها لصياغة موضوع هذه المقامة.

أ – وهران قبل القتال:

في البداية يضعنا صاحب المقامة أمام مدينة وهران، مقدّما لنا مشهد هذه المدينة غداة استفتاحها والأهبة لقتال المغتصبين وطردهم منها وإرجاعها إلى أهاليها الأصليين، ((لا شكّ أنّها مدينة بلقاء الشّهرة وغاب البسالة، ومنبت الشوكة، وعقاب القواعد المغتصبة للمسلمين، وحتط طائفة العرب العامرين، الخصيبة النّبات والمستبحرة الماء والجنّات، ... مدد الوقود والكروم التي استشنرها الرّوم،... ومصرخ النواقيس الصّائلة، ونصب التّماثيل الماثلة. لا يخفى أنّها كانت شجى في حلق الدّين، وقذى في أعين المسلمين، تنتهب المراكب برّا وبحرا، وتشنّ الغارات على أطراف البلاد قتلا وأسرا...))[56].

وفق ما نعت ابن ميمون مدينة وهران فإنّها كانت مشهورة جميل بلقاء[57]. وإلى جانب جمالها وروعتها فقد كان أهلها معروفين بشجاعتهم وبسالتهم وإقدامهم في كافّة مجالات الحياة الفردية والجماعية. أمّا من حيث ما وهبها الله سبحانه وتعالى من طبيعة ومناخ وغلّات، فقد كانت أراضيها من سهول وهضاب وجبال في خصوبة عالية من أشجار ونبات وثمار الخضر والفواكه، أعانها على ذلك وفرة المياه من عيون ووديان وبحيرات.

56 – المصدر نفسه . ص225، 226.

57 – بلقاء الشهرة: مشهورة كما اشتهرت البلقاء. والأصل في البلقاء سواد يشوبه بياض . والبلقاء ناحية من نواحي الشام. من تعريف المحقق محمد بن عبد الكريم، على هامش الصفحة 225..

في مقابل هذه الخصال والأوصاف لمدينة وهران الباهية يطلعنا على الوجه الآخر الذي آلت إليه مدينة وهران، فقد استغلّها الغزاة وغرسوا فيها الكروم بكثرة فأمدّوا بها أنفسهم ومن هم في الخارج من ملتّهم. وشيّدوا فيها الكنائس ووضعو فوقها النواقيس التي لا تفتر أصواتها، وأقاموا فيها التماثيل المخلّدة لذكريات أبطالهم ، ومآثر زعمائهم. معلنين بذلك التحدّي والاعتداء على حرمات بلاد المسلمين. ولم تقف مصائبهم إلى هذا الحدّ بل اتخذت قاعدة ومنطلقا في البرّ والبحر لمحاربة المسلمين الوافدين إليها والمارّين بها نحو الشرق والغرب، والاستيلاء على ماحوته سفنهم من مواد وسلع وحاجات، والفتك بأصحابها تارة تقتل من تريد وتارة أخرى تأسر وتنفي وتشرّد .

ب – الإعداد للفتح وإنقاذ وهران:

بعد الوصف لمدينة وهران بخاصّة ما صارت إليه على يد الأعداء الروم الغاصبين، ينتقل ابن ميمون في مقامته إلى الحديث عن الاستعداد الجهاد والتحضير للقتال الكفرة المحتلّين لبلاد المسلمين. ((حتّى أتى الله بهذا السيّد الذي أشرقت بطلعته في سماء هذه المملكة شموس الفتوح، بما منحه الله من النّصر الممنوح، فاستدعى أهل الجهاد، وضيّق عليها فسيح العباد، واستكثر آيات القتال، ورفع المجانيق عبى الأعجال، ... وواصل الجيوش من المطوعة الغازين المدونين، ... فتضاعف بذلك يقينهم، وازداد به على قتال العدو حرصهم، ... استحموا بحمى

الابراج المشيّدة، وفرج الأبواب المتعدّدة، وتلاحق وابل الأمم المحشودة المحشورة، من المجموعة المنصورة الموفورة، تموج بهم عرفات موقف الجهاد، ويتراكم منهم ـ وفّرهم الله ـ رجل الجراد،))[58].

فكان قائده ورائده السيّد السلطان المبايع " محمّد بكداش "، وكان متمرّسا بالقتال والنصر. ونادي في المجاهدين ودعا المقاتلين ليتهيّؤوا للمعركة الفاصلة وللحرب الحاسمة، ووفّر لهم كافّة وسائل القتال من أسلحة ومختلفة ومتفجّرات شتّى ومن خطط وتصميمات لحصار الغزاة والقضاء عليهم، وسرعان ما تلاحق المتطوّعون والراغبون في التعاون مع إخوانهم المجاهدين لتحقيق الغاية وإنجاز الوعد المأمول. فكان الحصار للأبراج المشيّدة من قبل الأسبان الغزاة لمنعهم من اتخاذها وقاية من مقاومة المسلمين، والإحاطة بمختلف الأبواب التي تمكنّهم من الحركة وصدّ الهجومات والإغارات فأغلقوها وحرسوها. فكانت المعارك في الجهادية أمواجا عاتية لا تبقي ولاتذر.

ت – التفصيل في أحداث القتال والنصر:

وهذا الكلام من المقامة في وصف مجريات المعارك التي دارت بين المسلمين والكفار الغاصبين، ((فشره النّاس إلى العدو، وخفوا إلى حومة الحرب، ... ففرعوا للحين سورها، واقتحموا منازلها ودورها، ... وولّوا عليها شدّة، حتّى أزعجوهم عنها عنوة، واستلحموا منهم جملة، وتعلّقوا بسور البلد، وبادروا الهيعة، ... فلا ترى إلّا هاويا من ثرى شرفة تخلفه جمة، أو شهيدا تتراحم على مواقفه لمّة، ...))[59].

58 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائر المحمية . ص 226.

59 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائر المحمية . ص 226، 227.

من خلال هذا الجزء من المقامة يتّضح للقارئ كيف سارع وبادر المجاهدون إلى مقارعة الأعداء دون التواء أو تلؤكّ بل بكلّ حماس وحرارة وصدق وإخلاص. فحاصروا الأسوار وشلّوا كلّ حركات العدو منها وإليها. كما أنّهم تمكّنوا من من مهاجمة الأعداء في بيوتهما ودخلوها عنوة وعنفا وطردوهم منها . فكانت المواجهة الغالبة، والمعاركة الظاهرة، وحتما فيها القتلى من أولئك والشهداء من جهة المجاهدين الذائدين عن حمى وطنهم ودينهم.

وبعد هذا التسجيل لما وقع في المعركة يورد " ابن ميمون " هذا التعقيب ((ونزل الصّبر، وأنجز الوعد، وقذف الله الرّعب في قلوب الكافرين، وأمدّ أولياءه بالملائكة الموسّمين،))[60] والمتتبّع جيّدا لهذا التعقيب في تشكيلاته سيجده مؤّلفا من معاني اشتقّت من القرآن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.ويمكن اعتبارها من الاقتباسات.

يصور صاحب المقامة في هذا النص قوة صبر المجاهدين المستمرّ، وعظم تجلّدهم الطويل الثابت، كما يصور الهلع والخوف الذي غمر قلوب الكافرين وأرداها صرعى مندهشة حائرة من شدّة الموقف الذي رأته وعاشته، هذا الموقف الذي لم تكن تتوقّعه يوما. فشعرت أنّ المقاتلين لهم فيما هم عليه من قوة وشدّة ورباطة جأش ليس من عندهم وإنّما من عند إلههم الذي قوّاهم وأمدّهم بالعون الكبير والمدد الغزير.

وبعد هذه الوقائع القتالية ((فرعت أسوار المدينة، ودخلت والحمد لله عنوة، ... وحقّ عليهم القول، وأخذتهم الرّجفة، ولولا أنّهم هربوا ليلا، لهبروهم بالسيوف، وعاجلوهم بالحتوف،

60 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائر المحمية . ص 227.

واستولوا على أقطار المدينة))[61] ، يتحقّق النّصر وتمّت السيطرة الكاملة على الأسوار، وتمّ الدخول إلى المدينة، وهرب من الأعداء من هرب خاسرا خاسئا. واستحضار ابن ميمون لهذين التضمينين (وحقّ عليهم القول، وأخذتهم الرّجفة،) يوحي بمشاهد شاخصة كابدها المجرمون وتجرّع سمومها الغرورون الذين ﴿ ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾[62] وهكذا انقلبت الأمور إلى أصولها وعادت الأحوال إلى مساراتها الأولى الصحيحة ((واستأثر هذا السيّد نصره الله بالسعد المؤجّل، فدخلها خليفته وعسكره المنصور بالله في اليوم الأغرّ المحجّل، من شوال سنة تسع وعشرة ومائة وألف))[63] . يوثّق ابن ميمون تاريخ هذا الانتصار على الأعداء يوما وشهرا وسنة هجرية مبيّنا دخول خليفة السلطان وعسكره المدينة، معلنين خروج الإسبان مذمومين مدحورين، ودخول أهالي وهران إلى أراضيهم بعد أن أخرجوا منها ردحا من الزمن أعزّة متمكّنين.

ث – الشكر والاحتفالات والتهاني:

ماذا بعد النصر ((أقيمت فريضة الشّكر ـ والحمد لله ـ لوقتها، ... فوقع هذا الفتح المبين عند استشراف النفوس إليه، بتمالئ الصّالحين عليه، ومن حينه انتشرت به في الأقطار البشائر، خصوصا لثغر الجزائر، فكان يوم عيد، وسرور جديد، ... ثمّ احتفل الأمير ـ نصره الله ـ لأيّام الزينة، في وقار وسكينة،... و أقبلت فيها التّهاني، على مولانا من كلّ شاعر، ونظم في ذلك

61 –المصدر نفسه. ص 227.

62 – سورة الحشر / الآية 2.

63 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائر المحمية . ص 228.

من لا يعد مع ناظم ولا ناثر،))[64] هذا الذي حصل وحدث، كان بعد تحقيق النصر على الأعداء. أوّلا انكبّ المسلمون بعد النصر مباشرة على شكر الله الوهاب المنعم العزيز الحكيم، ﴿ وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[65] وكان مع الشكر الحمد لله المتين الحميد، وربط صاحب المقامة الشكر بكلمة الفريضة يدلّ على التجرّد والتواضع والذلّ والخضوع لله سبحانه، كما يدلّ على انتفاء العجب والغرور من أنفس المسلمين، كما يدلّ على إيمانهم العريق وتميزهم عن الكفّار غداة انتصاراتهم. بعد هذا يعود للتذكير بأنّ النصر بعد الله ما كان له أن يتحقّق وينجز في أرض الواقع لولا الهمّة العالية التي كانت تغمر نفوس المجاهدين وتحذو أرواحهم، إلى جانب التعاون الكبير بين سائر أفراد المجتمع الوهراني المسلم قصد الوصول إلى الغاية المسطّرة والطموح المنشود. هذا النصر الكبير احتفل به من قبل الرعية والأمير مثل يوم العيد. وصار خبرا متداولا في كافّة بلاد الجزائر فكانت التهاني ترد تترى من شاعر وناظم وخطيب.

3 – مضمون المقامة الخامسة عشر:

عنوانها: (في حصر حصن المرسي، وكيف افتتحه المسلمون وزال باختتامه الأسى)"[66] .

المضمون العام لهذه المقامة يتمحور حول حصار والمسلمين أهالي وهران لحصن المرسى وما تلا هذا الحصار من معارك، تُوّجت بنصر كبير وفتح عظيم، هذا المضمون الواسع للمقامة احتوى على مضامين فرعية صاغته وشكّلت منه مقامة بتمامها.

64 - المصدر نفسه. ص 228، 232.

65 – سورة الأنفال / الآية 10.

66 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائرالمحمية . ص 245 .

أ – فرار الأعداء من الحصن :

يستفتح "ابن ميمون" مقامته هذه بتصوير فرار الكفرة المحتلّين، ((ولما فرّ من المدينة الكفرة، وزعموا أنّهم ناؤوا عن الذلّ والمحقرة، وأنّهم إذا تفاقم عليهم الأمر، يفرّون في البحر، فذهبت السفن من عندنا تحاصرهم ، والمسلمون في البرّ تطاردهم ، وهذا الحصن عظيم البنا، كأنّه مدينة للسّكنى، ولم يأت الوصول إليه إلّا عن طريق واحدة ، والأمم تذهب إليه وتأتي بائدة، وبإزائه حصن صغير للحرب أعدّوه، فتعلّقت به المسلمون وفتحوه،))[67] ، هذا عرض عامّ لواقع المعركة لم يفصّل فيه، وكلّ ما ذكره فيه هو ما آلت إليه أحوال الغزاة المحتلّين المتحصّنين من قبل بحصن المرسى من هوان وإذلال، وإدبار على أعقابهم، وفرار مشين مهين، وفي مقابل ذلك ذكر كيف كانت مقارعة سفن المسلمين لهم في البحر ومباغتتهم في البرّ. والفرار كان من مدينة مرسى الكبير الصغيرة، وبالضبط من الحصن الكبير الذي أقامه بها المحتلون الغاصبون، والحصار والمطاردة كانت من أجل استرجاع هذا الحصن بعدما أخذ منهم عنوة وقهرا، فكانت الغاية المنشودة أن عزم المسلمون وأصرّوا على فتحة بعد أن بذلوا ما في وسعهم. فتحقّق لهم ذلك.

ب – المعركة ومخلّفاتها :

المعركة لم تكن سهلة ودكّ الحصن لم تكن بالعملية اليسيرة لولا ذاك القائد وحكمته في الحرب، فبعد أن حاول الجنود المرّة تلو المرّة طال عليهم الأمر ، ((وتحيّر المسلمون لطول مكثه ،

67 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائرالمحمية . ص 245 .

حتّى أيسوا من فتحه، فأمر أبو الفتوخ باللغم أن يحفر من جهة البحر، ولما أطلقوه مكثت الظلماء هنيئا، فانقشعت على مثل مرآى الضمآن للسّراب ... وكذلك الثاني والثالث وفي الرابع استفتحوه عنوة بما فيه من البضائع وعدد النصارى الذين فبه ثلاثة آلاف من المتمرّدين، ولكن بطعام من غسلين[68] أبطال من بعد الأقدام ما نكصت، وأقدام تثبت في موقف الهول واستقرّت، وأجناد عاهدت الله فوفت وبرّت...)). [69] بعد محاولة الجنود المسلمين المتكرّرة ، حلّت خطّة القائد وجاء أوانها. أمر القائد باستعمال الألغام في حفر كبيرة قرب الحصن وقرب تجمّعات الاعداء. فكانت الألغام تتفجّر تباعا وباستمرار ، وصاحب ذلك الالتحام مع بعض المندسّين المتبقّين من الكفرة. فحصل النصر ووقع الفتح. وكانت الغنائم كبيرة من بضائع وسلع ومواد مختلفة وآلات لا تحصى، وأسرى من الأعداء الذين تمكّن منهم المسلمون.

وهؤلاء الذين تحقّق على أيديهم النصر كانوا على درجة عظيمة من الإقدام، وعلى خلق كبير من الثبات بعد أن عاهدو ا الله على النصر أو الموت بوفائهم وتضحياتهم .

ت – (تواصل الرعية وتفاعلها مع سيّدنا نصره الله):

ولا يغفل صاحب المقامة عن التذكير بعامل من العوامل الحاسمة في التمكين وتحقيق النصار، وقوّة العلاقة بين المسؤول والرعية بما فيهم العسكر والمرابطون، ((كلّما اعتلّت قوى إدراكه جاءه من الله الإمداد يعوده، ونحن من السّرور بما يسنّيه الله له حيث لايلبس حلّة فخر إلّا لبسنا من الفرح مثالها، ولا يتحلّى غرّة فتح إلّا استجلينا جمالها، ولا ينال سبب نعمة إلّا

68 – المصدر السابق . ص 245 ، 246 .

69 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائرالمحمية . ص 247 .

حمدنا منالها، نشرب من ذلك فضل شربه، ونرد عقب ورده، ونمت إلى الله بمثل منات مجده، فكلّ ما امتدّ لدولته العلية ظلّ انفسحت، آمالنا وامتدّت وأدركنا سرور، بما كان من الظّهور، الذي خفقت علينا راياته، والنّصر الذي أنزل إلينا آيته، والفخر الذي ادّخر لملك سيّدنا غايته))[70] . إنّ الرعية لا تكاد تفارقه في حِلّه ولا تغفل عنه في ترحاله، إذا مرض دعت له الرعية بالشفاء والمعافاة. لا يلبس شيئا من حلل الشرف والرفعة والسمو إلّا ولبسته معه.

ولا يحصل على نعمة إلّا وفرحوا واستبشروا بذلك، ولحقتهم منها بركاتها وثمارها. وكلّ ما حلّ به من ظلال ورافة ومن آلاء يافعة إلّا وصلهم منها ما وصلهم من الآثار والثمار. هذا الواقع ينبئنا خير إنباء عن قوة الوشائج التي توجد متداخلة متبادلة بين الرئيس والمرؤوس والتي تكشف عن الحبّ والمودّة بينهما، وتبيّن القرب والدنو الكبير الذي يحكم بخيوطه حولهما، فالغاية واحدة والطموح واحد، فما يصدر عن هذا يفسّر بما يصدر عن الآخر.

ث – وصف وهران :

هذا الحديث عن وهران وصفا وفخرا، إشادة وتنويها، تعظيما وإجلالا له أكثر من صلة بما سبق أن أورده ابن ميمون في هذه المقامة، ((وما أدراك ما وهران، قاعدة للملك وواصلة السلك، وقلادة النحر، وحاضرة البرّ والبحر، أسندت إلى التلّ ظهرا، وأفصحت بالفخر جهرا، وأصبحت للغرب بابا، وللقفول ركابا، ولسهام الأمل هدفا، ولدار العلماء صدفا، حسناء تسبي العقول، بين التّقنّع والسفور، والاطماع والنّفور، ولبست حلّة الجناب الخصيب، وفازت من

70 – محمّد بن ميمون الجزئري. التحفة المرضية في الدولة البكداشبة في بلاد الجزائرالمحمية . ص 246 .

الاعتدال وأوصاف الكمال بأوفى نصيب))[71] قاعدة للملك عاصمة الإقليم، جمالها بارز جليّ مثل ما يجعل في العنق من حليّ ذهبية وفضّية، وأكبر المدن في أراضيها، وما منحها الله من شواطئ تفوق الشواطئ الأخرة سعة وجمالا، مسنودة الظهر إلى التلّ وما يحتوي من سهول وهضبات ووديان . وهي المنفذ والباب المفضي إلى بلاد المغرب الأقصى.

كلّ الناس يأمل في زيارتها والإقامة والتمتّع بخيراتها وثمارها وما حباها الله من المنافع والخيرات ، وهنا شبّهها " ابن ميمون " بالحسناء المرأة الجميلة المغرية الفاتنة التي تغري كلّ من رآها واطّلع على حسنها ، كما صوّرها مرتدية لحلل الخصوبة كناية عن غناها الطبيعي والمادّي.

وزيادة على ذلك فهي المقرّ المريح للعلماء والمنزل الفسيح ، والمرتع المعين على القراءة والبحث والكتابة . وآخر ما وصف به وهران أنّها حائزة على منازل الوسطية والاستقامة فلا تطرّف، ولا غلوّ . كما لا يلاحظ فيها الزائر إلّا الحسن والجمال ، وهذا ما عبّر عنه بقوله (وفازت من الاعتدال وأوصاف الكمال).

ج – تهنئة الشعر على فتح حصن المرسى:

ذكر " ابن ميمون الجزائري " أنّه بعد فتح حصن المرسى تلقّى التهاني في هذا المقام، وهما من جنس الشعر ، الأولى أرجوزة نظمها مفتي تلمسان " أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد الحلفاوي " وهي في تاريخ مدينة وهران ومدح فاتحها. والثانية منظومة " لمحمّد بن عبد الرحمن المغربي " في مدح الدّاي " محمّد بكداش " وتهنئته بالفتح.

71 – المصدر نفسه . ص 248 ، 249 .

ثانيا: مضامين مقامات ابن محرز الوهراني:

وللتّذكير فإنّ كتاب ابن محرز الوهراني [72] يحتوي على ثلاث مقامات. الأولى هي محلّ الدّراسة، والثانية قدّم لها المحقّق بعنوان (وله أيضا مقامة في شمس الخلافة) ،والثالثة عنوانها قدّمه المحقّق بالعبارة التالية (وله مقامة).

1 – مضامين المقامة الأولى:

عنوانها: لم يثبت لها عنوانا يمهّد لها قبل عرضها ((قال الشيخ ركن الدين محمد بن محمد الوهراني المغربي عفا الله عنه يصف ربغداد المحروسة وسفره إليها ويمدح الخليفة))[73] . إذا رجعنا إلى المقامة فإنّ أهمّ مضامينها يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام :

– المقطع الابتدائي من المقامة أو الاستفتاح :

يبتدئ هذا المقطع من السّطر الأول للصّفحة الأولى ((قال الوهراني: لما تعذّرت مآربي ...)) إلى قوله ((بدأني السّلام وبسطني الكلام)) في السّطر الرابع من الصفحة الثانية. وهذا المقطع يمكن عدّه بمثابة التّمهيد الذي يربطنا بالجزء الكبير من المقامة، وذلك يرجع إلى طبيعة ماتضمّنه من قضايا مهّدت لمحريات ما تبقّى من المقامة. وهذا الجزء الكبير بدا لنا أنّه يتكون من ثلاثة فروع.

– الفرع الأول: حوار بين محمد بن محرز الوهراني وصاحب الدّكّان الشيخ أبو المعالي. السائل فيه الشيخ أبو المعالي، والمجيب هو محمد الوهراني .

72 - محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله.

73 –المصدر نفسه . ص 1.

– الفرع الثاني استمرار للحوار، لكن السّائل فيه هو محمد الوهراني، والمجيب كذلك هو الشيخ أبو المعالي.

أ – مضامين القطعة التمهيدية:

– سبب خروج " ابن محرز الوهراني " : ((لما تعذّرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي،)) 2 ـ ما هو زاده والعدّة التي أعدّه للسفر: ((وجعلت مذهبات الشعر يضاعتي، ومن أخلاف اللأدب رضاعتي،)) 3 ـ الاتصال بالحكّام والمسؤولين: ((فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته، ولا وزير إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلّا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه)) 4 ـ عدم وضوح الوجهة والمكان الذي يريد الاستقرار فيه: ((فتقلّبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار،)) 5 ـ الاقتراب من العراق: ((حتّى قربت من العراق، وسئمت من الفراق)) 6 ـ فقصدت مدينة السّلام للحجّ: ((فقصدت مدينة السّلام، لأقضي حجّة الإسلام،)) 7 ـ دخلتها . الحالة : ((فدخلتها بعد مقاسان الضرّ، ومكابدة العيش المرّ)) 8 ـ الاستقرار والنّظر : ((فلمّا قرب بها قراري، وانجلى فيها سراري، طفتها طواف المفتقد، وتأمّلتها تأمّل المنتقد،)) ((فرأيت بحرا لا بعبر زاخره، ولا يبصر آخره، وجنّة أبد جنّانها، وفاز باللذّة سكّانها، لا يميل عنها المتّقون، ولا يرتقي إلى صفاتها المرتقون، ﴿ كمثل الجنّة التي وعد بها المتّقون ﴾))[74] . التشوّق الكبير بعد فترة العزلة إلى الاتصال بالنّاس والتحدث معهم : ((فأرحت نفسي من سلوك الغور والفجّ، وجلست أنتظر أيام الحجّ، وتاقت

74 – سورة الرعد / الآية 35 .

نفسي إلى ملاقاة العقلاء، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء،)) . الاتّصال بالشّيخ صاحب الدّكّان " أبي المعالي " : ((فدلّني بعض السّادة الموالي، على ذكّان الشيخ صاحب المعالي)).

– الوصف : ((فقال هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، فقصدت قصده، حتّى جلست عنده، فحين نظر إلي، ورأى أثر السفر علي، بدأني بالسلام، وبسطني بالكلام))[75] .

وهذا التمهيد تلته سلسلة من الأسئلة والأجوبة، جزء منها يتّسم بالسمة التاريخية السياسية، وقسط منها يتميّز بالطابع المحلّي الواقعي المعيش. وهي حوارات كما سنرى فيها تبادل الأدوار بين شخصين في السؤال والجواب، وهما ابن محرز الوهراني المنشئ للمقامة وراويها، من جهة وصاحب الدكّان " أبي المعالي ".

ب – القسم الأول:

وهو بمثابة حوار بين راوي المقامة " ابن محرز الوهراني " والشيخ أبي المعالي صاحب الدكّان، السّائل في هذا الحوار أبو المعالي والمجيب عن السّؤال الرّاوي محمد الوهراني.

السؤال الأوّل من طرف " أبي المعالي " صاحب الدّكّان كان ذا طابع تاريخي سياسي، ((فقال أوّل ما أسالك عن دولة الملثّمين[76] وأبناء أمير المسلمين؟ فقلت: هيهات، يا بعد من

75 – هذه الشواهد المختلفة من المقامة توجد في ص 1، و 2 .

76 – دولة الملثّمين هي المعروفة في التاريخ الأسلامي بدولة المرابطين. ((وأطلق على القبائل الصنهاجية اسم الملثّمين وأصبح اللثام شعارا عرفوا به حتّى سمّوا بالمرابطين)) سعدون عبّاس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين. دار النهضة العربية. بيروت لبنان. ط / 1 . 1405 هـ – 1075 م . ص 13 .

مات خمدت نارهم، وبادت آثارهم، واسودّ ناديهم، وملكتهم أعاديهم))[77] . لم يبيّن لنا " ابن محرز الوهراني " السبب القائم وراء هذا الاهتمام بدولة الملثّمين وأبناء أمير المسلمين.

وكانت الإجابة فيها غرابة ودهشة بعد أن صدّرها بعبارة هيهات التي تفيد البعد والنأي وتفيد الحسرة والأسى، بعدها عن الأمان والاستقرار وحسرة السابقين واللاحقين لما فعلت وفعُل بها. فملّ ما أشعلوا من نيران للخير والكرم وللحرب والقتال، خبت وانطفأت، وكلّ ما شيّدوا من آثار أبيدت وهدمت وزالت، وما كان في ربوع أراضيهم من نقاء النوادي والمحلّات انطمست واسودّت وحزن عليها اصحابها، والنتيجة أن سقطت الدولة ورايتها وملكها من بعدهم. أنهى الوهراني إجابته بثلاثة أبيات شعرية فيها ذمّ وتحسّر عليهم .

– السؤال الثاني قريب من الأوّل وهو صادر من الشيخ " ابن محرز الوهراني "، وكما سنرى أنّ هذا السؤال محيّر وغريب وغير معلوم المقاصد والوجهات التي يريد السائل الكريم تحصيلها وتحقيقها ، والسؤال كذلك مطروح ليس فقط حول الزعيم والقائد ((قال: فما تقول في عبد المؤمن[78] وأولاده وسيرته في بلاده ؟ فقلت مؤيّد من السماء، مسلّط على من فوق الماء،

77 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 2.

78 – عبد المومن الزعيم الثاني لدولة لدولة الموحّدين بعد محمد بن تومرت: ((عبد المومن بن عليّ بن علوي سلطان المغرب الذي يلقّب بأمير المومنين الكومي القيسي المغربي ولد بأعمال تلمسان وكان أبوه يصنع الفخّار ... بايع الموحدون عبد المومن البيعة العامة قيل في 20 ربيع الأول سنة 526 هـ وقيل 527 هـ . وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المومن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه.)) ينظر : علي محمد محمد الصلابي، دولة الموحّدين. دار البيارق للنشر. عمّان الأردن. 1998 م . ص 96، 98.

خضعت له ذوي التيجان، وخدمه الإنس والجانّ، ولو أنّ للقلم لسانا، وللورقة إنسانا، لتألّمت وتظلّمت، ولأنشدتك في الملإ قول الشيخ " أبي العلا ":

جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أنجح، ومسالمة الأفاعي أصلح.))[79] بعد السؤال عن دولة المرابطين أنتقل " أبو المعالي " للسؤال عن الدولة التي أعقبتها، وهي دولة الموحدين، لم يذكر السائل اسم الدولة – وهي معروفة تاريخيا – بل ذكر اسم زعيمها السياسي وقائدها عبد المومن بن علي الكومي. أخبره بأنّه كان مؤيّدا في الظاهر فانتصر على دولة المرابطين وأقام بدلها دولة جديدة تامّة الأركان هي دولة الموحّدين. لكنّه كان يستعمل القوة والعنف بشدّة وحدّة، ويفرط فيهما على من خالفه وعارضه من المعارضين والخصوم والرافضين لبيعته ، مسلّطا عليهم سيفه، الكلّ خضع له، وخدمه لما كان فيه من روح قتال وحرب، ولما كان عليه من جرأة وجسارة. ثمّ ذيّل " الوهراني " جوابه بإظهار حزنه وألمه وشدّة أسفه وألمه ، وما كان فيها من ظلم وتعسّف، لكنّه فضّل الصمت والكتمان ، وآثر ألّا يتكلّم لأسباب وعوامل لم يفصح عنها النصّ المقامي ، بعد أن أنشد بيتا شعريا في المقام نفسه.

– السؤال الثالث الذي صدر من السّائل السّابق والمتوجّه إليه بالسؤال هو صاحب المقام ذاته ((قال فما تقول في دولة كافر صقلية، وسيرته في الأيام المتوليّة؟ فقلت له لـمّا انقرض

79 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 2 ، 3 .

طاغوتها[80]، وهلك جالوتها[81]، تناثر سلكها، وتدابر ملكها، فصاروا يمدّنه بالهدايا والبراطيل، بعد الجيوش والأساطيل. ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر)) [82]

عباراتا طاغوتها، جالوتها، تدلّ على خبث ومكر وفساد وطغيان هذه الدولة، وسنّة الله عزّ وجلّ في الظلم والطّغيان أن يؤول إلى الزوال وينتهي إلى الاضمحلال والاندثار، ولم تنفعه إمدادات الظالمين مثله لإنقاذه، والقضاء على أعدائه، وأسباب تلاشيه وهوانه.

– هذا الجزء الرابع ممّا تضمّنه القسم الأوّل من حوار مركزه حول الدولة المصرية وحكّامها. ((قال: فما تقول في الدولة المصرية؟ والخلفاء العلوية ؟ فقلت: عجوز محتالة، وطفلة مختالة، وكاعب فتّانة، وغادة مجّانة.

تفانى الرجال على حبّها ... فما يحصلون على طائل

ربّاها السلطان في الحجور، بين الفسق والفجور، حتّى إذا هرمت سعودها، ودوى عودها، رميت بالرواعد، فأتى الله بنيانهم من القواعد.

وإنّ الجرح ينغر بعد حين ... إذا كان البناء على فساد))[83]

---

80 – طاغوت: ((والطاغوت عبارة عن كلّ متعبّد وكلذ معبود من دون الله ويستعمل فبي الواحد والجمع ، قال (فمن يكفر بالطاغوت، والذين اجتنبوا الطاغوت، أولياؤهم الطاغوت، يريدون أن يتحاكموا على الطاغوت)، فعبارةٌ عن كلّ متعدّ، ولما تقدّم سمي الساحر والكاهنلاوالمارد من الجنّ والصارف عن طريق الخير طاغوتا ووزنه فيما قيل فَعَلُوت نحو جبروت وملكوت، وقيل أصله طَغَوُوت ولكن قلب لام الفعل نحو صاعقة صاقعة ثمذ فلب الواو ألفا لتحرّكه وانفتاح ما قبله)). الحسين الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن. تحقيق وضبط محمد سيّد كيلاني. دار المعرفة بيروت. لبنان. ص 304 ، 305.

81 – جالوت ((اسم ملك طاغ رماه داوود عليه السلام فقتله. وهو المذكور في قوله تعالى " وقتل داوود جالوت ". المصدر السابق . ص 104 .

82 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 3.

وكانت محلّ الأطماع من خلال البيت الشعري الذي ساقه. حياة هذه الدولة اصطبغت بالعصيان والمروق وتجاوز الحدود إلى أن هوت وصعفت وأصابها السقم. والبيت الشعري الثاني مؤكّد على ما أصابها من فساد واضمحلال.

– انتقل " أبو المعالي " إلى سؤال آخر في إطار البحث عن أخبار الدولة المصرية: ((قال كيف أخذت من أربابها واستنزعت من أيدي أصحابها ؟ فقلت له: اعلم أنّه لـمّا أحان الله حينهم، أظهر شينهم، وألقى بأسهم بينهم، فضرب زيد عمروا، وقتل خالد بكرا، وكُسر قراب السيف، وأغمد في الشتاء والصيف. فما انقشع فسادهم، حتّى فنيت آسادهم، ولا برِح عنادهم، حتّى[84] تفرّقت أجنادهم، فقصرت حبالُ الدولة عن ربطها، وضعُفت رجالها عن ضبطها، فيقيت كالجارية الحسناء التي أبرزها الحجال، وأسلمتها الرجال، فتغاير عليها الجيران. وسبق إليها رجال الإفرنج، فصيّروها كرقعة الشطرنج، يجوسون خلالها، ويتفيّؤون ظلالها.))[85]. الجواب كان حول أسباب الضعف والهوان الذي أصاب الدولة المصرية، وكان التركيز فيه على القتال الداخلي الذي أصاب أهالي الدولة، والدم الذي أساله البعض للبعض الآخر، وما تبع ذلك من آلام وجراح، وخسارة وضياع، في الأفراد والجماعات، وفي كافّة جوانب الحياة. وأكبر

83 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 4.

84 – حتّى ((حرف وهي على أربعة أوجه: أن تكون حرف جرّ ... أن تدخل على المضارع فينصب بأن المصدرية، محذوفة وجوبا، والمصدر المؤول فيمحلذ جرّب حتّى ... أن تكون حرف ابتداء ... أن تكون حرف عطف ...)) جرجس عيسى الأسمر، قاموس الإعراب. دار العلم للملايين. بيروت لبنان. ط / 6 . 2001 م . ص 34.

85 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 4.

خسارة تحلّ بالمجتمع في مثل هذه الظروف الصعبة هي التفرقة والتشتّت، واتشار البغضاء والعداوة، بين القلوب وبين الرئيس والرعية، وبين الخادم والمخدوم,

هذا كلّه يؤدّي إلى تكالب الأمم والدول المجاورة على البلد، والسعي إلى تدميرها واحتلالها والسيطرة عليها . وهذا الذي حلّ بالدولة المصرية.

– هذا الوضع المخيّب والحال المحيّر لم يرض ذوي الغيرة على الدين وبلاد المسلمين، ((فأنف من ذلك ذوو الأحلام وملوك الإسلام فانتدب لها من بني شادي الأسد الهصور والملك المنصور[86] فرماها بهمّته وقصدها برمّته. فدافعوه ومانعوه واستعانوا عليه بالأسود وبالأحمر، وبالملوك من بني الأصفر[87] . فقتلهم وكسرهم، وأخذ ابطالهم وأسرهم . ولم يزل فيها بين الطارق والمنتاب، والسّاكن والمرتاب، إلى أن طواها طيّ السجّل للكتاب. فلمّا انتهى إلى كماله وبلغ النهاية في آماله، وفاز بالرضوان في قربه، انتقل إلى ربّه.))[88]، فالاختيار كان صائبا لهذا الأسد الهصور والملك المنصور الذي لقي صعوبات جمّة في بداية الأمر من أجل التحكّم في الأوضاع

86 – الملك المنصور: هو أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان أبو الحارث الملك المنصور عمذ السلطان صلاح الدين الأيّوبي. لمعرفة الحملات العسكرية التي قام بها ضدّ الإفرنج (564 هـ) والوزارة التي تقلّدها ينظر : وفاء محمّد علي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام. ط/ 1 . 1407 هـ . دار الفكر العربي، القاهرة، مصر. من ص 22 إلى 39.

87 – بني الأصفر: يقول المحقق شارحا هذه العبارة ((يريد هنا الروم)). ينظر : المصدر السابق، ص . وهذا الشرح موافق لشرح التبريزي للكلمة، ينظر : الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزّام. ط / 5 . دار المعارف م / 1 . د ت . ص 73. ويذكر ابو تمام في قصيدته التي مطلعها : (السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب) عبارة بنو الأصفر مشيرا إلى الروم في قوله : (أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهمُ ... صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب) . ينظر : المصدر السابق . ص 73.

88 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 4، 5.

وإزالة الفتن، اذ استعين بالرّوم والعجم من أجل إسقاطه، لكن الله غلب وانتصر لهذا البطل المجاهد، فتمكّن من كافّة المتربصين بالبلاد والعباد، فقتل من قتل، وأسر من أسر. ولم ينتقل إلى ربّه حيث مثواه الأخير إلّا بعد أن حقّق غايته فكان الأمن والأمان والراحة والهناء، فكان بذلك راضيا بما قدّم وبذل، ومرضيا عنه من قبل ربّه والرعية.

ـــ وبعد موته صارت الأمور مضطربة والأحوال شقية، فاتفق الناس على اختيار خليفة له من أهل بيته فكان الاختيار من قبل أهل الحلّ والعقد لابن أخيه "الملك النّاصر" لما رآه فيه من مؤهلات تجعل منه القائد القوي الشجاع والحاكم الصارم العادل. ((فوثب عليهم وثبة الأسد الكاشر[89]، وسطا عليهم سطوة الأسد الباسر فأخرج المفسد والمحارب، وقتل الافاعي والعقارب. فتمهّدت له شعابها، وذلّت بسيفه صعابها. وصارت القاهرة بعدهم كجنّة النعيم. ((وصلّى الملك الزاهد والبطل المجاهد نجم الدين وسيف المجاهدين أوّل جمعة صلّاها أربعا، ولم يجد فيها للسنّة مجمعا، فصعب عليها تبطيل هذا الفصل، وإسقاط ذلك الأصل، فاقبل يمهّد القواعد ويهديها، ويخمد البدع ويخفيها حتّى كمل الإسلام، وتمّ دين النبي عليه السلام. وأتى البيت من بابه، وردّ الأمرإلى أربابه، أجرا ساقه الله إليه، وفتحا مبينا قضى به على يديه.)) [90] وكان ما توقّعه المختارون له والرّاضون به، فاستعمل القوة والشدّة في محاربة المتمرّدين والخارجين عن طاعة الدولة، والرافضين للنّظام والقانون، المفسدين للدّين والدّنيا.

89 – اسم الفاعل: ((يدلّ على ما وقع منه الفعل أو قام به على معنى الحدوث، وهو كالفعل لازم ومتعدّ، فإن كان لازما رفع الفاعل (أمسافر السيّدان) ، وإن كان متعدّيا نصب المفعول به (أضارب سعيد أباك ؟) ...)) . صالح بلعيد، الصرف والنحو. دار هومة، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر. 1998 م. ص 97.

90 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 6.

وشيئا فشيئا رجعت الأمور إلى نصابها بعد الفوضى والخراب، وتحوّلت إثر ذلك القاهرة إلى جنّة جميلة عامرة مثمرة حيّة، بعدما كانت قبيحة خاوية قاحلة ميّتة. وأقام فيها الصلاة هو والبطل "نجم الدّين" وسيف المجاهدين بعد أن هجرت وتركت. فحارب كلّ الانحرافات التي سنّها الجهّال والمارقين في الدين وأعداء القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، كما عمل على استئصال محداث الأمور. وحرص على إقامة الجمعة بعد أن أسقطت. فكان عمله بمثابة الفتح الجديد والنشر للدين القويم.

عقّب "ابن محرز الوهراني" على هذه الأخبار والأحداث التي أجاب بها على أسئلة "أبي المعالي" بقوله ((فحصل بنو شادي على الرتبة الفاخر، وقطعوا عرض اللجّة الزاخرة، وفازوا بنعيم الدنيا وثواب الآخرة. فساد ذكرهم في الأقطار، وانثال عليهم ذوو الأخطار والأوطار، وقصدهم الملك والملوك، وانتابهم الغني والصعلوك، فوهبوا الحباد والعباد، وفرّقوا المال والأعمال، فقويت بهم كلمة الموحّدين، وخمدت نيران المشركين، بسعادة المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين. فقال لله درّك لقد أجبتني وأعجبتني، وأنشد:

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود[91]))[92]،

نستخلص من هذا التعقيب أنّ "بني شادي" قد أقام الدنيا والدين في بلادهم، وأقاموا ملكهم على العزّة والقوة، وعلى الخير والأمان. حقّقوا لشعبهم الرفاهية والاستقرار، فنالوا بذلك رضى الله ورضى الرعية، وحصل لهم الشرف الرفيع والذكر الجميل. وكانوا رحمة للبعيد والقريب وللعدو

91 – ديوان طرفة بن العبد . شرح وتقديم محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان. ط / 3 . 1433 هـ – 2002 م . ص 29.

92 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 6.

والخصم والجاهل والعالم، فتحقّق التوحيد المنشود ورحل إلى غير رجعة الشرك المنبوذ. هذا هو القسم الأوّل من الحوار المتعدّد بين "محمد بن محرز الوهراني" وصاحب الدّكّان الشيخ "أبو المعالي". السائل فيه الشيخ "أبو المعالي"، والمجيب هو "محمد الوهراني" .

ت – القسم الثاني:

يستمر هذ الحوار بعد هذا، لكن سيلاحظ فيه المتلقّي تغيّرا من حيث السائل والمجيب، إذ في هذا القسم يمسي فيه الذي كان سائل مجيبا، والذي كان فيه مجيب سائلا. "فمحمد الوهراني" سائل، والشيخ "أبو المعالي" مجيب.

– إذا كانت أسئلة "أبي المعالي" ذات طابع تاريخي عامّ، فإنّ أسئلة صاحب المقامة "ابن محرز الوهراني" كانت ذات صبغة واقعية وعملية، أملتها الحاجة، وأوجدتها الضرورة وأفرزتها الأحوال غير المريحة وغير المستقرّة، وهذه المعاني تختزلها كلمة (هذه الأيّام) التي قيّد بها سؤاله عن الإمام، ((فقلت له حدّثني أنت عن سيرة الإمام في هذه الأيّام ... فقال: ما عسى أن أقول في ابن عمّ رسول الله خليفة الله في بلاده، ووصيته على أولاده، ومسيح زمانه، مهدي عصره وأوانه، عزيمته أمضى من الحسام، ويمينه أندى من الغمام، ووجه أبهى من البدر ليلة التمام. قد جمع الله فيه من الفضل والولاء ما فرّقه الله في سائر الخلفاء. فكأنّه السفاح في حزمه وعزمه، والمهدي في دولته وصولته، والرشيد في سياسته ورياسته، والأمين في بهائه وسخائه، والمأمون في علمه وحلمه، والمعتصم في شهامته وصرامته ... فطبق البلاد عدله، ووسع العلم فضله، وكسف بنوره القمرين، وأحيا بعدله سيرة العمرين، فحسنت به الأيّام، وتجمّلت، ونالت

الرعية فوق ما أمّلت))[93]. الملاحظ في الإجابة ذكر نسب الإمام الممتدّ إلى الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ بدأ في سرد صفاته وخلاله، فعزيمته قوية شديدة لا تعرف التردّد والتواني والانتظار، وفي مقابل ذلك كرم لا يعرف النفاد، رحمة لا تكفّ عن الانتشار والإكثار. لا ينتهي به الوصف إلى هذا الحدّ، بل يتعدّاه ليؤكّد أن اقتبس من كلّ خليفة ممّن سبقه شيما وفضائل. فكانت النتيجة العدل والعلم والفضل، فهنَأت الرعية وتمتّعت طاب عيشها.

– لم يكتف "الوهراني" بالمعلومات بالمقدّمة حول أمير المؤمنين، بل راح يسأل عن أحد وزرائه البارزين المتقدّمين، ((فقلت ما تقول في عضد الدين؟ فقال جبل حلم راسخ، وطود علم راسخ، وسهم رأي صائب، ونجم عدل ثاثب، نجل الملوك الأكاسرة، وابن التيجان والأساورة، أكرم من الغيث الهامر، وأشجع من الليث الخادر. كان المستنجد بالله ـ قدّس الله روحه وبرّد ضريحه ـ لما خبر ديانته وأمانته، وفهم طريقته وحقيقته، وضع كلّ الدولة عليه، وألقى مقاليد الأمور إليه، فأخذ القوس باريها، ونزل الدار بانيها))[94]، فكانت الإجابة حول "عضد الدّين" بدورها تتمثل في ذكره لأوصاف متعلّقة بالإمام الحاكم في هذا الوقت. والمتأمّل في الأوصاف التي ذكرها "لعضد الدين" أنّها مبني على التصوير والمبالغة، من ذلك قوله: جبل، طود، سهم، نجم، الغيث، الليث. وقد ربط هذه المشبّهات تباعا بسعة الصّدر والرأفة، والمعرفة والثقافة، والصواب في الرأي والسّداد، والإنصاف والمساواة، والقدرة والجرأة . ولثقة "المستنجد بالله" بوزيره

93 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 7.

94 – المصدر السابق . ص. 6، 7.

وما كان يتحلّى به من أوصاف رجال السياسة المحنّكين جعله هو القائم بالشؤون والناهض بتكاليف الدولة.

– بعد سماع "الوهراني" عن أوصاف وأخلاق الوزير عضد الدّين طمع واشتاقت نفسه لملاقاته، ((فقلت ما تقول في حلول بابه، واستمطار سحابه ؟ فقال: والله لو قصدت باب الوزير لأمطرك من وبله الغزير ما يبلغك إلى أوطانك، ... فقلت له: إذن والله أشكره شكر الأرض للسماء، والرّوض الزاهر للماء، ... فقال: أبشر ببلوغ الأمل، ونجاح هذا العمل. فهل عرفت في هذا الأمد أحدا من أبناء البلد ؟ فقلت: كنت أسمع عن مدينة السلام، وأنّه لا يطمع من أهلها غير السلام، فوافق ذلك ما كان في نفسي، وطابق الذي وقع في حدسي، إلى أن دخلت في هذا الأوان إلى جلال الدين صاحب الديوان، فرأيت شخصا كثير الإنصاف، كامل الأوصاف. قال كيف رأيته في نفسه وحسبه؟ فقلت: نجم ذكاء يتألّق، وبحر علم يتدفّق[95]. مروءته ظاهرة وأفعاله طاهرة.))[96] هذا الطمع في مقابلة الوزير ورد عن الوهراني في شكل استشارة ملقاة لأبي المعالي، فأخبره المجيب أنّ لو تمّ القصد واللقاء لكان وراء ذلك الخير الغزير والعطاء الوافر، والكرم الزاخر. فكان ردّ الوهراني لو أعطاني ما أتمنّى ، ووهبني ما حتاج لأكثرت ذكر نعمته، وأثنيت عليه الثناء الجميل، ودعوت الله له بالزيادة والنّماء. فكان من "أبي المعالي" وهو ينصت "للوهراني" أن أنبأه بأن الغاية المنشودة ستنجز، والأمنية السعيدة ستتحقّق. بادره

95 – الجملة الاسمية ((الجملة الاسمية هي الكلام المبدوء باسم أصيل ، ولها ركنان أساسيان : المسند غبليه (المبتدأ) والمسند " الخبر ")) ناصر بن عبد الله الهويريني، مفاتيح الإعراب. دار الصميعي للنشر والتوزيع ، الرياض السعودية. ط / 1 . 1429 م – 2008 م . ص 53.

96 - محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 8، 9.

"أبو المعالي" بسؤال حول من يعرفه من أهل البلد هذه التي يقيم بها، فأجابه "ابن محرز" عن غير ما سأله، إذ قال له أنه كان يسمع في الكتب وعن الناس أحاديثهم عن هذه المدينة الملقّبة بدار السلام، وأنّ أهلها شغلها هو السلام ، فحلّ بها وارتاح لذلك واطمأنّ له فاستقر بها في انتظار أداء فريضة الحجّ. وعاد ليجيبه عن السؤال أنّ الشخص الذي عرفه من أهل البلد هو "جلال الدين" صاحب الديوان، وكان هذا الرجل حسب "الوهراني" رجلا عادلا منصفا ويتحلّى بمختلف الأوصاف الرفيعة والحسنة. وشهد أنّه قد كفاه وأمدّه بكلّ ما كان يتمنّى.

وقد ضمّن "الوهراني" هذا الجزء من الحوار ببيتين شعريين تابعين معنى وعاطفة لما سبق أن فصّله. ما تبقّى من المقامة هو آخرها ويمكن عدّه بمثابة الخاتمة التي ليس هنا مكانها من الدراسة فحواها ثناء حسن، وذكر جميل عن الإمام والولد، ووداع وفراق بعد المعاشرة والمؤانسة. وما تبقّى لا يتعدّى ما يقارب ثلاثة أسطر.

2 – مضامين المقامة الثانية لابن محرز الوهراني:

عنوانها: (شمس الخلافة) .

هذه المقامة ذات طابع قصصي، تتوفّر على أغلبية العناصر الفنّية التي تصنع من نوع من الكتابة الأدبية جنسا اسمه القصّة. مضمونها يشوبه الجانب الدّيني، والأخلاقي، والاجتماعي. وبعد قراءتنا لها أمكننا أن نقسّمها إلى مضمونين كبيرين، القسم الأوّل منهما في شكل مجموعة من الأحداث الفرعية التي يمهّد من خلالها صاحب المقامة للحدث الرّئيسي الذي تأسّست حوله المقامة. أمّا القسم الثّاني فهو الحدث الذي تضمّن حال الشيخ الذي أرادت منه العجوز المغربية أن يكون فقيها. فبعد الوصية والتعليم حدث له ما حدث.

أ – القسم الأوّل: سبب الهجرة: يستهلّ "ابن محرز الوهراني" مقامته بإسنادها إلى شخص معيّن بعد أن أسند إليه كلمة "حدّثنا"[97]، ((حدّثنا عيسى بن حمّاد الصقلّي، قال: لـمّا اختلّ في صقلية الإسلام، وضعف بها دين محمّد عليه السّلام، هاجرت إلى الشّام، بأهلي ... فدخلتها بعد معاناة الضّرّ ومكابدة العيش المرّ. فلمّا انجلي فيها سرارى، وقرّ في بعض محلّاتها قراري.))[98] هذا الشخص المسمّى "عيسى بن حمّاد الصقلّي" يحدّث جماعة من المستمعين منه الوهراني عن نفسه. رحل إلى بلاد الشام بامرأته وأولاده، بعد ما لحقه من ألم وضير، ومن غبن في المطعم والمشرب والدّخل، واستقرّ بها. وسبب الهجر يعود إلى الانقلاب على الدّين الذي حدث في صقليّة.

– الرّجل المثير: وبعد أن حلّ بحيّ من أحياء الشّام، يقول ((رأيت معي في الحارة رجلا ثقيل الإشارة، نبطي الشكل والعبارة، يأخذه التيه ويدعه، ويرفعه الإعجاب ويضعه، فقلت في نفسي ليت شعري من ذا ... فاعترضته في الطريق وسلّمت عليه سلام صديق ... وبسطت بالحديث حتّى جاء بالقديم والحديث، ... وبان لي من خلال ألحاظه وفلتات ألفاظه أنذ الرجل يقطينة، وأنه مغربي الطّينة.))[99] .

في هذه المقولة يسجّل لقاءه بشخص من الأشخاص القاطنيين بالحيّ الذي يسكن فيه. رجل ليس كسائر النّاس، يغمره الصلف والكبر، ويطبعه الزهو والافتخار والتعاظم بالذات. فقرّر

97 – السند : ((الإسناد ويقال السند: رواة الحديث الذين نقلوه إلينا)). محمد بن صالح العثيمين، مصطلح الحديث. مكتبة العلم ، القاهرة. ط / 1 . 1415 هـ – 1994 م . ص 36.

98 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص. 97.

99 – المصدر نفسه. ص 97.

المتحدّث التواصل معه، فألقى عليه تحية الإسلام السلام عليكم، وتبادل معه أطراف الحديث في مختلف نواحي الحياة القديمة والجديدة. وبعد هذا الحديث وما صاحبه من نظر وفكر وتمييز بدا له أنّ أصله ينحدر من بلاد الغرب الإسلامي وبالضّبط من بلد المغرب.

– التعرّف عليه أكثر: لم يقنع "عيسى بن حمّاد الصّقلّي" بما عرفه عنه في اللقاء الأول والوحيد، بل أراد التعرّف عليه أكثر وبعمق، لأنّه لا حظ أنذ هذا الرجل يخفي في نفسه أشياء غريبة وتجارب فريدة، ((... واستدللت عليه برجل كان يأنس إليه، فقال الرّجل: أنا جهينة أخباره، وأحذق النّاس بأدباره، أعرفه صغيرا وكبيرا، وإن شئت فاسأل به خبيرا... فقلت كيف ذاك، جعلني الله فداك، فقال أعلم أنّه دخل هذه المحجّة محرما بحجّة، يعوزه من القوت ثمن رطل من الياقوت، يتمنّى رفسه من رجل رزاز، أو صفعة من كفّ خبّاز، وحاول كلّ معيشة فلم يقدر على حشيشه،))[100]، لم يتّصل به مباشرة هذه المرّة، بل استعان بشخص كان لديه علاقة سابقة مع هذا الإنسان المحيّر المثير في أحواله وأقواله، وذلك قصد الاطّلاع الشامل والجيّد على أسرار حياته وتقلّباتها. لم يعترض الرجل المستدلّ به، بل رحّب وأظهر الفرح والسّرور، وأعلمه أنّ مطّلع ومتمكّن من كلّ تفاصيل حياته بحركاتها وسكناتها. أوّل ما أخبره عن ذلك المترفّع المتعاظم بنفسه أنّه جاء بقصد الإحرام للحجّ. لكن الأمر العجيب أنّه لم يكن يملك ما يعيش به من أكل وشراب وقضاء حوائجه اللازمة. ولقد سعى بما أوتي من جهد للحصول على ما يبتغي من عيش كريم لائق، إلّا أنّه لم يحصل على ذلك.

100 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص . 98.

– الاتصال بالمرأة المغربية والزواج منها: وبينما هو على هذه الحال من الغبن والشّقاء وشظف العيش ((ساقه القلفندر، والقضاء والقدر إلى عجوز مغربية، محكّمة في خمسين صبية، تعلّم البنات الغزل وتجنّبهم المجون والهزل، وقد اشتهرت بالرّفق والاناة، والحذق في تعليم البنات، قد أخصب مكانها، وامتلأت بالكسر أركانها. فجاء هذا الشيخ أبو الخرا يطلب عنما بيتا للكرا، وهو كما رأيت قد جمع بين الجفا غلظ القفا، فأبصرته العجوز على تلك الحال، فتوسّمت فيه عظم الآلة، فسرى خيالها، وسال عليه ريالها، ولم يفارق بابها حتّى كتبت عليه كتابها ... فقامت على الفور وهو من ورائها كالثور، حتّى دخلت السّوق بالهميان المسوق، ففتحت له العباب وفصّلت عليه الثياب، ولم يفارق الدكّان حتّى قالت له: كن فقيها فكان.))[101].

أوّل ما ساقه القدر إليه هو التقاؤه بامرأة أصلها هي الأخرى من بلاد المغرب. وهي في سنّ متوسّط بحيث تبلغ الخمسين حولا. مهنتها هو تكوين البنات في فنّ الغزل للصّوف والحرير والكتّان وما يتبع ذلك من نسج وحبك. وقد كانت ترمي من وراء ذلك فضلا على تعليمهنّ تحصينهنّ من الفراغ وما يجلبه للبنات من لهو مشين، ولعب خطير. وقد كانت رحيمة رؤوفة بهنّ، تعلّمهن بكلّ حرص وإتقان ودراية. لقد كانت تعيش في غنى واسع، ورزق وافر، واختار الدليل للمحدّث في هذا السياق عبارة (أخصب مكانها)، وهي عبارة مبنية على الصورة الاستعارية التي ترسم بدقّة ووضوح، وتشير بدقّة وقوة ما هي عليه تلك المرأة من سعة المال وكثرة الرّزق، وما هي عليه من الرفاهية والترف.

101 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص . 98، 99.

وإذا عدنا لقائه بالعجوز المغربية، فإنّ السبب في ذلك هو التوجّه إليها للبحث عن مسكن للكراء، فكان له ذلك . ومع مرور الأيّام انجذبت إليه هذه المرأة ومالت إليها، وتعلّقت، وكانت خاتمة ذلك أن تمّ الزواج بها. وبعد وقت ذهبت معه إلى السّوق فجهّزته بكلّ ما يحتاج، وفصّلت له أجمل وأجود اللباس. وكان طلبها وأمنيتها أن يصير عالما من علماء الدّين وحبرا من أحبار الأمّة الاسلامية. وذلك لـمّا قالت له: (كن فقيها) .

ب – القسم الثاني: الشيخ بين الخوف والتردّد وحرص ورغبة المغربية:

((قال عيسى بن حمّاد: فقلت للرّاوي: مثلك من أفاد، وشفى بحديثه الفؤاد، فكيف تمشّى حاله، وتغطّى على الفقهاء محاله، فقال: أعلم أنّه لما اجتمعت العجوز على تعليمه، وردّه إلى المدرسة وتسليمه، تخوّف من ذلك الأمر، وبات ليلته على الجمر. فلمّا أصبح قال لها: يا هذه اعلمي، أنّ كنت في بلدي إسكافا، وأصبحت اليم في مرحاضك كنّافا، فكيف لي بالمدارس، وأنا كالطّلل الدّارس؟ ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العزير؟[102] والله ما أفرّق بين الحروف وبين قرون الخروف[103]، فقالت: أنا أعلّمك العلم كلّه إلّا أقلّه، وأعلّمك فصلا في التدريس تغلب به محمّد بن إدريس، فقال لها: يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعا، وإنّي أخاف أن

102 – الاستفهام: ((هو أحد أساليب الطلب في اللغة العربية حقيقته طلب الفهم، أو طلبب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، أو معرفة شيء مجهول ... والاستفهام مصدر استفهم أي طلب افهم. ويتمذ الاستفهام بأدوات تتصدّر جملة الاستفهام، وقد ترد الأداة محذوفة.)) محسن علي عطية، الأساليب النحوية عرض وتطبيق. ط / 1. 1428 هـ – 2007 م . دار المناهج للنشر والتوزيع. عمان ، الأردن. ص 19.

103 – القسم ((القسم اليمين والجمع أقسام ، وأقسمت حلفت وأصله من القسامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذون.)) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان. ص 559.

يقتلوني صفعا، فدعيني من اقتحامك وإقحامك، ووفّريني على لطم أرحامك[104]))، هذا الجزء من المقامة في قسمها الثاني يكشف فيه الرّاوي ردّة فعل الشيخ إزاء ما طمحت فيه العجوز منه. إذ لمّا أيقن أنّها عازمة على تعليمه وتوجيهه للمدرسة، فزع وتحيّر من التعليم ، هاب وخشي المدرسة، لا رغبة له مطلقا في الفقه وأهله، ولا ميل له في امتهان مهنة الفقيه المعلّم، وكان الأمر أن يظل مستغرقا في هذه النوازل ويبيت ليله في همّ وجزن وخبل.

ولقد انتفض أمامها يصرّح عن واقعه برفضه لهذا الطموح الغريب منها (كن فقيها) يعلن كيف بالإسكافي والكنّافي يصير فقيها؟ وكيف بالكبير الجاهل الذي لا يميّز بين الأشياء كالحمار، ولا يفصل بين الحرف وقرن الخروف أن يصير علما متخصّصا في علم الفقه يعرّف النّاس به ويبصّرهم. واجهت ردّة فعله بالإصرار على تعليمه ليتغلّب على أمثال "محمّد بن إدريس". عاد الشيخ إلى خوفه كاشفا رهبته من المدرسة وخشيته من المتواجدين بها علماء ومتعلّمين.

– التعليم : تحرص صاحبة النداء (كن فقيها) على ترغيبه وبيان مقصدها، والمتمثّل في نقله من المقام الأدنى إلى المقام الأعلى، ((فقالت أريد أن أخرجك من المدابر وأضعك على رؤوس المنابر، فأحضر ذهنك، وافتح لهذا الدرس أذنك: اعلم أنّ الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنّارة، أو كرجل المنارة. والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة. والطّاء كالخفّ، أو كطارة الدّفّ. كلّ مدوّر ميم، وكلّ معوجّ جيم، والصّاد تشبه نعالك، والذّال تشبه قذالك، وإنّ القاف

104 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 99، 100.

والكاف تشبهان اللكاف))[105]، هذا النصّ المقامي يجلّي هدفها من رغبتها في تعليمه، وهو إخراجه من مكانة زهيدة إلى مرتبة مشرّفة. كما يصوّر في الآن نفسه وجها آخر من صور الإصرار الصّادر من الطامحة إلى أن يصير فقيها، إصرار في رفض موقفه المنبني على الخيفة والرهبة، ومبادرتها العملية في سبيل تعليمه. فاتحة هذا التعليم هو الحروف. هذا يدلّ على أنّ الشيخ لا يعرف القراءة والكتابة. ولا دراية له بهما مطلقا. لوكان له نصيب من ذلك ما كان لها أن تقدّم له الحروف بهذا الشكل الغريب، المتفرّد. فمثلا تعليمها له كيفية كتابة بعض الحروف وفق هذا النحو (وكلّ مدوّر ميم، وكلّ معوجّ جيم، والصّاد تشبه نعالك) أمر من شأنه أن يدفع المتلقّي كي يطرح عدّة تساؤلات، جزء منها مرتبط بالمعلّمة، وقسط آخر متّصل بالمتعلّم.

– الوصية: ((فاحفظ هذا الكلام، ... واحذر مخالفتي واعتزالي، واعلم أنذ بهذا الفصل تقدّم الغزالي. فاقبل التّيس يكرّر لفظه حتّى أجاد حفظه، وعندما خرج في القمة والعمة، وعزم على مدرسة جمال الأئمّة. فخرجت تبخّره من العين وتقرا عليه المعوّذتين[106]، وقالت له: ‘ذا جلست فتربّع، ولا تتقنبع، وانشر أكمامك، وأظهر للنّاس أعمامك، ... فقال لها: أوصيني رحمك الله، فقالت له: إذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء ذقنك، وباكر المدرسة في الصباح، وسابقهم إلى الرّواح، وإن غلبوك في العلم فلا يغلبوك في الصّياح. فقال لها: أخاف والك أن أقتل باللوالك، ولكن أوصيني. فقالت: خذا اللفظ بأناملك من شفتيك، زاحم الفقهاء بركبتيك، وابصق في وجه الشّيخ، ولا جناح عليك. قال: فهاتي إذن شيئا من قماشك ألقي به

105 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 100.

106 – المعوذتين : ((المعوّذتان: هما سورة الفلق وسورة الناس)) إبراهيم محمد الجرمي ، معجم علوم القرآن علوم القرآن، التفسير، التجويد ، القراءات.دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت. ط / 1 . 1422 هـ – 2001 م . ص 272.

صفع الشماشك. فقالت، أجسر على القوم فما هو إلّا بياض اليوم، واعلم أنذ الفقه ليس هو شيء غير النّفاق والزّعاق، وتلويث وجه الخصم بالبصاق ...))[107]

بعدما دعته إلى مراعاة ما علمته من الحروف وهيآتها في كيفية كتابتها، نبّهته إلى ضرورة الالتزام بنصائحها التي سيبلغ بها مبلغا أعلى من مرتبة أبي حامد الغزالي، التزم وصان الوصية فحفظ وأعاد، وأحسن وأتقن. ولـمّا صمّم على الذهاب إلى مدرسة جمال الأئمة بخّرته وحصّنته بسورتي الفلق والنّاس، ولم تغفل عن إرشاده إلى طريقة الجلوس جلوس الكبراء المترفّعين الجاهلين بالمقام والمحيط. وزادته نصحا بعد أن ألحّ على ذلك منها، فإذا بها تدعوه عند جلوسه لحضور حلقة العلم في المدرسة الشرعية بالانتفاخ والانتفاش ليتميّز عن الفقهاء، وبيدوَ في أحسن هيئة وأفضل صورة منهم، كما حثّته على البكور صباحا إلى المدرسة، ومسابقتهم إلى وقت الراحة. وتلا ذلك نصيحة أخرى لا تماثلها نصيحة. تتلخّص هذا النصيحة في قولها (وإن غلبوك في العلم فلا يغلبوك في الصّياح)، إنْ لا حظ أنّ أحدا من الحاضرين في الحلقة تقوّق عليه في العلم والحفظ فلا يتركه ويصمت أو ينصرف، بل يواجهه بالصياح أي يعوّص جهله وفراغه العلمي بإحداث الفوضى بصوته، والضجيج الصاخب، والعويل الصّاعد في مواجهة علمهم ظنّا منها أنّ ذلك سيسكتهم ويلجمهم، وسيخضعهم له، وسيهزمهم .

بعد ثباته المؤقّت وحسن الإصغاء لها وطلبه المتواصل بالنصح والوصية ، ينقلب إلى الخوف والرّيبة والتّردّد، لكن سرعان ما يرتدّ إلى الموقف السابق مريدا منها وصايا أخرى. فطاوعته، وأفرغت ما في جعبتها من وصايا جديدة. يمكن تلخيصها فيما يلي: حسن النطق

107 – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 100، 101.

وإجادة الكلام، مزاحمة الفقهاء بالركبتين دفعا وتضييقا، البصق في محيّا المعلّم والمربّي الكبير المدعو " لشيخ "، إظهار الشجاعة والإقدام أمام الحاضرين من القفهاء والشيخ، وترهيبهم من شخصه.

أخطر وصية، وأغربها على الإطلاق هي (واعلم أنّ الفقه ليس هو شيء غير النّفاق والزّعاق، وتلويث وجه الخصم بالبصاق)، الغرابة تكمن في تقديمها لتصور جديد لعلم الفقه، الفقه نفاق وبصق في وجه الخصم. لكن يمكن فهم هذه الوصية الخبيثة بأنّ الفقيه يجب أن يكون منافقا، شديد الخصومة، وأنّه بدون هاتين الخصلتين لا يصبح مريد الفقه فقيها، وتبعا لذلك تنصحه بالتخلّق بخلق النفاق الشّائن، وبالفجور في الخصومة.

– المجلس من بين الوقار والصياح. الفضيحة وانكشاف الحقيقة: بعد تلقّيه لمختلف والوصايا والنّصائح والخضوع لرغبتها وغايتها، حان وقت التطبيق واقتحام المجلس العلمي ((... وقام في ذلك الأوان حتّى دخل على الفقهاء في الإيوان، فهابت قلوب الجماعة، وخافوا أن يكون من أهل البراعة[108]، فأنصفوه في السّلام، وبسطوه بالكلام، وآنسوه بالمحاضرة حتّى جاء وقت المحاضرة، فجينئذ برز (بالوجه الوقاح والإفك الصّراح)، وأرهج المدرسة بالصياح، وأخذ يقول نوعا من الهذيان، وضربا من الباذنجان، فوقع الناس في البلاء، وعلموا أنّه دلو من الدلاء، وتحقّقوا أنّ الرّجل كالسطل، لا يصلح إلّا للاصطبل، فخرجت هيبته من صدورهم، ونبذوه وراء

108 – البراعة ((وأمّا البراعة فهي فيما يذكر أهل اللغة الحذق بطريقة الكلام وتجويده)) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. . نكت الانتصار لنقل القرآن . تحقيق محمد زغلول يلّام. الاسكندرية 1971 م. ص 360.

ظهورهم))[109]. هذا القسط من المقامة ترتكز على مشهدين اثنين، كلّ شهد يحتوي على مجموعة من الأحداث، ويقابل الآخر :

– المشهد الاوّل:

دخول الشيخ على الفقهاء في جامع يشبه الإيوان في سعة دوره وشموخها، وما يحتويه من مجلس كبير يحضره أشخاص من ذوي المرتبة العلية علما ومعرفة. وعند دخوله أفزعهم وأرهبهم ، وظنّوا أنّه من أهل العلم والثقافة، ومن أهل الأدب والفهم، ففسحوا له المجلس وحيّوه ورحّبوا به، وكلّموه باحترام ووقار، وأسمعوه خيرا من محاضرة كانت تلقى.

المشهد الثاني:

في وقت محاضرة الرجل المهاب المظنون فيه علما كبيرا وفقها وفيرا، اكتشفوا عكس ما ظنّوا، ونقيض ما توقّعوا وتوهّموا . فها هو يملأ المدرسة صياحا وهذيانا ولغوا وعبثا، فتأكّد الحاضرون أنّ الرجل لا صلة له بالعلم، وأنّه فارغ منه، ولا يعرف له لفظا ولا معنى. فافترقوا عنه وتركوه وهجروه.

– من حال إلى حال ((قال الرّاوي: ولما ارتفعت عنه وحشته، وزالت عن فؤاده دهشته، ضاق بالعلم باعه، ونفرت منه طباعه، وعاد إلى ما يعرف من الأخلاق الذميمة والسعي بالنميمة حتّى طال على القوم أمره، وانتهى فيهم عذره، وعلم الشيخ من شيمه الردية، وأخلاقه الدنية أنّه لا يصلح إلّا للعوانية، فأشار به في بعض الأعمال، فأخرج عاملا من العمّال،

109 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 101 ، 102.

فكثرت عند ذلك بضاعته، وزادادت دياصته ورقاعته ... وصار بالأعوان والحاشية والغلمان والفاشية، وصار الشيخ زوج العلّافة يلقّب بشمس الخلافة.)) [110] هذا الكلام صادر من الرّاوي الذي وظّفه محدّث المقامة "عيسى بن حمّاد الصقلّي" دليلا وخبيرا وناطقا بأحوال الشّيخ بعل العجوز المغربية. يبرز الرّاوي فيقول أنّ مدّعي الفقه المطرود المنبوذ لبس من جديد لباسه الحقيقي من الأخلاق السيّئة، والطّباع الرذيلة.

واستحدث له عملا حتّى يتخلّص القوم من أعماله الدنيئة. فتاجر وكثرت وكبرت تجارته وزادت مع ذلك أخلاقة سوءا وسفالة ونذالة، وصار كالأغنياء مالا ورزقا وأتباعا وخدّاما. فلقّب بعد ذلك بلقب (شمس الخلافة). لقب يثير التساؤل والتعجّب، وقد لا يعثر له تفسير ما .

– الخصومة والعداء: يختفي الرّاوي في هذا الشقّ الأخير من المقامة فاسحا المقام للمحدّث الذي تصدّر المقامة، ((قال عيسى بن حمّاد: ... تتغيّر عل زوجته بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار (يجري بينهما في المجالس) ، ما يحفظ عنهما في المدارس، ولقد رأيتهما يوما يشالقها وتشالقه، ويخالفها ويخالفها وتخالفه، ويقول لها (ألست تعلمين)، يا جيافة أنّني لقّبت من أجلك بزوج العلّافة، فلعن الله الأشفار والأظفار، وما تحويه الأخصار من حانوت العطّار)) [111]. هذه نهاية العلاقة الزوجية بين العجوز المغربية والشيخ الطالب منها في بداية لقائه بها الكراء. نهاية طُبعت بالتّغيّر والتنافر، وبالخصومة والتنازع، سبّ شتم، ذمّ ولعن. فإذا كانت بداية اللقاء بينهما احترام وحبّ وتعلّق، فالنهاية هنا بغض وتفكّك وسوء معاملة.

110 – نفسه . ص 102.

[111] – . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص . 102.

3 – مضامين المقامة الثالثة عند ابن محرز الوهراني :

عنوان المقامة : (وله مقامة) هذا عنوانها في الكتاب وتركها المحقق هكذا ، دون أن يقترح لها عنوانا من عنده. ومضمونها العام هو أسئلة وأجوبة ذات صلة بالتعرّف على بعض الشخصيات ذات أهمّية خاصّة في نظره.

يقول "ابن حمادوش الجزائري" في النصّ الأوّل من مقامته ((قال الوهراني دخلت مدينة صقيلية في الأيام المتولية، فرأيتها محافل الأوصاف، على طريق الإنصاف، فعشقها شيطاني، فأقمتها مقام أوطاني، فحضرت يوما في بعض بساتينها مع طائفة من أهل دينها، وفيهم أبو الوليد القرطبي، سلطان الكلام، يأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه، وجرى بينهم حديث اهل البلد، ومن فيها من الأعيان والكلد. فقالوا : يا أبا الوليد أنت حجر محكّنا، وبوتقة سبكنا، (وها نحن سائلون ليذهب) عنّا دياجي الغيهب، ففضل من يستحقّ وعيب، (ليميز الله الخبيث من الطيّب) ، فقال: أنا أوضّح إشكالكم، "فاسألوا عمّا بدا لكم "))، [112]

أ – قال "الوهراني": استفتح "الوهراني" هذه المقامة بسند على طريقة أهل الحديث واللغة والأخبار وأصحاب والمقامات المشارقة. وسند هذه المقامة هو نفسه. (قال الوهراني)، فهو الكاتب للمقامة وهو الرّاوي لها في آن واحد.

– التمهيد الأوّل: بعد هذا الإسناد يشرع الوهراني في سرد الأحداث المتعلّقة بالمقامة. الحدث الأول هو تصريحه بأنّه حلّ بمدينة صقيلية في أيّام جميلة كلّ ما فيها ناضج وعامر، وكلّ فيها مثمر وممتع. الحدث الثاني يصف فيه مشاهته لها وأنّه لما نظر إليها لأوّل وهلة أبصرها حافلة

112 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 219.

بكلّ الأوصاف ومشتملة على كلّ النعوت التي تجعل منها مدينة في مصاف المدن الكبرى لما تحتويه من خيرات طبيعية لا تحصى ولا تعدّ، وإنسانية لا تماثل ولا تشابه. هذا الفهم بنيناه على أساس أنّ عبارة (محافل أوصاف) فيها حذف[113] لصفة[114] متعلّق بالمضاف إليه أوصاف. تقديره (محافل أوصاف فريدة أو متنوّعة، أو فاتنة ...)، وزيادة على الحذف ففي هذه العبارة إيجاز بالقصر[115] متعلّق بالكلمة المضاف إليه (أوصاف). الحدث الثالث يتمثّل في أنّه لما عاين ما فيها من جمال ومتعة وخير أحبّها وتعلّق بها ونزل بها وبقى فيها واستقرّ واتّخذها مستقرّا ومنزلا ووطنا. الحدث الرابع يعلمنا فيه أنّه بعدما استقر في مدينة صقيلية الغرّاء خالط بعض أهاليها والتقى بهم يوما في حداقها الجميلة مع مجموعة من أناسها المعروفين بدينهم وأخلاقهم ومكانتهم، ومن بين الأشخاص البارزين المتميّزين الذي حضروا هذا اللقاء شخصية اسمها " أبو الوليد القرطبي ". وقد عرّفه للقارئ قائلا واصفا، "أبو الوليد القرطبي" (سلطان الكلام، يأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه) ، ويفهم من عبارة سلطان الكلام عدّة معاني ودلالات منها يمكن

113 – حذف: ((الحذف لغة القطع. وهو ظاهرة تشيع في اللغة العربية. وتهدف في كلّ مواقعها إلى التخفيف. وقد وقع الحذف في الجملة والمفرد والحرف والحركة.)). محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية. ط / 1 . 1405 هـ – 1985 م . مؤسسة لرسالة بيروت لبنان، ودار الفرقان عمان، الأردن. ص 162.

114 – صفة: ((النعت، ويسمّى الصفة أيضا. هو ما يذكر بعد اسم ليبيّن بعض أحوالهأو أحوال ما يتعلّق به .)) مصطفى الغلاييني، الجامع الدروس العربية . المكتبة العصرية صيدا ، لبنان. ط / 1 . 1423 هـ – 2003 م . بيروت. ص 560.

115 – إيجاز بالقصر: ((المقصود به تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف، ووسيلة هذا اللون من الإيجاز قدرة الشاعر على انتقاء الالفاظ الموحية الحافلة بالمعاني والدلالات، ثمذ على اختيار النسق اللغوي الذي تنتظم فيه بحيث يكون للعبارة الواحدة من المعاني ما لو اردنا الإفصاح عنه بغيرها لاحتجنا إلى بسطة في الألفاظ أو عبارات تزيد عنها.)). حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم. مكتعبة الإيمان بالمنصورة منتدى سوق الإزبكية القاهرة مصر. ط / 2. 1425 هـ – 2004 م . ص 143.

أنّه كان رجلا متخصّصا في علم الكلام بارعا فيه، أو كان خطيبا فصيحا مشهورا، أو كاتبا بليغا مجيدا متفوّقا، المهمّ كان متحكّما في الكلام ومتمكّنا منه يسعفه ولا يشقّ عليه. الحدث الخامس يدور حول ما جرى بينهم من أحاديث حول أعلام البلد البارزين المتفوّقين المشهورين المؤثّرين .

– التمهيد الثاني : بعد عرض " الوهراني " لهذه الاحداث ينتقل بنا مضامين أخرى من مضامين المقامة وهي عبارة عن أسئلة وأجوبة، كانت توجّه كلّها إلى "أبي الوليد القرطبي". وقبل أن يتوجّه الحاضرون إلى أبي الوليد بالأسئلة، بعثوا إليه بكلمات (أنت حجر محكّنا، وبوتقة سبكنا) يعترفون له فيها بعلو قدره وشرف مكانته، وسمو مرتبته، وبعد ذلك أعلموه بأنّهم سيتوجّهون إليه بمجموعة من الأسئلة بغية إجابته عليها، (وها نحن سائلون ليذهب عنّا دياجي الغيهب)لا فهم يريدون المعرفة والدراية وفقط، فلمّا علم بصدقهم ورغبتهم وتواضعهم ردّ عليهم (أنا أوضّح إشكالكم، فاسألوا عمّا بدا لكم. وهذا داب العلماء وخلق العارفين. يقبلون بعفوية وأدب على من يقصدهم بالسؤال وطلب المعرفة .

أوّل سؤال طرح على "أبي الوليد القرطبي" كان حول شخصية " القاضي ابن رجاء "، وكانت طريقة طرحه مباشرة صريحة (فقلنا: ما تقول في القاضي ابن رجاء؟)، فكان الردّ سريعا ومفحما، ((قال مصباح الدّجى، وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضا، وكلمة حكم وعدل ورضا، نزّه نفسه عن الرشا والوائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنّه عظيم الشقشقة، كثير البقبقة بسيفه على الخصمين، ولو أنّهما ملكين، ويضيّع مواقيت الصلاة، ويمنه بواقيت الصلات، لا يرثي للغريب، ولا يتوجّع ولا يؤسى ولا يسأل، ولا يتفجّع فنكّب عن ذراه (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)،

وإنّ بقــوم ســوّدوه لحاجــة ... إلى سيّــد لو يظفرون بســيّد))[116]

أوّل صفة ذكرها " أبو الوليد القرطبي " عن " القاضي ابن رجاء " هي (مصباح دجى) وهذه الصفة مبينية على التخييل يكشف من ورائها أنّه كان مصباحا يضيئ لنفسه ويضيئ للآخرين فيهديهم إلى الصراط المستقيم في كافة مجالات حياتهم. الصفة الثانية هي (علم وحجى) تبيّن هذه العبارة أنّ هذا القاضي كان رجل علم راجح العقل، فتقلّده لمنصب القضاء كان مستحقّا مدروسا، فالعلم والعقل هما راءدا الحكم والفصل في النزاعات والخصومات. والصفات التالية التي ذكرها أبو الوليد في شخصية القاضي هي (بيت القضا، وكلمة حكم وعدل ورضا)، تفصح هذه الصفات عن طبيعة عمله القضائي القائم على العدل والمساواة وعلى الحكم والفصل، ورضا كافة الأطراف بما يصدر عنه من أحكام تمسّ الأفراد والأسر والمجتمع، وتمسّ كافة العلاقات التي يقيمها الناس مع بعضهم البعض. وزيادة على ما سبق "فابن الرجاء" قد (نزّه نفسه عن الرا والولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم)، إنّه ترفع عن كلّ يطعن في قضائه وينفّر من حكمه، فلا رشوة يأخذها مهما كانت الدوافع والغايات، ولا وليمة يحضرها قد تنال من صفاته وأخلاقه ومنصبه العالي، وهذا ما أهّله كي يكون شجاعا في عمله جريئا في مهمّته، لا يخاف ولا يهاب .

ومع هذه الصفات العالية فهو (عظيم الشقشقة، كثير البقبقة بسيفه على الخصمين) يكثر الكلام ويزيد فيه ويبالغ دون فائدة ومنفعة، يغني أنّه يتكلّم وثرثر في الوقت نفسه. ويثير الضجيج بسيفه. ومن صفاته (يضيّع مواقيت الصلاة)، وهذا أمر لا يليق بمن هو قاضي في ديار

116 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 219، 220.

المسلمين فالصلاة نور، وآخر ما يذكره "أبو الوليد" من صفات تميّز "ابن الرجاء" عن الآخرين أنّه (لا يرثي للغريب، ولا يتوجّع ولا يؤسى ولا يسأل، ولا يتفجّع فنكّب عن ذراه. (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)،

وإنّ بقــوم ســوّدوه لحاجــة ... إلى سيّــد لو يظفرون بســيّد)

فهو لا يتعاطف مع أحد ولا يتأثّر لحال الواقفين أمام قضائه وحكمه لا في الفقير فقرا ولا في الغني غنى. والملاحظ في خاتمة الإجابة عن السؤال هو البيت الشعري.

السّؤال السابق الملحوظ فيه أنّه كان جماعيا ورد بصيغة (فقلنا)، أمّا هذا السؤال الوارد في هذا القسم من المقامة فقد ورد بصيغة (قلت)، وهو صادر من الرّاوي "الوهراني" صاحب المقالة. ((قلت: فما تقول في الشيخ أبيه؟ قال: كان رحمة الله عليه يتناعس على الخصمين، فلا يوقظه إلّا سلسة الكفّين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين.. في حلقه (سوء لا سبيل فيه لهوى)، [117].

والمقصود بالسؤال هو أب القاضي" ابن الرجا" (فما تقول في الشيخ أبيه؟)، يريد الرّاوي السّائل التعرّف عليه بعد أن تعرّفوا على ملامح شخصية الابن. فكانت الإجابة أن أعلمه بأنّه قد توفي وترحّم عليه، وكان الأب قاضيا بدوره والقرينة الدالة على ذلك هي (الخصمين)، وذكر الخصمين يفهم منه أنّه كان حاكما قاضيا، فالذي يتعامل مع الخصمين هو هذا، لا غيره. هذا الأب القاضي لم يكن مركّزا في عمله ، حاضرا بعقله، منتبها بقلبه، بل كان (يتناعس على الخصمين،

117 - محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 220.

فلا يوقظه إلّا سلسة[118] الكفّين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين..)، يتناعس يغلب عليه الكسل والنوم ولا يفيق من ذلك إلّا بعد أن يسمع صوت الكفّ تدوّي بالقرب من أذنه. وهذه الصورة التي رسمها "أبو الوليد القرطبي" للأب هي عكس الصورة التي رسمها للابن ، فهذا الأخير يقظ منتبه حازم صارم منتبه متابع والآخر على النقيض من هذا.

بعد أن رأى الرّاوي صاحب المقامة هذا المنظر الذي لا يتّسق مع وظيفة القضاء، عاد ليسأل من جديد عن ابنه، والسؤال هو كذلك فردي ورد بصيغة المفرد المتكلّم (قلت)، ((قلت: فما تقول في ولده؟ قال: ابن لبون لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وانشد:

إنّ الفروع من الأصول ولن ترى ... فـــــــــرعا يطيب وأصله زقوم)) [119]

الإجابة هنا لم تكن مؤسّسة على التصريح، والإبانة بقدر ما كانت تعتمد الإشارة والتلميح، إشارة وتلميح اعتُمد فيهما على الحكمة والشعر، ابن لبون لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وانشد:

إنّ الفروع من الأصول ولن ترى ... فـــــــــرعا يطيب وأصله زقوم ،

فالإجابة من قبل كانت صريحة واضحة. ما ذا يفهم المتلقّي من هذين النصّين الحكمة والشعر. يفهم من الحكمة أنّ هذا الابن حذر متيقّظ، كان لا ينحاز إلى هذا ولا إلى ذلك ، لا يركب ولا يحلب، شبّهه بولد الناقة الذيلا يركب ولا يحلب. أمّا البيت الشعري الذي ختم به هذا

118 - سلسلة: قال المحقق عنها: صلصلة، وهذه الكلمة تنسجم مع كلمة الكفي، فمن عادة الكفّين أنّهما تستعملان بفضل ما يحدثانه من صوت ودوي لإيقاظ النائم أو المتناعس.

119 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 220.

المقطع من المقامة فيستخلص منه أنّ هذا الولد ماكان له أن تتوفّر فيه هذه الصفات لولا أنّه تربّى عليها وأطعم وسقي إيّاها من طرف أصله الكبير والصغير.

في هذا المقطع من المقامة يسأل "القرطبي" عن أحد العلماء الفقهاء، ((قال: فما تقول في الفقيه ابن بقية؟ قال: لن يبقى من العلم بعد موته بقية، وكأنّه بدر تمّ ثمّ كسف، وطود علم نسف، وبحر فقه غاض، ونهر أدب فاض، فسرّ الأعداء بفقده، وانتشر البغاء من بعده.

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنّه بنـــــــيان قوم تهدّما [120]))[121]

إجابة "أبي الوليد" تتناسب تناسبا كلّيا مع ما يعرف عنه من صفة الفقيه،. فهذا الفقيه بموته قلذ العلم وانحسر النور نور العلماء العاملين، وقوة الأفذاذ الربّانيين، وقلّ الأدب وندر. والجدير يالذكر في هذه الإجابة أنّ الأعداء قد فرحوا عقب موته فأكثروا البغاء . وكأنّ المجيب يؤكّد على أنّ ما ذكره من صفات للعلامة ابن بقية فهي الواجب توفّرها في الفقيه وعالم الدين، فلا خير في فقه لا يورّث صاحبه أدبا ولا خير في علم شرعي لا يكسب حامله نورا وجلالا. والقارئ يتابع جيّدا البيت الشعري الذي أنهى به القرطبي هذا التعريف بالفقيه ابن بقية، هذا البيت الذي يكشف فيه ثانية عن الأثر الكبير الذي أحدثة موت الفقيه "ابن بقية".

في هذه المقطع المقامي سؤال جماعي ورد بصيغة الجمع المتكلّمين (قلنا)، والمراد بالسؤال هو الكاتب يوسف ((قلنا: فما تقول في الكاتب يوسف ؟ فقال: الرّجلة والشهامة والتقدمة

120 – الاحتجاج : ((إثبات صحّة قاعدة أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقلي صحّ سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة.)) سعيد الأفغاني، في أصول النحو. مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . دمشق. 1414 هـ – 1994 م . ص 6.

121 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 220.

والزعامة، غير أنّ في أسفله داء، أسأل الله منه السلامة.)) [122] ، اعتمد المجيب "أبو الوليد" على كلمات اختارها اختيارا دقيقا تجمع كافّة الخصائل الحميدة، وتشمل كافة الفضائل الجليلة والأخلاق، وينطبق عليها قوله تعالى ((وإنّك اعلى خلق عظيم))[123]. فهذه الكلمات توحي برفعة النفس وسموها، وبالتحرّي في الأمور العظيمة، كما تشير إلى الذكاء والسداد والصبر على المتاعب، وينطبق عليها قول المتنبّي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكـــريم المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظـيم العظائم[124]

ومع ذكر "أبي الوليد" لهذه الصفات فإنّه يذكر أنّه مريض، ودعا الله له بالعافية والشفاء.

((تعود الجماعة لتسأل عن شخص آخر هو ولد الكاتب أبو يوسف المكنّى بأبي الوليد، قلنا: فما تقول في ولده أبي علي؟ قال: هشّاش بشّاش[125]، وإن مازحته فحشاش، وإن نازعته فأخلاق جدّه أبي دكاش، حلو اللسان بعيد الإحسان.

يريك البشاشة عنـــــــد اللقـــــــا ... ويريـــــــك في السرّ بري القـــــلم))[126]

122 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 220.

123 – سورة القلم / الآية : 04.

124 – الشيخ ناصيف اليازجي، العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب. المجلّد 2 . دار صادر بيروت. ط / 2 . 2005 م.

125 – صيغ المبالغة: ((هي أسماء تشتقّ من الفعل الثلاثي اللازم والمتعدّي للدلالة على ما يدلّ عليه اسم الفاعل مع تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه. أوزانها : فعّال، فعل، فعول، فعيل، مفعال، ...)) راجي الأسمر، المعجم المفصّل في علم الصرف. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. 1418 هـ – 1997 م . ص 294.

126 . محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 221، 221.

هذا الولد حسب هذه الإجابة كان يجمع بين النشاط والحركة واللين والسهولة من جهة وبين الانبساط والتبسّم وحسن المعاملة من جهة أخرى. يسجّل "أبو الوليد" للسامعين أنّ ولد الكاتب "يوسف" كان يصدر منه الفحش والسوء عند ممازحته، وإذا خوصم فالأخلاق الصادرة منه لحظتها غير مريحة وغير طيّبة. أمّا لسانه وما يصدر عنه، فلا تتذوّق منه إلّا ما حلو وعذب، لكنّه بعيد الإحسان، أي ما يصدر عنه من أفعال ومعاملات لا يعكس ما يصدر عنه من حلاوة اللسان . وهنا كذلك يختتم هذا المقطع المقامي بيت شعري يبرز فيه ازدواجية شخصيته وعدم توافق ظاهرها مع باطنها.

هذا السؤال مركّز فيه على البحث والتعرّف على شخصية أخرى وهي " أبو الفتوح "، وهو أخ للولد ابن الكاتب "أبي يوسف"، ((قلنا: فما تقول في أخيه أبي الفتوح؟ فقال القرض من القرض، وذرية بعضها من بعض، حذوك النعل بالنعل:

– (كم قسّم الترب المفايل باليد) ، وذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها .))[127].

خلاصة الجواب أنّ شخصية هذا الأخ لا تختلف كثيرا عن أخيه السابق، ولعلّ العبارتين التاليتين تنبئان عن ذلك (وذرية بعضها من بعض، حذوك النعل بالنعل)، ويبقى المجيب القرطبي يؤكّد ضمنيا على الفرق الشاسع والاختلاف الكبير الموجود بين الاب من ناحية، وبين الولدين من ناحية أخرى.

[127] – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 221.

ثالثا: مضامين المقامة عند " ابن حمادوش":

1 – مضمون المقامة الأولى:

عنوانها: (**مقامة**).

هذه المقامة واقعة ضمن كتاب (رحلة بن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال)، وهي واحدة من الأجناس الأدبية الكثيرة فيها. هذه المقامة ليست الوحيدة في هذا المؤلّف، بل هناك مقامتان أخريتان. ((وكما نظم ابن حمادوش الشعر فقد كتب أيضا المقامة. وقد عثرنا له في الرحلة على ثلاث مقامات، ولا ندري ما إذا كان قد كتب مقامات أخرى في غير الرحلة.))[128] .

هذا المقامة التي هي قيد دراستنا الآن لا تمتلك عنوان خاصّا بها. ويبدو أنّ المحقّق قد وضعها تحت العنوان التّالي، وهو (مقامة للمؤلّف، مقامة). تبتدئ بعبارة (الحمد لله)، وتختتم بقصيدة شعرية قالها "ابن حمادوش الجزائري" ليلة مبيته عند أولاد مختار. يقول صاحبها في هذه المقامة ((الحمد لله طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدّة الاياس، إلى بلد الملك مكناس، أخوض الغمار، ولأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار، وكنت لقفت من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أنّ خطر الغرور، وأنّ المسافر مبرور، فشددت منطقتي، لكي أدفع أزمتي، ورافقت اثنين من التّجّار كأنّهما من الأبرار، فاكترينا من

[128] – أبو القاسم سعد الله ، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري . عالم المعرفة، الجزائر ، الجزائر . طبعة خاصّة، 2015 م. ص 46، 47.

حمار كأنّه أراد ابتدائي بالعار، فرددت عاره، وخبّأت ناره، بما فيه أوطاره، حتّى يحمد جواره))[129].

تتضمّن هذه البداية بعد حمد الله سبحانه وتعالى، الأسباب الذي أدّت به إلى الانتقال من مكان إقامته إلى المكان الآخر. ومنها قلّة أسباب العيش، وندرة فرص الاسترزاق. والوجهة التي حدّدها إلى المكان الجديد هو مدينة مكناس بجنب شقيقته مدينة فاس. الأمل الذي كان يحدوه في ذلك هو جني الثمار من جديد لإصلاح دنياه. فالرحلة المقرّرة روادها الرّاوي واثنان من رفاقه ممتطين حمارا. بعد هذا ينطلق صاحب المقامة في وصف الرحلة، ((فخرجنا من تطوان إلى السفر يوم السبت ثامن عشر صفر، فبتنا بوادي بوصفيحة، فاستقلّ بإصلاحه للصفيحة، ومنه إلى وادي الخروب، لعلّي أدرك به المرغوب، ومنه إلى وادي المخازي، لما قتل فيه الغازي، ومنه تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حرّ، مهدّمة البياء، نائية الماء، ومع أنّها كبيرة المنشأ، قليلة الممشا، عددت فيها ثلاث عشرة صومعة، سوداءات كأنّ لبنها موضوعة. فبتنا بسيدس علي العسر. خرج إلينا أقبح العشيرة كأنّه مغري . ومنه زرنا السيّدة ميمونة تاكناوت، التي ردّت يمين سيدي أبي سلهام يجلبها من فاس البنات. وبتنا في أوّل المرج الطويل، الذي به طير الماء من غر وبطّ وغيره كثير لا قليل، ومنه بتنا بسيدي سعيد بن علي، أكرمنا فيه السيّد وعبيد الإسماعيلي، ومنه قطعنا ودي سب، الذي كلّ يجوزه بالقارب، أو قطعة من البحر، كأنّه نيل مصر ، ومنه إلى محلّة العبيد، في سويقة دادة في الفندق القديم لا الجديد، ومنه إلى

[129] – عبيد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. ص 71.

النوينات عند الكرم، الذي ليس فيه رحمة ولا كرم، من أولاد مختار، لا أجبروا في تلك الدّار، بتنا عندهم ليلة قلت فيها :

وليلة مختـــار يبيت بـــها همّ مدى الدهر لا يرجى يحور عن الهمّ

شكرت إله العرش ربّي وخالـقي وصـلـيّت عن خير البرية بالرقم))[130]

من قبل وفي البداية حدّد اتجاه الرحلة وهو مدينة مكناس، في هذا المقطع يبرز لنا المنطلق وهو مدينة تطوان الساحلية الواقعة شمال غرب المغرب. وقد حدّد تاريخ الخروج . يتضمّن هذا المقطع المقامي فجموعة من الأحداث تتّسم بالبعدين الزماني والمكاني. فالبعد الزماني تجسّده عبارة (بتنا)، المتكرّرة وهي تشير إلى الليل. كما تتجسّد في كلمات (تخومنه إلى، تعدّينا على بلاد، زرنا، قطعنا، ومنه إلى)، وهي تحيل إلى النّهار. والبعد المكاني تعبّر عنه أسماء الوديان التالية: "وادي بوصفيحة، وادي الخروب، وادي المخازي، وادي سب، وأسماء القصر، (بلد) بسيدي علي (قرية صغيرة)، المرج الطويل" (حافّة نهر واسع). هذه الأماكن والأزمنه توضّح لنا مختلف المحطّات التي قطعها ابن حمادوش مع رفيقيه. كانوا يبيتون في الوديان وقرب النهر، متنقّلين من رحبة إلى رحبة جديدة. ومن هذه الأمكنة التي باتوا فيها ومرّوا بها، ثلاثة منها استحقّت الوصف من الرّاوي هيّ: بلدة القصر فهي لا يقطنها الأحرار، بناؤها مهدّم، منابع الماء بعيدة، واسعة المساحة، قلّة النّاس بها، بها مساجد عديدة ذات صوامع. المكان الثّاني المرج الطويل، وهو مجمّع مائي فيه الطير الكثير والبطّ الوفير. المكان الثالث الذي وصفه "ابن حمادوش" هو وادي سب،

[130] - عبيد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. ص 71، 72.

الذس لا يمكن التنقّل من حافته إلى حافّته الأخرى إلّا عن طريق القوارب، ولطوله وعرضه وغزارة مياهه فقد شبّهه بنهر النّيل العظيم . وآخر رحلة هي مكان الفنادق بمدينة مكناس المسمّاة محلّة العبيد، إلى أن وصلا ما بعدها حيث النوينات عند الكرم، فقد صور "ابن حمادوش" أهلها في أبشع صورة الغلظة والشدّة حيث لا رأفة ولا رحمة، وصورة الخل والشحّ حيث لا كرم ولا سخاء. ولشدّة ما لاقى وكابد منهم نظم قصيدة فيهم . والوصف في هذه المقامة جليّ واضح فهناك الوصف للوديان التي قطعها، ومدينة القصر التي مرّ بها، ووصف وادي سب، واترتكاز "ابن حمادوش" على الوصف نابع من اعتباره له ((عنصرا مهمّا من عناصر السرد بل إنّه قد يكون أكثر ضرورة للنّصّ السردي من السرد، على اعتبار أنّه لا يوجد عمل إبداعي تعرف الحكاية طريقه يأتي خاليا من الوصف. فالوصف آلية فاعلية في عالم السرد حتّى إنّه لا ينهض بذاته))[131] ، فأنواع السرد قديمة أو حديثة لا يمكن أن تسنغني عن الوصف لما له من وظائف لاعديدة وفوائد كبيرة.

2 – مضمون المقامة الثانية:

عنوانها: (**المقامة الهركلية**).

هذه المقامة وقعت أحداثها بعد رحلة، وهي تحمل رسالة اجتماعية أخلاقية في ما تحتويه من مضامين، ((وفي يوم الأحد ألّفت المقامة الهركبلة، وهي الحمد لله، حدى بي حادي الرحلة، إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة، فنزلت بها في خان، كأنّه من أبيات النّيران، أو كنائس

[131] – عبد النصر هلال، آليات السرد في الشعر العربي المعاصرتص: عبد الحليم فرحات. الناشر مركز الحضارة العربية القاهرة. ط /1. 2006م. ص 134.

الرّهبان، بل لا شكّ أنّه من أبيات العصيان، فاختصصت منه بحجرة، ... فغلقت بابي، لأحفظ حبائي، وأومن جنابي، من شدّة أتعابي ... حتّى مدّ الليل جناحه، ... وتوغّلت في حبائل النّوم، ... فلم يوقظني إلّا جلب الأصوات، وتداعى القينات، ... وإذا بجاري بيت ببيت، يحاسب قينة على كيت وكيت، وهي تقول له فعلت كذا وكذا ... فقلت بعدا لهذا الجار، ولا شكّ أنّه بئس القرار،... ثمّ رجعت إلى هجعتي، ولم أدر من ذا المجاور لبيتي، ولا ما وقع في تلك اللتا والتي، فلمّا ظهر لواء الترك العجم، على جيش النجاشي أهم، شددت الرحال، وتهيّأت للترحال، وامتطيت مطيتي، وأخذت طيّتي، متوكّلا على الرحمن أن أبلغ المأمن بالأمان، وقلت في ذلك:

وليلة هـــــــــــــر كله تحاكي المبيت ببيت الشرط))[132]

وقعت هذه الأحداث في مكان عام اسمه (هركلة)، وبالضبط بمنطقة فيها اسمها (خان)، نعت هذه البقعة بما يشبه معابد المجوس، وكنائس النّصارى، وهذا دفعه ليؤكّد وصفها بالمروق والفسوق والعصيان. فتوجّه إلى مرقد من مراقدها العامّة احتجز فيها بيتا للنّوم، وبعد استغراقه في نوم طويل وعميق، وسيادة الصمت والهدوء على المكان، فإذا بي الأصوات ترتفع من الأمات والمغنّيات، ومن بين هذه الأصوات المنكرة صوت الجار ، وصوت القينة، فالرجل يحاسبها على المال الحرام الذي جنته، جرّاء ممارستها للدّعارة. وبعد أن زالت المحاسبة اللعينة عاد الهدوء من جديد. وكان السّخط الصّادر من المقيم صاحب المقامة كبيرا صبّه على الجار الخبيث.

[132] _ عبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. ص 78، 79.

وعندما انقلبت الأمور في المدينة وانتصر الأتراك على عسكر النجاشي قرّر الرحيل مرّة أخرى دون أن يصرّح بوجهته الجديدة التي يريد الحجّ إليها، متوكّلا على الله معتمدا عليه ومستعينا به، فهو نعم الوكيل. ونهاية المقامة كانت أبياتا شعرية لها صلة بمضامين المقامة المتعدّدة. والذي لا ينبغي إغفاله في هذه المقامة اعتماد "ابن حمادوش" على أسلوب الوصف ، وهو ((أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسّي، ويقدّمها للعين. فيمكن أن نقول أنّه لون من التصوير بنفهومه الضيّق. يخاطب العين اي النظر، ويمثّل الأشكال والالوان والظلال، ولكن ليست هذه العناصر الحسية الوحيدة المكوّنة للعالم الخارجي، فإذا تفرّد الرسم بتقديم هذه الأبعاد بالإضاقة إلى اللمس حيث أنذ الرسم يستطيع أن يوحي بالخشونة والنعومة، فإنذ اللغة قادرة على استحياء الأشياء غير المرئية.))[133] ، وكان الوصف منكبّا على المكان الذي نزل فيه ، والزمن الذي بات فيه، والخصام الذي جرى فيه.

3 – مضمون المقامة الثالثة:

عنوانها: (**المقامة الحالية**).

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلّى وسلّم على محمّد الرسول الأمين والنبيي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين، انتقل إلى بيان حالته الاجتماعية من قلةّ المال والرزق والإخوان. في هذه الظروف الصعبة العصيبة سكن في مسكن مجاور لامرأة ، ((وبعد، لـمّا أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خفّ الريش وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف،

[133] – سيزا أحمد قاسم ، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر. د ط . 1978م. ص 19.

وقصر الطّرف، وجفّت الإخوان، وقلّة الأخدان، وغلي الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة، وسهلت الخسارة، قرنت بجارة غرّة، عيشتها مرّة، لا يشبعها الجليل، ولا تعبأ بالقليل، ...وآمالها ظنون، ورغبتها فيما لا يكون، الدّهر كلّه ساخطة، ومطالبها شائطة، تخزيك أو تحرجك أو تحزنك، ... ليس لها في الدّهر صاحب ... بيد أنّها تسرّ النّاظرين، وتصبي السّامعين، يصبوا إليها الحليم، ويرنوا إليها الكريم، أشبهت في شهل الهيون يوسف الكريم، أبن الكريم ابن الكريم، وفي القدّ الغصن القويم، والسهري المستقيم، ... هذا وقد جمعت نظافة الإزار إلى البعد فيما أعلم عن العار، كأنّها درّة مصونة، أو جوهرة مكنونة ... فلذا اخترتها أمّا لأولادي، ونافقة لمطارفي وتلادي))[134]. نستخلص من هذا النّصّ المقامي:

أ ـ الظروف التعسة التي عاشها أحسن تصويرها وتقديمها للقارئ من خلال العبارات التالية: (خفّ الريش)، (مضض العيش)، (وجفّت الإخوان)، و(قلّة الأخدان)، (صعبت التجارة)، و(سهلت الخسارة)، هذه العبارت تجسّد الفقر، وقلّة المال، وغياب التجارة المربحة، وغلبة الخسارة في التعاملات التجارية، وغياي الأصحاب الصادقين الوالكرماء الأوفياء.

ب ـ في قيظ تلك الظروف القاهرة الشّائكة، قُدِر له مجاورة امرأة . هذه المرأة قدّمها للقارئ من خلال لوحتين كبيرتين متقابلتين. اللوحة الأولى: عرض الجانب القبيح فيها. بتمثّل ذلك في مرارة عيشها، جشعها، حالمة آملة فيما هو ممتنع التحقيق، دوام التبرّم وعدم الرضى، مطالبها لا تنتهي وفوق طاقتها، لا ضابط لها في التعامل تحزن وتحرج، لا علاقة لها مع النّاس.

[134] – عبيد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. ص 164، 165.

اللوحة الثانية التي رسمها لها تقابل السّابقة، فهي ذات جمال وحسن كبيرين، فاتنة مغرية جذّابة للحليم والكريم، عفيفة طاهرة منزّهة عن العيوب الكبرى، والتي جعلتاها (كأنّها درّة مصونة، أو

جوهرة مكنونة). هذه المرأة الموصوفة من خلال اللوحتين هي التي اختارها شريكة لحياته وزوجة له. ويبدو أنّ الصفات الواردة في اللوحة الثانية هي التي حسمت الموقف في الاختيار، وهما العفّة والجمال.

القسم الثاني من الفصل الأوّل:

الأشكال الفنية
في المقامة الجزائرية القديمة

المعلوم في عالم القراءة المنهجية أنّ القارئ يلتقي بالنصّ الأدبي أوّلا عن طريق اللغة بمكوّناتها الصغرى والكبرى. فهي التي تنبّئه عمّا يحتويه النّص من مضامين ومواضيع وقضايا مختلفة تتنوّع بتنوّع النصوص وكتّابها. هذه اللغة التي هي أوّل ما نلتقي به في قراءتنا لكلّ مكتوب، هي مكوّنة من الأصوات (الحروف) والمفردات (الألفاظ والكلمات) والجمل (التراكيب والصيغ)، والأساليب والفقرات. هذه اللغة بمكوّناتها هي التي يسكن فيها الحسن والجودة، وهي التي تتلبّس بالجمال والرونق وهذا ما يجعل القارئ مُستمالا ومُنجذبا للنّص فيقرأه ويكرّر، ويتذوّقه ويستمتع، ويتلقّى منه ما اشتمل عليه من أفكار ومواقف ومشاعر وقضايا وأخبار ومشاهد وصور. البناء اللغوي بمفاصله وأقسامه المفترنة بالجمال والحسن هي الأشكال الفنية في النصوص الأدبية شعرها ونثرها.

"الأشكال الفنّية" عبارة مكوّنة من الأشكال والفنّية. "الأشكال" مفردها شكل، و"الفنّية" صفة للأشكال، مفردها فنّي، وهو كلّ ما نسب للفنّ، والفنّ هنا في هذه العبارة بمعنى الجمال الذي يحقّق الدهشة والإثارة، وبمعنى الحسن والفرادة الذي بفضي إلى الإمتاع والذّة، وبمعنى الوسامة التي تجلب البهجة والسرور. فالأشكال الفنية وفق التفسير السابق يصبح المقصود منها الجوانب الجمالية في النصّ المقروء أو المدروس. وهي مواطن الحسن ومواقع الجودة والإتقان في الكلام الموظّف من قبل الكاتب أو الأديب، وهي مقاطع لغوية اشتملت على قدر فيه من السحر والإحكام، ومن الروعة والانتظام تجعل من الكلام مرغوبا فيه ومحبوبا ومتعلّقا به، يبقي أثرا حسنا ممتعا في النفس، وصدى طيبا مريحا في القلب.

وقد استعملت عبارة " الأشكال الفنية" في عناوين العديد من الدراسات الأدبية النقدية بعبارات وأوصاف مختلفة مثل "الشكل":

– في كتاب: التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون لعمر يوسف قادري.

– و في كتاب: جراحات حيفا عذابات الكرمل، الشكل والمضمون لنادي ساري الديك.

ومثل "التشكيل الفنّي":

– في كتاب: التشكيل الفنّي في ديوان الشيخ لعبد القادر بطبجي.

– في كتاب: التشكيل الفنّي في أدب عبد الرحمن بن العقون، الشعر خاصّة، دكتوراه من إعداد يمينة قرفي وإشراف محمد العيد تاورتة.

ومثل "ظاهرة فنية":

– الشعر العربي المعاصر قضاياه وظاهرة الفنية لعزّ الدين إسماعيل.

ومثل "البعد الفنّي":

– البعد الفنّي والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري للطاهر يحياوي.

ومثل "دراسة فنّية":

– الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954م – 1962م) دراسة موضوعية وفنّية لمصطفى بيطام.

ومثل "رؤية فنية":

– محمّد أحمد العزب، عن اللغة والأدب رؤية تاريخية وفنّية.

ومثل الجماليات:

– أدب الأطفال دراسة في المضامين والجماليات. أطروحة انيل شهادة الذكتوراه. من إعداد بن مسعود قدور. وإشراف بوشيبة عبد القادر.

وقد تناولت الناقدة الجزائرية " غربي شميسة " الأشكال الفنية والجوانب الجمالية في المقامة الجزائرية القديمة[135] بمصطلحين هما : (البنية الأسلوبية والبنية الإيقاعية)[136] .

هذا المصطلحات: الشكل، التشكيل الفنّي، ظاهرة فنية، البعد الفنّي، دراسة فنية، رؤية فنية، البناء الفنّي، الجماليات ... كلّها تتقارب فيما بينها لتصبّ في الخصائص الفنية أو الصياغة الفنية، والجوانب الجمالية، التي تتواجد في البناء اللغوي للنصّ، والتي يتّصف بها العمل الأدبي والتي يمكن أن تدرس ويُبحث فيها بأدوات ضرفية، نحوية، بلاغية، أو تنقد وينقّب فيها بوسائل مستقاة من المناهج النقدية الحداثية .

أوّلا: العنوان :

الموضوع الأوّل الذي سنتناوله بالدراسة والشرح في الشقّ الخاصّ بالأشكال الفنية للمقامة هو العنوان، سنختار عناوين للمقامات للأدباء الآتية أسماؤهم : "ابن محرز الوهراني، ابن حمادوش الجزائري، ابن ميمون الجزائري". والعنوان ظاهرة قديمة في الثقافات الإنسانية القديمة، ومنها الثقافة العربية، وهناك من يربطها بمرحلة التدوين للعلوم والمعارف العربية في أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي. إلّا أن الناظر المتدبّر في جذور القضية سيجد أنّ زمن العنوان كان قبل ذلك بزمن ليس باليسير. و الرائد في هذا الشّأن هو القرآن الكريم . فقد سمّى الله كتابه

135 – لم تكن الدراسة للمقامة الجزائرية القديمة من طرف الباحثة والناقدة غربي شميسة عند سائر الأدباء الذي أنشأوا هذا الفنّ، وإنّما كانت الدراسة النقدية التشريحية للمقامة مركّزة على ما أبدعه ابن ميمون وذلك واضح في العنوان: (بناء المقامة عند ابن ميمون الجزائري لامن خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. دراسة.)

136 – غربي شميسة، بناء المقامة عند ابن ميمون الجزائري لامن خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. دراسة. ديوان المطبوعات الجامعية وهران، الجزائر. يناير 2010 م . ص 102 ، وص 138.

" القرآن الكريم " قال الله تعالى ﴿ وإنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه إلّا المطهّرون ﴾ الواقعة 77، 78، 79. كما سمّاه " الكتاب " في قوله سبحانه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين ﴾ البقرة / الآية 2. ، إلى جانب أسماء أخرى.

كما قد سمّي كتاب الله بعدّة أسماء (مثل الفرقان، الذكر، الموعظة، النور، البيان،) تصلح أن تلقّب بالعناوين، وإن كانت متعدّدة فهي واحدة في الدّلالة على كتاب الله عزّ وجلّ ومتنوّعة في الإشارة إلى وظائفه وخصائصه. إلى جوار ذلك فالدارس للمصحف الكريم يبصر أنّ كلّ سورة مكية ومدنية لها عنوان خاصّ بها تنفرد به لوحدها.

وإذا انتقلنا من القرآن الكريم صوب المأثور الأدبي العربي فإنّنا نجد أن العنوان قد حضر في تراثنا الأدبي الأوّل ، وما تلك العناوين والمصطلحات المشهورة المتداولة مثل : (المعلّقات، السبع الطوال، المذهّبات ، السموط ، المشهورات، السبعيّات، السبع الجاهليات)[137] التي أطلقت على مجموعة من القصائد الشعرية الجاهلية إلّا دليل على ذلك. وإذا درسنا كلّ عنوان ونقّبنا فيه جيّدا وجدناه يحمل قيما عديدة ومدلولات كثيفة لصيقة بالقصيدة الشعرية الجاهلية في بنائها الفنّي أو مكوّناتها المضمونية المتداخلة.

والعنوان قد يكون على رأس كتاب أو مؤلّف ما، وقد يكون علما على فصل من كتاب، أو سمة على قضية أو مبحث من كتاب. لذا كان عنوان الكتاب أو الرسالة أو المقال عنوانا

137 – ينظر : بدوي طبانة، معلّقات العرب. دار المرّيخ للنشر، الرياض السعودية. ط 1404 هـ – 1984 م . ص 23.
– ومصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. ج / 3 . دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان. 1394 هـ – 1974. ص 173 .

أصليا ورئيسا، والعناوين الأخرى الداخلية فرعية تابعة. والأصلي مثل الفرعي كلاهما يثبتان بنظام ووعي وبإتقان، لأنّهما يعبّران عن محتويات وأبنية نصوص.

نظرة النقّاد والدارسين إلى العنوان نظرة مبنية على الاحتلرام والتقدير لأنّهم يدركون تمام الإدراك أنّ صناعته تتطلّب جهدا كبيرا ودقّة معتبرة وعمق نظر طويل من طرف الكاتب ، لأنذ هذا الأخير على يقين أنّ مكوّنات العنوان الظاهرة والخفية هي الجالبة لقراءة النصّ والمغرية عليه والمتحكّمة فيه، مثل ما هي منفّرة عن الإقبال على النصّ ومبعدة عن تناوله بجدّ ونشاط. وهذا

يرجع إلى كون العنوان ((يقوم على تركيب نصّي يعدّ مفتاحا منتجا ذا دلالة، ليس على مستوى البناء الخارجي للعمل فقط بل يمتدّ إلى البنى العميقة ويستفزّ فواصله، ويدفع السلطة الثلاثية (المبدع، النصّ المتلقّي) إلى إعادة إنتاج تتيح لعوامل النصّ الانفتاح على أكثر من قراءة))[138]، الفضل في هذا يعود لصاحب النصّ المبدع للعنوان والمصيغ له صياغة خاصّة شكلا ومضمونا، يدفع المتلقّي إلى شرحه وتحليله، ويجعل النصّ الموجود فيه هذا العنوان محلّ تقدير وقراءة، وهذا الاهتمام ليس متعلّقا بوقت محدود معيّن وسرعان ما ينقضي، بل يدوم ويستمرّ عبر أزمنة مختلفة، وتتجدّد قراءاته وتفسيراته بتجدّد الأذواق والثقافات وزوايا النظر والدراسة.

وبالنظر لقيمة العنوان ومكانته يمكننا الاعتداد ابه ((مصطلحا إجرائيا ناجحا في مقاربة النص الأدبي، ومفتاحا أساسيا يتسلّح به المحلّل للولوج إلى أغوار النصّ العميقة قصد استنطاقها

138 – إبراهيم بادي، دلالة لعنوان وأبعاده في موتة الرجل الأخير. مجلّة المدى . ع / 26. 1999 م . دمشق، سوريا . ص 114.

وتأويلها)) [139]، ويصبح العنوان في هذه الحالة واقعا نصّيا ووسيلة نقدية. نستعين بها لتحليل العنوان ودراسته بعمق وبشمول في جوانبة المعجمية والنحوية والبلاغية واستكشاف ما في ذلك من معان ودلالات، ومن مقاصد وأغراض.

1 – عنوان الكتاب : (**الذي وردت فيه مقامات ابن ميمون الجزائري**) :

عنوان الكتاب الذي وردت فيه مقامات "ابن ميمون" هو وفق التالي: (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية). وهو الكتاب الوحيد في التراث الجزائي المقامي الذي ضمّ جنس المقامة فقط ، دون الاجناس الأدبية الأخرى. لذا ارتأينا دراسته بوصفه شكلا فنيا عامرا بالدلالات والإشارات. سنحاول فهم هذا العنوان الذي أورده الكاتب علما معبّرا وسمة مرشدة إلى قراءة المقامات ، وسنسعى إلى عرض وتقديم بعضا بعض من مراميه ومقاصده من خلال الوقوف على مختلف العناصر المكوّنة في بناه للبنى الإفرادية والتركيبية .

1 / 1 – التحفة : إذا راجعنا بعناية إلى بعض معاجم اللغة العربية الكبرى المعتمدة سنجد لها المعاني التالية: – ((التحفة أبدلت التذاء فيها من الواو، إلّا أنّ هذه التّاء تلزم التصريف كلّه إلّا في "يتفعّل" كقولهم يتوحّف، ويقولون : أتحفته تحفة يعنى طُرَف الفواكه.)) [140]، هذا عند "الخليل بن أحمد الفراهيدي".

139 – جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة. مجلّة عالم الفكر . المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب. الكويت. مج ة/ 28 . العدد 1 . مارس 1997 م . ص 106.

140 – الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين. المجلّد / 1 . تحقيق عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ط / 1 . 1424 . هـ / 2002 م . ص 181 .

– ((التحفة: التّحفة بالضمّ وكهُمزة: البرّ واللَطف، والطرفة. ج: تحف، وقد أتحفته تحفة، أو أصلها: وحفة، فتذكر في وحف.))[141]. ذلك عند "ابن منظور".

– ((التحفة الطرفة من الفاكهة، وغيرها من الرياحين. والتحفة ما أتحفت به الرّجل من البرّ واللطف والنّفص. وكذالك التحفة بفتح التّاء.))[142]، وهذه المعاني للكلمة السابقة هي ما يراه فيها "الفيروز آبادي".

يمكن أن نستخلص ممّا سلف أنّ التحفة في أصلها ومنشئها كلمة كانت تطلق على الطرفة من الفواكه، أي ما لذّ وطاب منها، وما حلا واستجاد منها. ثمّ أطلقت مجازا على كلّ شيء ذي قيمة وشأن، وكلّ شيء يتلقّى بالقبول والرضى، لما فيه من نفع وفائدة، ولما يحتويه من برّ وخير، ولما فيه من لطف وعناية بالآخر. وبناء على ذلك فالتحفة الموظّفة في العنوان.

– المرضية:

– إذا قُرئت بالميم المفتوحة (المَرضية): فمعناها هي التي رضي عنها الموهوب إليه، وقبلها عن طيب خاطر، واستحسنها وقبل بها عن طواعية وحبّ.

– وإذا قرئت بالميم المضمومة (المُرضية): أي هي التي تُرضي وتقنع وتكفي، وهي التي تشبع وتريح ، فيتقبّلها المهدى إليه لما فيها من نعيم وبركة، ولما تبعثه في النفس من هدوء وقرار.

141 – محمّد الفيروز آبادي. القاموس المحيط. ج / 3 . تحقيق مجدي فتحي السيّد. المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر. د ت . ص 137 .

142 – ابن منظور. لسان العرب. ج / 2 . تحقيق ياسر سليمان، ومجدي فتحي السيّد. المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر. د ت . ص 20 .

– في الدولة البكداشية:

هي فترة من قترات الحكم العثماني للجزائر، التي حكم فيها "الدّاي محمّد بكداش". وذلك ما بين سنة (1118 هـ : 1707 م) إلى سنة (1122 هـ : 1710 م)[143]. وقد ارتبط اسم هذا الدّاي العثماني في التاريخ الوسيط الجزائري بانشغاله الكامل والتّام بتحرير مدينة وهران من المحتلّين الإسبان، وذلك طيلة اعتلائه على عرش الدّاي بالجزائر، فترة الاعتلاء هذه لم تدم أكثر من أربع سنوات. وقد تحقّق النصر بتحرير مدينة وهران بفضل الله عزّ وجلّ، وبفضل إيمانه القوي والرّاسخ، وروحه الجهادية العالية الصّارمة، وبفضل القائد الميداني صهره "أوزن"، وبفضل القائد الخطّط والمتنقل من معسكر إلى وهران "الباي مصطفى أبي شلاغم"، رحمهم الله جميعا.

ومن عجائب القدر التي تجعل المطّلع عليها في غمرة الحيرة والدّهشة والغرابة، وفي عالم من الحزن والأسى أن يكافأ المجاهدون المنتصرون على الأعداء الألدّاء بعد قرون من الاحتلال والنهب والاستغلال بالشرّ الذي لا يتصوّر وبالكيد والمكر الذي لا يتوقّع مكافأة، والذي قد يعسر على الخصوم أن يفعلوها ويقترفوها. وذلك أن تكون نهاية هذا البطل المجاهد "محمّد بكداش" وصهره "أوزن" رحمها الله على يد الداي المنقلب عليه "دالي ابراهيم"، وذلك بقتلهما تباعا.

ما علاقة هذه التحفة المرضية من المقامات السنية بالدولة البكداشية ؟

143 – ينظر: – يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب. ج / 1 . دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر. 2013. ص 99 .

المؤكّد أنّ التحفة المقامية مهدية وموهوبة إلى الحاكم العثماني الداي المجاهد "محمّد بكداش"، فحرف الجرّ "في" الموظّف في العنوان ملتصقا بكلمة الدولة يراد به ما يفهم من حرف الجرّ الآخر وهو "إلى"[144]، فالحرف "في" المقصود به "إلى" ،فيصبح العنوان وفق النحو التالي (التحفة المرضية إلى الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية). وتصبح الدولة البكداشية مقصود بها شخصية هذا الحاكم الدّاي "محمّد بكداش"، وهذا النوع من الحديث العربي مألوف في الكلام العربي قديمه وحديثه، وهو الذي يطلق عليه التعبير بالكلّ مع إرادة الجزء، أي المجاز المرسل في علاقته الكلية.[145]

– في بلاد الجزائر المحمية:

هذا نوع من التقييد قد يستفاد منه :

التحديد والتعيين، الذكر والتخليد، التعريف والبيان، وقد يراد به التفاؤل والاستبشار. نقهم من هذا الجزء من العنوان أنّ هذه مقامات هي بمثابة الطرفة لما فيها من الطيب والبرّ والخير والاعتراف ، ووصف للزعيم المجاهد "محمّد بن علي بكداش" الذي سعى سعيا حثيثا متواصلا

144 – يساق حرف الجرّ " ف " في الكلام لتحقيق معان كثيرة مثل: الظرفية الزمانية والمكانية، والتعليل، و ((بمعنى (إلى) وجعلوا منه قوله تعالى فردّوا أيديهم إلى أفواههم إبراهيم / الآية 9 . فاضل إبراهيم السامرائي، معاني النحو. ج / 3 . دار الفكر للطباعة والنشر عمّان الاردن. ط / 1. 1420 هـ – 2000 م . ص 59.

145 – ((علاقة الكلية: في هذه العلاقة تطلق كلمة تدلذ على الكلّ وأنت تريد بها الجزء. ... ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائي إلّا فرارا . وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا ﴾ نوح / الآية 5، 6، 7 ، ... رغبة بالمبالغة ذكر نوح عليه السلام الأصبع وهو يريد جزءا منها . وبعبارة أخرى أطلق الكلّ وأراد الجزء، على سبيل المجاز المرسل ذي العلاقة الكلية.)) – بكري شيخ أمين، البلاغة في ثوبها الجديد علم البيان. دار العلم للملايين، بيروت لينان. ط / 1 . 1982 . ص 99، 100. .

كي تعيش الجزائر وتظلّ بكافّة ربوعها في ظلال الأسلام والتوحيد، وتحت رايات الحرية والاستقلال في حفظ ومناعة وسعادة. ففي مثل هذه المكوّنات اللغوية فإنّ العنوان في مركّباته هو ((نصّ صغير يتعامل مع نصّ كبير ... يعكس عادة عالم النصّ المعقّد الشاسع الأطراف))[146]،وفي هذه الحال يمكن للعنوان من خلال مايحتويه من أسماء وأفعال وأدوات أن يقدّم بعضا من الدلالات التي تشير إلى محتويات النصوص المقامية الأخرى ، ويدفع بالقارئ إلى أن يستحضر في ذهنه أجزاء من الأبعاد والمرامي التي تزخر بها المقامات في بنياتها ومستوياتها.

1 / 2 – العنوان بين الذات والواقع:

عنوان الكتاب المقامي يحيلنا إلى مقامين كبيرين :

– الأوّل: الذات التي تتمثّل في شخصية " ابن ميمون الجزائري" الكاتب المبدع للمقامات، الكاتب الذي ابتغى من مقاماته مقاصد تاريخية ذات أهمّية كبيرة، وأغراضرفنية جميلة لا يستطيعها إلّا الكتّاب الافذاذ الكبار. شخصية كتبت وأبدعت بعد أن أحبّت وتعلّقت، وودّت فارتبطت، وحلمت فخلّدت، وأرادت فكان الذكر الباقي الذي لا يغفل عنه.

– والمقام الثاني: هو الواقع السياسي والعسكري الذي شهدته الدولة البكداشية نسبة إلى حاكمها الكبير والبارز "الدّاي محمّد بن علي بكداش"، خاصّة الحدث العظيم والجليل الذي ارتبط فيها وهو فتح مدينة وهران لإزالة ما علق بها من عصابات المحتلّين الكفرة الإسبان ومن ساندهم وأعانهم .

146 – عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردي. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1986 . ص 277.

1 / 3 – العنوان بين الأدب والتاريخ

فإذا كانت عبارة (التحفة المرضية) من الاسم الموصوف والصفة تحيل إلى المقامات ذلك الجنس الأدبي العريق والعجيب، فإنّ (الدولة البكداشية) و (الجزائر المحمية) يحيلان إلى تاريخ عظيم وجليل من تواريخ الجزائر في العصر الوسيط. فالعنوان يفضي بالمتلقّي إلآ أنّه بصدد أدب رفيع وتاريخ عظيم. وفعلا فالمقامات بقدر ما فيها من الأدب االجميل والبلاغة الحصيفة والبيان الفصيح، وبقدر ما فيها من التراكيب النحوية البليغة، و أساليب التصوير المؤثّرة، والإيقاعات الداخلية المطربة ، فكذلك فيها من الزاوية المقابلة الأحداث العسكرية القتالية، والوقائع التاريخية الجسيمة والمرويات الحربية الميدانية المشاهدة بالعين .

فالأدب فضلا عن دوره الإمتاعي والإقناعي ودوره في تربية الذوق والمشاعر ، فهو هاهنا معين ومسهم في معرفة التاريخ الموثّق بالوقت والتاريخ والسّاعة والأعداد والأمكنة والأنفس والأشياء الكبيرة والصغيرة. فمقامات "ابن ميمون الجزائري" – رحمه الله تعالى – وانطلاقا من العنوان الكبير تقرّر العلاقة الوثيقة بين الأدب والتاريخ. وأن لا عجب في العلاقة القائمة بينهما في مثل هذه النصوص الخالدة.

1 / 4 – الربط بين دلالات العنوان وعناوين المقامات:

هذا الأمر ملحوظ جيّدا على المستويين، فكلّ عناوين المقامات تتواشج وتتعالق مع العنوان الرّئيس للكتاب المقامي. فكلّها أحداث ووقائع، ووصف للأبطال والمجاهدين بأسلوب فيه الإتحاف الأدبي والكمال البلاغي، والخيال المتعالي، والموسيقى المريحة. ووجه العلاقة الكبير بين العنوان الكبير وعناوين المقامات كون كافّة ما ذكره في المقامات جرى وحدث في أثناء حكم

الدولة البكداشية.، التي حمى فيها الله بلاد وهران والجزائر بحكّامها الشرفاء: "الدّاي محمّد بكداش" ما بين سنة 1118 هـ - 1707 م إلى سنة (1122 هـ - 1710 م ، والقائد الميداني صهره "أوزن"، والقائد "الباي مصطفى أبي شلاغم"، رحمهم الله جميعا.) وجنودها الأوفياء الذين أبلوا البلاء الحسن في سبيل الله تعالى.

1 / 5 – الربط بين العنوان ومضامين المقامات:

وكذلك الشأن إذا نظرنا إلى مضامين المقامات، ووصلناها بالعنوان الكبير. فالأوّل يصبّ في الثاني، وهذا ينهل من الآخر. وهكذا في اتساق رائع وانسجام رائق لأنّ ((بينية لغوية مشحونة الدلالة والممثلة لفكرة النصّ بقصدية من قبل المرسل، يحكمها سياق قادر على إحداث التواصل مع المرسل إليه،))[147] ، فالعنوان إذا كان ممتلئا بالمعاني على الرغم من إيجازه وقلّة الفاظه فإنّه لا محالة منشئ لروابط متنوّعة بينه وبين القارئ المتدبّر في النصوص.

1 / 6 – البناء الصوتي في العنوان الكبير:

عند قراءتنا لعنوان الكتاب (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية) فالبناء الصوتي ظاهر وجلي، من خلال ارتكازه على البنية الصوتية القائمة عل أسلوب السجع. نجد هذا المكوّن الصوتي في الكلمات التالية (المرضية، البكداشية ، المحمية،)، فحرف الياء المتّصل

147 – عامر جميل شامي الراشدي، العنوان والاستهلال في مواقف النفري. دار حامد للنشر والتوزيع عمان، الأردن. ط / 1 . 2012 م . ص 31.

بآخر الكلمات السابقة هو الذي صنع الأسلوب السجعي. فغدا العنوان في نغمة ولحن، وفيه إيقاع وموسيقى. تحدث كلّ هذه العناصر في النفس طربا متعة وتوجد غناء وأنسا. وكذلك تدفعه دفعا للقراءة المتكررة والممعنة للعنوان وللمقامات التي تندرج تحته.

2 – عناوين المقامات عند "ابن ميمون" :

2 / 1 – عنوان المقامة الأولى (في نبذة من أخلاقه المرضية، وممّا أشار به عليه بعض السادات الصوفية) ص 114 :

العنوان يوحي بأنّ صاحب المقامة قد ركّز على الشمائل الفاضلة "لمحّمد بن بكداش"، ووصايا الأئمّة والوعّاظ له بالمنصب العالي الذي سيتبوّؤه في المستقبل القريب. وفعلا فقد استغرقت المقامة في ذكر ما حباه الله من حسن السّلوك والبراعة في المعاملة مع كافّة أطياف المجتمع، وقوة صلاته برموز الدين من الشخصيات البارزة والأسماء الظاهرة.

لكن هناك زيادة على ذلك في المقامة إذ استهلّها "ابن ميمون" بالحديث عن النسب الشريف والعريق لوالد "محمّد" وهو "نور الدين علي بكداش"، وما يشهد له به من السجايا العالية والمعاملات السامقة والمواقف التميّزة بالخير والبرّ واللطف، "ابن ميمون" بحديثه هذا يريد أن يقول لنا أنّ ذلك الفرع من هذا الأصل.

2 / 2 – عنوان المقامة الثانية (أولى في كونه سنجاق دار، بلغة المجاهدين الأخيار) ص : 119) :

استلامه منصب حامل لواء العسكر (1107هـ/1695م). نعمة، راحة، صحة ،عدل.وكان ذلك في ولاية باشا الحاج أحمد داي. وقد نبّه ابن ميمون أنّ محمّد بن بكداش سبق له قبل تولّيه المنصب أن كان واعظا في النّاس وقد تعلّق به الحاضرون وذلك لبلاغته الصافية وبيانه الخلّاب.

2 / 3 – عنوان المقامة الثالثة (في توليته على تقسيم خبز العسكر، وكيف نزع الظالم حين طغى وتجبّر. (124 تولية المنصب 1112هـ .

الظلم والجور من قبل الداي الحاج مصطفى قتل وتنازل لحسين خوجة الشريف

الاستشهاد بشعر لصاحب المقامات .

2 / 4 – عنوان المقامة الرابعة (على أنّه يتصدّى ملكا للإيراد والإصدار، فزحلق نفسه إلى تفتر دار) ص : 127 توليته رئاسة ديوان الإنشاء وكاتب عام الدولة. حسدوه، رفضه، خلعه، حبسه، أخرجه، نفاه .

2 / 5 – عنوان المقامة الخامسة (في تغريبه من الجزائر، ورجوعه إليها بقدر الحكيم القادر) . ص 136 : بعد تنحيته اتجه إلى طرابلس وهناك شحذت همّته من طرف فدخل تونس ومنها تزوّد بالرجال والسلاح والمؤونة إلى أن دخل الجزائر حيث البساتين والباب الجديد فاسترجع حقّه

2 / 6 – عنوان المقامة السادسة (في استفتاح الملك صباحا، وما جرى لأهل الدولة غدوا ورواحا) 139 ص .

2 / 7 – عنوان المقامة السابعة (في اسمه، وأهل مملكته ورسمه) 143 :

نسبه، صفته، بنوه، أصهاره، كتّابه وقضاته. فصّل في تراجم القضاة .

2 / 8 – عنوان المقامة الثامنة (تهنئة الشعراء ومدحهم له، وتعريف كلّ واحد منهم بما سطّره، أو نقله) .ص 152 :

من هؤلاء الشعراء: يحي بن أحمد بن أحمد بن محمّد بن أبي القاسم بن راشد. لأبو عبد الله البونصي الشريف. إبراهيم القتيلي. أبو عبد الله محمّد بن محمّد القالي. أبو عبد الله محمّد بن أحمد البوني. ابن يوسف الجزائري أبو عبد الله محمّد. ابن عبد الله محمّد المستغانيمي. أبو زيد السيّد عبد الرحمن بن عبد الله الجامعي. وقد قدّم البعض من هؤلاء الشعراء من قرن شعره برسائل بليغة وخواطر فصيحة.

2 / 9 – عنوان المقامة التاسعة (في ذكر الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة. وما حدث بعد مقاتلة اللئام الفجرة) . ص 203 .

2 / 10 – عنوان المقامة العاشرة (في حصر حصن العيون . وكيف استفتحه عنوة المسلمون) . ص 212

2 / 11 – عنوان المقامة الحادية عشر (في استفتاح حصن الجبل، وكيف نزعه من أيدي الكفرة عن عجل). ص 216 .

2 / 12 – عنوان المقامة الثانية عشر (في حصر حصن بن زهوة، وكيف استفتحه المسلمون عنوة) . ص 221 .

2 / 13 – عنوان المقامة الثالثة عشر (في استفتاح مدينة وهران، وكيف صار عزّ الكفرة إلى هوان) . ص 225 .

2 / 14 – عنوان المقامة الرابعة عشر (في استفتاح برج الاحمر والجديد، وكيف ألقوا إلى لأبي الفتوح المقاليد) . ص 238 .

2 / 15 – عنوان المقامة الخامسة عشر (في حصر حصن المرسى، وكيف افتتحه المسلمون وزال باختتامه الأسى) . ص 245 .

2 / 16 – عنوان المقامة السادسة عشر (في إيّاب خليفة سيّدنا نصره الله للجزائر سالما غانما بالأسرى والذخائر). ص 262 : (تصويره النصر التام الذي حقّقه الله عزّ وجلّ للمسلمين المجاهدين، وإيقاعه الخسارة الجسيمة بالكفّار المغتصبين للاراضي الجزائرية المسلمة، والتي لم يكونوا يتوقّعونها في الواقع ولا الخيال.

هذه العناوين صريحة في الإعلان والإفصاح عن مضامين المقامات، وأغلب العناوين تصرّح واصفة المعارك الطاحنة التي دارت بين المسلمين المجاهدين الذّائدين عن حمى وطنهم المغتصب والكفرة من الإسبان المحتلّين ومن أعانهم وشايعهم ووالاهم من العجم من خارج الجزائر ومن داخلها .

فأغلي عناوين المقامات المتميّزة التي أبدعها ابن ميمون الجزائري كلّ عنوان تفرّد بوصف فتح من الفتوح لمختلف الحصون المبنية، والبروج المشيّدة من قبل الكفّار، وقد اعتمد في الوصف على التاريخ والوقت في انطلاق ونهاية المعارك التي دارت رحاها بين المسلمين والكفّار، وتحديد الأماكن الجغرافية المختلفة وتصوير الحرب والعراك وذكر عدد الشهداء والقتلى، وما تبع النصر من غنائم وأفراح وأشعار ورسائل.

2 / 2 – الكلمات المتكرّرة في العناوين ودلالاتها:

الدّارس بعمق للعناوين التي هي ((رسالة تعرف بتلك الهوية وتحدّد مضمونها. وتجذب القارئ إليها، تغريه بقراءتها، هو الظاهر الذي يدلّ على الباطن ومحتواه))[148] سيلفي بناها الإفرادية قد تأسّست على تكرار العديد منها تكرارا معجميا وتكرارا معنويا. وهذا التكرار بشقّيه من ورائه مقاصد . وعملنا هنا هو وصع الكلمات والمعاني المتشابهة في زمرة واحدة، ثمّ بعد ذلك نجتهد في العقيب على ذلك في حدود ما تسمح به الكلمات والمعاني، دون تأويل بعيد، أو تفسير عميق، أو استنتاج غريب.

أ – أسماء الله الحسنى: الله م / 16. الحكيم ، القادر . م / 5.

ب – حول شخصية " بكداش ": أخلاقه المرضية، م/1 ... تغريبه م/ 5 ... رجوعه م/5 . اسمه، ورسمه. م/7. تهنئة الشعراء ومدحهم له.م/8. التذكير بأحواله الشخصية يتّسق تماما مع الأحوال العسكرية والجهادية التي أنشأها ورعاها وهيّأ لها أسبابها المعنوية والمادية والبشرية.

ت – المراتب: سنجاق دار م/2 . تقسيم خبز العسكر، م/3 . تفتر دار م/4 . التصريح بالمناصب التي اعتلاها تفهيم للآخر أنّ الرجل قد تدرّب وتمرّن، وقد أصاب منها التجارب القوية والخبرات الغنية، من أجل القيام بما هو آت من المسؤولية الكبيرة وهي حكم البلاد.

148 – أحمد مدلس ، العنوانة في الخطاب الشعري. مجلّة المخبر، منشورات قسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بسكرة. ع 3 . 2006 م . ص 176.

ث – كلمات القتال: استفتاح م/6. غزو م/ 9. مقاتلة م/ 9. حصر م/ 10. استفتحه م/10. استفتاح م/11. حصر م/12. استفتحه م/ 12. استفتاح م/13. استفتاح م/14. حصر م/15. افتتحه م/15. الأسرى، الذخائر م/16. هذا الحضور القوي للكلمات المتّصلة بالقتال والجهاد يدلّ على كثرة ما بذله المسلمون المجاهدون من قوة وبذل في محاربة الأعداء الكفرة، على الرغم من تحصّن الخصوم في الحصون المنيعة والبروج العالية.

ج – تسمية الأعداء: الكفرة م/9. اللئام الفجرة م/9. الكفرةم/11. الكفرة م/13. هذه التسميات تبيّن لنا أنّ الحرب كانت ذات طابع عقدي وديني، ولم تكن من منطلق آخر، وما بناؤهم الكنائس وهدمهم للمساجد ونشرهم لعاداتهم وتقاليدهم إلّا أدلّة قوية ظاهرة وشاهدة عل هدفهم البعيد .

ح – تسمية أصحاب الدّار: المجاهدين الأخيار م/2. أهل الدولة م/6 . وأهل مملكته م/7. المسلمون م/10. المسلمون م/12. المسلمون م /15. هذه الأسماء بدورها توضّح لنا البواعث والغايات التي كانت تحرّك بقوة واستمرار أهالي وهران والعساكر المجاهدين، فمالهم من هدف دنيوي، ولا منافع قريبة، ولا مصالح ضيّقة، وإنّما هناك الدين والجهاد في سبيل الله، والشهادة أو النصر.

خ – البلاد والمدينة: الجزائر م/5. وهران م/9. وهران م/13. الجزائر م/16. التنبيه على الجزائر بلدا وقطرا وعلى وهران مدينة وإقليما يكشف على عمق التلاحم بين أهل البلد، وبين الحكّام والمحكومين.

د – الحصون : حصن العيون. م/ 10. حصن الجبل م/11. حصن بن زهوة م/12. برج الأحمر والجديد م/ 14. حصن المرسى م 15. في ذكر ذلك إبراز لنوايا المحتلّين الغاصبين على البقاء، وعزمهم على الحرب والصبر عليها، ومن ثمّة البقاء في وهران لاغتصاب كلّ ما تملكه من خيرات في الأرض وتحت الأرض، وثروات بحرية وطبيعية.

ذ – القوة والشدّة وما كان من معانيهما: عنوة م/10. نزعه م /11. عجل م/11. عنوة م/12. القوة: نزع م / 3 .

ر – الأمل والفرحة: زال باختتامه الأسى م / 15 . سالما ، غانما م / 16

ز – أعلام: أبي الفتوح م/ 14. خليفة سيّدنا م / 16.

س – الاستبداد: الظالم ، طغى ، تجبّر م / 3 .

ش – الذلّ والخناعة: هوان م/ 13. ألقو المقاليد م / 14.

ع – الوقت : صباحا ، غدوّا، رواحا م/ 6 . هذه الكلمات تفهمنا أنّ القتال كان قائما ولم يتوقّف في الصباح ولا في المساء ولا في الليل. وهكذا يتّضح لنا من خلال العناوين المقامية السابقة وما سقناه لها من شروح وتفسيرا أنّها ((بنية عامة قابلة التحليل والفهم والتفسير.)) [149] وهذا يرجع إلى واضعها ابن ميمون الذي أحكم بناءها وأتقن صياغتها نت مختلف الجوانب التب تأسّست عليها.

149 – علي محمد أحمد العبيدي، العنوان في قصص وجدان الخشاب (دراسة سيميائية), مجلّة دراسات موصلي. الموصل، العراق. العدد 23. شباط 2009 م . ص 63.

2 / 3 – عناوين المقامات الثلاثة (السادسة، الثالثة عشر ، الخامسة عشر):

العنوان في هذه المقامات الثلاثة سننظر إليه ((باعتباره أعلى اقتصاد لغوي ممكن، يفرض أعلى فعالية تلقّ ممكنة، ممّا يدفع إلى استثمار منجزات التأويل))[150] فيه التكثير والتكثيف للمعاني مع الاقتصاد والإيجاز في عدد الألفاظ والمباني، وهذا من شأنه أن يجعل عملية التلقّي من الطرف الآخر واقعة تتّسم بين الفينة والأخرى بالثراء والفعالية، وبالتفسير الواسع والتأويل العريض.

2 / 3 / 1 – عرض وتقديم للعناوين:

– عنوان المقامة السادسة: في استفتاح الملك صباحا، وما جرى لأهل الدولة غدوا ورواحا.

– عنوان المقامة الثالثة عشر: في استفتاح مدينة وهران، وكيف صار عزّ الكفرة إلى هوان.

– عنوان المقامة الخامسة عشر: في حصر حصن المرسى، وكيف افتتحه المسلمون وزال باختتامه الأسى.

2 / 3 / 2 – أهمّ الملاحظات التي استخلصناها بعد قراءتنا للعناوين هي:

أ – الاشتراك في النمط التعبيري الذي استهلّت به العناوين، والذي هو شبه الجملة: (في استفتاح)، (في استفتاح)، (في حصر) المكوّن من حرف الجرّ (في) والاسم المجرور، ومن الناحية الإعرابية يمكن إعرابه في محلّ رفع خبر متعلّق بالمبتدأ المحذوف جوازا، والذي يمكن تقديره بالعبارة التالية: هذه المقامة.

150 – بسّام قطوس . سيمياء العنوان، ص 36.

ب – ارتباط الأسماء المجرورة الثلاثة بمضاف إليه: (الملك)، (مدينة)، (حصن). والمضاف إليه الأول مرتبط بالحال (صباحا)، والثاني مرتبط بمضاف إليه (اسم العلم وهران)، والثالث مرتبط بمضاف إليه كذلك (اسم العلم المرسى).

ج – التشابه الصوتي المؤسّس على الأسلوب السجعي فيما بين العناوين الثلاثة: (صباحا – رواحا)، (وهران – هوان)، (المرسى – الأسى).

ح – تعالق العنوانين – الأول والثاني ــ في كلمة "استفتاح". ومع أنّهما متجانستين جناسا تامّا[151] فهما من الناحية الدلالية مفترقتان، فالاستفتاح الأوّل حول الملك صباحا ، والثاني حول مدينة وهران .

خ – الوصل: كلّ عنوان مبني على تركيبين نحويين يضارع بعضهما البعض. إذ نلاحظ أنّ الجملتين الواقعتين في كلّ تركيب هما موصولتا الطرفين بواسطة حرف العطف الواو (و). والوصل[152] هذا تحقّق بفضل طبيعة الجملتين في كلّ عنوان وهي كونهما من سلالة الأسلوب

151- الجناس التامّ: ((الجناس والتجنيس والمجانسة كلّها ألفاظ مشتقّة من الجنس. فالجناس مصدر جانس، والتجنيس تفعيل من الجنس، والمجانسة مفاعلة منه، لأنّ إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى وقع بينهما مفاعلة الجنسية. والتجانس مصدر تجانس الشيئان إذا دخلت في جنس واحد. وحكي عن لخليل بهذا يجانس هذا أي يشاكله، ونصذ عليه التهذيب أيضا. .. وحدّ الجناس في الاصطلاح تشابه الكلمتين في اللفظ أي في التلفّظ. قال في سرّ الإعراب ولم أر من ذكر فائدته وخطر لي أنّها الميل إلى الإصغاء إليه ، فإنّ مناسبة الالفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها . ولأنّ اللفظ المذكور إذا حمل على معنى والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوّق إليه.)) علي صدر الدين بن معصوم المدني، حقّقه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر . أنوار الربيع في أنواع البديع. ج / 1 . ط / 1 1388 هـ – 1968 م . مطبعة النعمان ، النجف الأشرف العراق. ص 197.

152 – الوصل : ((قيل للفارسي ما البلاغة قال: معرفة الفصل من الوصل. وذهب كثير من بلاغيي العرب إلى ما ذهب إليه الفارسي، وعدّوا الفصل والوصل فنّا عظيما صعب المسلك دقيق المأخذ لا يحيط علما بكنهه إلّا من أوتي في فهم كلام العرب

الخبري[153]. فإذا كانت الجملة الخبرية في كلّ عنوان واضحة، وذلك بعدما قدّرنا أنّ تقديرها هو (هذه المقامة، مبتدأ)، فإنّ الجملة الخبرية الثانية في عنوان المقامة السادسة تصبح وفق التقدير إلى ما يلي: (تخبرنا عمّا جرى لأهل الدولة غدوا ورواحا). والجملة الخبرية الثانية في المقامة الثالثة عشر تصير وفق التقدير إلى ما يلي: (تنبئنا كيف صار عزّ الكفرة إلى هوان). والجملة الخبرية الثانية في المقامة الخامسة عشر تتحوّل وفق التقدير إلى ما يلي: (تعلمنا كيف افتتحه المسلمون وزال باختتامه الأسى). وكلمة كيف في المقامتين الأخيرتين ليست استفهامية، وإنّما هي بمعنى (كيفية).

3 – العنوان في مقامات ابن حمادوش :

3 / 1 – العناوين بين الغياب ووضع المحقّقين:

أ – المقامة الأولى (ص 71) عنوانها: "المقامة للمؤلّف، مقامة":

يشير المحقّق "أبو القاسم سعد الله" في الهامش بعد ما وضع رقم 127 بجانب كلمة مقامة الثانية أنّ هذا ((عنوان في الأصل))[154].

طبعا سليما ورزق في إدراك أسراره ذوقا صحيحا ... والوصل عطف الجمل على البعض والفصل تركه.)) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية الفصاحة البلاغة المعاني. وكالة المطبوعات شارع فهد السليم، الكويت. ط / 1 . 1980. ص 184.

153– الأسلوب الخيري: ((الخبر كلّ قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنّه صيغة كلامية تحكي نسبة حاصلة في الواقع أو غير حاصلة ... وكلّ الأخبار تحتمل الصدق والكذب لذاتها.)) عيسى علي الكاعوب وعلي سعد الشتيوي. الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع . (الكتاب الأوّل في علم المعاني).الجامعة المفتوحة، الاسكندرية، مصر. 1993 م . ص 59.

153

154 – عبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. من تعليق المحقّق أبي القاسم سعد الله في هامش الصفحة 71 .

ب – المقامة الثانية (ص 78) نجد عنوانا لها، هو "مقامة أخرى للمؤلّف":

ويبدو أنّه من وضع المحقّق، ولا تعثر على تعليق له في الهامش حول ذلك، مثل ما فعل في السّابق، إلّا أنّ المتتبّع للسّطر الأول من المقامة سيجد ما يلي ((وفي يوم الأحد اللفت المقامة الهركلية[155] ...))، وهذا من كلام "ابن حمادوش". فالعنوان بناء على ما سبق لم يرد في المكان المعتاد قبل بداية المقامة وفي وسط السطر، بل في مستهلّ المقامة. والملاحظ في العنوان (المقامة الهركلية) أنّ كلمة (الهركلية) وردة صفة تصف المقامة.

وهي مشتقّة من كلمة (الهركلة) ، وقد وردت في الهامش مشروحة من قبل المحقّق " أبو القاسم سعد الله " ((يقصد بالهركلة (بالقاف المعقوفة) الهرج ونحوه[156]. وقد وردت كلمة (هركلة) اسما مضافا في صدر البيت الأوّل من قصيدة "لابن حمادوش الجزائري" نظمها ختاما للمقامة، قال فيها:

وليـــــــلة هركلة تحاكي المبيت بيت الشرط
فإن لم تكن محـــنة فلا تدخـــلنها ولا تختبط
فلست ترى سمحة بزيّ ولا امرأة تمتشـــــط
كان بها ســـطلة تمسّ الغريب إذا ما خلط
وفيها سمعـت الخنى بأذني وفيها رأيت الشــطط

155 – المصدر نفسه . 78 . وفي هامش الصفحة ذاتها علقّ أبو القاسم سعد الله على عبارة الهركلية مايلي: ((يقصد بالهركلة بالقاف المعقوفة الهرج ونحوه)).

156 – نفسه . الهامش رقم 170 . من الصفحة 78.

فكـن حذرن قربها ولا تعتورها إذا في نمـــــط [157]

فمعنى لفظة (هركلة) هنا في البيت الأوّل لها علاقة بمعنى (الهرج) الذي ساقه " أبو القاسم سعد الله "، والذي دلّنا على هذا المعجم الموظّف في القصيدة : الشرطة، محنة، تتخبّط، سطلة، اخلط، خنى ، شطط، حذر. فمفردات هذا المعجم كلّها تصبّ في معاني الهرج وما له علاقة به . فالقارئ للعنوان (المقامة الهركلية) سيجد تناسبا كبيرا وانسجاما واضحا بينه وبين مضمون المقامة، فهو يحيل إلى عناصرها ويشير إلى مكوّناتها.

ج – المقامة الثالثة (ص 164) نجد في أعلاها : مقامة أخرى له، ويبدو أنّ هذا من وضع المحقّق. وإذا اطّلعنا على بداية المقامة نجد ما يلي: ((في يوم الخميس السادس والعشرين ألّفت المقامة الحالية))[158]. فكلمة "الحالية" تبدو أنّها صفة للموصوف "المقامة"، لكن بقراءة تعليق المحقّق يمكن اعتمادها عنوانا. والملحوظ في حكم المحقّق أنّه لم يقطع فيه بالإطلاق، بل كان عمله قائما على الترجيح.

وهذا أدب المحقّقين المتثبّتين المتخصّصين الذين يتقنون إجادة التعبير العلمي، وحسن الأداء للأمانة العلمية، ويعرفون كيف يسوقون الأحكام احتراما للقرّاء ، وإيمانا منه أنّ إرسال

157 – عبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. ص 79، 80.

158 – المصدر نفسه . ص 164. الملاحظ أنّ أبا القاسم سعد الله وضع الرقم 511 في متن الصفحة بجانب عيار (الحالية)، وفي الهامش علّق على الرقم ما يلي: ((نرجّح أنّ المؤلّف يرمز بها على زوجته أمّ أولاده "زهراء")).

الأحكام لن يكون له أيّ صدى مالم يؤسّس على بيّنة وبصيرة من القرائن الجلية والبراهين الساطعة.

4 – العنوان في مقامات ابن محرز الوهراني:

4 / 1 – ملاحظات حول عناوين مقامات ابن محرز الوهراني:

أ – المقامة الأولى (ص 1): لا نجد عنوانا ما قد وضعه المحقّقان " إبراهيم شعلان و محمّد نغش " في أعلى المقامة. وإذا قرأنا مقدّمة المقامة فلا نعثر كذلك على عنوان ما يكون صاحب المقامة " ابن محرز الوهراني " قد تأخّر في إيراده، فيذكره في صدر المقامة . فلا عنوان قد ذكر، ومباشرة يلتقي القارئ بالسند الذي استهلّت به المقامة وقد ذكر ذلك مضافا إلى المؤلّف صاحب المقامات " ركن الدين ابن محرز الوهراني ".

ب – المقامة الثانية التي يلتقي بها القارئ في كتاب " ركن الدين ابن محرز الوهراني " في (ص 97) : حيث نجد أنّ المقامة قد سيق لها العنوان التالي : (وله مقامة في شمس الخلافة) . ولا ندري هل هذا العنوان هو إضافة من اجتهاد المحقّقين، أم من وضع وإثبات صاحب المقامة ابن محرز الوهراني. والمؤكّد أن هذا العنوان المشار إليه آنفا لا يحمل المقاييس العلمية التي ينبغي أن تتوفّر في العنوان. بقد ما يحمل معنى التذكير أو التنبيه أنّ هذه المقامة فيها تقرير بأنّ المقامة المروية هي من وضع وإنشاء " ركن الدين ابن محرز الوهراني "، وأنّ موضوعها الأساسي وعمودها الفقري يدور حول شخصية اسمها " شمس الخلافة " .

وللتذكير فإنّ عبارة (شمس الخلافة) قد وردت في أواخر المقامة، ((وصار زوج العلّافة يلقّب بشمس الخلافة)[159]). هذه العبارة وردت في نهاية الفقرة التي سبقت الفقرة الأخيرة من المقامة. فبعد أن فضح أمر هذا المسترزق بالدين والمتاجر بعلومه وفقهه، وعرفت أخلاقة الدنيئة ومعاملاته الخسيسة وأنّ الرجل لا علاقة له بالعلم الشرعي مطلقا ولا بمجالس العلم وحلقه، في هذه الظروف بادر أحد الشيوخ بإبعاده عن ذلك وتوظيفه عاملا في في بعض الأعمال فكثرت بضاعته وحاشيته وازدادت أخلاقه سوء.

سقنا هذا الكلام لإبراز المقام الذي قيلت فيه، وبموجب ذلك يفهم من العبارة العنوان (شمس الخلافة) السخرية والتهكّم، والقرينة القوية المعينة على هذا العبارة التي سلفتها (صار زوج العلّافة يلقّب بشمس الخلافة) . فشمس الخلافة هو بطل المقامة. وزوج المرأة المغربية التي أرادت له أن يكون فقيها، وعلى الرغم من تعليمه ونصحه لم يتحقّق لها شيئا من ذلك، وفي آخر المطاف انقلب عليها شرّ انقلاب. لأنذ قصدها كان مبنيا على الكذب والزور، وعلى السوء والنفاق. فلم يكن لديها همّ سوى العلف الذي تقدّمه لهذا الزوج من أكل وشراب ولياس ودراهم ، أمّا شيم الرجولة وأخلاق الدين وفضائل الأعراف فهي غائبة عنها.

فهل كلمة (علّافة) التي سيقت في الذمّ والهجاء والطعن، تتجاور مع كلمة نقية طاهرة صادقة، أم لا يمكن أن تجاور إلّا شبيها لها ؟ من هنا نفهم أنّ عبارة (شمس الخلافة) هي عبارة قائمة على التشبيه ، قُدّمت مشحونة بالسخرية والتهكّم ، وعُرضت محمّلة بالهزء والاستخفاف

159 – محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 102 .

. السخرية من هذا الرجل الذي هو ظلام دامس على نفسه وزجته والمجتمع الذي يعيش فيه ، والدليل القوي في ذلك أنّه عمد في آخر المطاف إلى سبّ زوجته ومخاصمتها سرّا وعلنا.

ومثل كذا عنوان فإنّه ((هو الذي يعطي النصّ كينونته، بتسميته وإخراجه من فضاء الغفل إلى فضاء المعلوم حيث النص لا يكسب الكينونة ولا يحوزها في هذا العالم إلّا بالعنونة، هذا الحدث الذي يجعل المكتوب قابلا للتداول والحياة.))[160]، فهذا العنوان فعلا يكتب التداول للمقامة بين الناس وفي الحياة، ويجعل من النصّ كائنا حيّا يتجدّد بتجدّد قراءته ، ويجعل منه عامل إغراء وجذب للمتلقّي لقراءة النص وتفهّمه.

ت – المقامة الثالثة (ص 219): (وله مقامة) هذا هو عنوانها ويمكن أن نذهب إلى أنّه من عند المحقّقين إبراهيم شعلان و محمّد نغش. هذا هو حال وواقع العناوين في المقامات عند الأديبين ابن حمادوش الجزائري في رحلته الجامعة، وابن محرز الوهراني صاحب المنامات المثيرة الخالدة.

ثانيا الابتداء :

نقصد بالابتداء المقطع الأوّل من الكلام أو النصّ المكتوب أو المنطوق ، يستفتح به الشاعر قصيدته، ويستهلّ به الناثر أحاديثة . وهذا الجزء الأوّل من النص يتّسم عادة بالقصر بعيدا عن أيّ طول كيف ما كان. يتّميّز هذا الجزء المفتتح به بالإيجاز، والتكثيف، والعموم والشمول، والإشارة والتلميح، والتشويق والإثارة. ولا يكاد يخلو أيّ كلام من الابتداء أو

160 – خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل . دار التكوين للتأويل والترجمة والنشر، دمشق سوريا . ط / 1 . 2008 م . ص 106.

الاستفتاح. وفي مقدّمة ذلك القرآن الكريم، إذ نجد العلماء قد اهتمّوا كثيرا بذلك. ومن النماذج القيّمة الدالّة على ذلك ما قدّمه "بدر الدين الزركشي" في النوع السابع من علوم القرآن تحت عنوان " في أسرار الفواتح والسور " ، ((وقد استفتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها)) [161] ، ثمّ بيّن هذه الأنواع ((الثناء، حروف التهجّي، النداء، بالجمل الخبرية، بالقسم، بالشرط، بالأمر، بالاستفهام، بالدعاء، بالتعليل)).

والابتداء مصطلح تعدّدت أسماؤه عند البلاغيين والنقاد، ومن ذلك الاستفتاح، الافتتاح، الاستهلال، المبادي، الافتتاحات، المطلع. ومنهم من زاد كلمة الحسن فقرنها بالابتداء والاستفتاح والاقتتاح ، ومنهم من زاد كلمة براعة فقرنها بالاستهلال[162]. وقد عُرضت لهذا المصطلح النقدي البلاغي عدد وفير من التعاريف ، ذات الطابع المشترك المتداخل ، المكمّل لبعضها البعض، ومن ذلك أنّ ((حقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالّا على المعنى المقصود من هذا الكلام، إن كان فتحا ففتحا، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء. وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني ... وإنّما خصّت الابتداءات بالاختيار لأنّها أوّل ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي

161 – بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة بيروت، لبنان. ط / 2 . 1391 هـ 6 1972 . من ص 164 إلى ص 181.

162 – ينظر: أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم عربي، عربي. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان. ط / 1 . 2001 م . الصفحات 126، 345، 380.

على استماعه)) [163]. فإذا كان الابتداء أوّل ما يلتقطه القارئ وجب أن يكون معبّرا بإتقان عن المعاني المتبقية التي يحملها النصّ، وأن يتوفّر على كافة المقاييس التي التي تجعل منه كلاما مقبولا ومستساغا يفضي يالقارئ إلى قراءة ما تبقّى من النصّ.

والابتداء عند المعاصرين يندرج في ((خطاب المقدمات ... عتبات النصوص ... النصوص المصاحبة... المكملات ... النصوص الموازية ... سياجات النصّ ... المناص ... إلخ أسماء عديدة لحقل معرفي واحد أخذ يسترعي اهتمام الباحثين والدارسين في غمرة الثورة النصية التي تعتبر إحدى أهمّ سمات تحولات الخطاب الأدبي بشكل خاصّ، والخطابات المعرفية التي تقتسم معه إشكاليات القراءة والتفاعل والإقناع والتواصل بشكل عامّ.))[164]. وانشغال الباحثين والدارسين به يرجع إلى القيمة الكبيرة التي يكتسيها الابتداء في بناء النصّ، والمكانة الرفيعة التي يتبوّؤها في صياغة الخطاب الأدبي وغيره شعرا كان أم نثرا ، لذا نجد التفاتات النقّاد إلى ابتداءات النصوص الشعرية والنثرية حاضرة على المستويين النظري والتطبيقي في مختلف العصور ومع مختلف أعلام الكتابة والأدب.

إنّها التفافات قائمة على النظر والقراءة، ومؤسسة على والشرح والدراسة، واستقراء ما تحتويه مختلف الابتداءات من جواهر في الشكل من حيث البناء المعجمي واللغوي والنحوي والبلاغي والصوتي، وما تحتويه من معاني ودلالات، ومن أفكار وقضايا مختلفة في بطن المضمون.

163 – ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. حقّقه وعلّق عليه الشيخ كامل محمّد محمّد عويضة. ج / 2 . منشورات محمّد علي بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. 1419 هـ – 1998 م . ص 209 ، 210.

164 – عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النصّ دراسة في مقدمات النقد العربي القديم. تقديم إدريس ناقوري. إفريقيا الشرق . الدار البيضاء المغرب. 2000 م . ص 21.

وهذا الذي أبرزه "ابن الأثير" حول ضرورة أن يكون الابتداء دالّا على باقي المعاني والمواقف من النصّ تنبّه إليه أحد النقاد المعاصرين حين بيّن ((أن يبتدئ الشاعر أو الكاتب بما يدلّ على الغرض)) [165]. وهذا يتطلّب من الكاتب أو الشاعر أو المتكلّم قدرا رفيعا من الذكاء والفطانة، وحظّا عظيما من البلاغة والبيان.

يقرّبنا "ابن قيّم الجوزية" خطوات إلى الأمام مجلّيا دور وفائدة الاستهلال ، ((حسن المطالع والمبادي ويقال له حسن الاستفتاح. قال علماء علم البيان ومن ضروب هذا العلم حسن المطالع والفواتح، وذلك دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الأذهان، فإنّه أوّل شيئ يدخل الأذن، وأوّل معنى يصل القلب، ,اوّل ميدان يجول فيه تدبّر العقل [166])). إنّ الاستهلال وفق هذه الإشارات النقدية اللطيفة مبلّغ ونافذ يربط بين العقل والقلب للقارئ من جهة وبين الكاتب ونصّه من جهة أخرى.

والابتداءات القيّمة ترتبط بعنوان المقامة، وتتّصل بأقسامها وموضوعها وبمضمونها، وعادة – كما سنكتشف لاحقا – أنّ أصحاب المقامات من الكتّاب الجزائريين القدامى يجيدون افتتاحات المقامات ويتفنّون فيها من كلّ الجهات المفرداتية والتركيبية والدلالية والتصويرية ، وكذلك الفكرية والمعنوية، ولعلّ قدوتهم في ذلك افتتاحات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وكذا مطالع الشعر العربي القديم، واستهلالات الخطب والوصايا والقصص ومقامات

165 – أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم عربي، عربي. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان. ط / 1 . 2001 م . ص 74.

166 – ابن قيّم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. حققت أصوله وضبطه جماعة من العلماء بإشراف الناشر. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط / 2 . 1408 هـ – 1988 م . ص 132 .

من قبلهم مثل الهمذاني والحريري وغيرهم من محترفي كتّاب فنّ القامات ومختلف الأجناس السردية.

وهكذا نخلص إلى أنّ الابتداءات ((من العتبات النصية المهمّة في توجيه القارئ فضلا عن العنوان المقدمة، إذ أنّها من التيمات لتي تكشف عن مقصدية المبدع ونواياه الإديولوجية التي تمثّل إشارات وموجهات أساسية تقود القارئ إلى فهم أشمل وأدقذ في النصّ))[167]، الاستفتاح عتبة عند المعاصرين مثل العتبات الأخرى يمرّ من خلالها القارئ حتما، فيتأمّلها ويستقرئ بهدوء وتمعّن مبانيها ومعانيها.

وينتقل من خلالها إلى بعض ملامح شخصية الكاتب ومراداته التي دفعته إلى إبداع المقامة في أبعادها المختلفة. وهذا كلّه من شأنه الأخذ بعقل وقلب القارئ إلى العمل الدؤوب لفهم النصّ واستيعاب مكوّناته الصغرى والكبرى. والقادم من هذا المبحث القنّي حول هذا الموضوع نفرده لبعض الابتداءات في مقامات الكتّاب الجزائريّين القدامى مثل " ابن محرز الوهراني" في مناماته ، و"ابن ميمون الجزائري" في كتابه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية) المتخصّص في فنّ المقامات فقط ، و " عبد الرزّاق ابن حمادوش الجزائري " في رحلته من الجزائر إلى بلاد المغرب.

1 – الابتداء في مقامات "ابن حمادوش":

1 / 1 – نصّ الابتداء في المقامة الأولى : يقول فيه "ابن حمادوش الجزائري" ((الحمد لله، طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدّة الإياس إلى بلاد مكناس،

167 – خليل شكري هيّاس، سيرة جبرا الذاتية منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2002م . ص 56.

أخوض الغمار لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار. وكنت لقفت من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أنّ الخطر غرور، وأنّ المسافر مبرور)). [168]

– الحمد لله: هي الجملة الأول التي استهلّ بها "ابن محرز" مقامته، وهذه ظاهرة دينية، وأخلاقية كان يلتزم بها القدماء فييما يكتبون من رسائل وخطب وتوقيعات ووصايا ، وكذلك في أحاديثهم، ، لقد كانوا ((يستفتحون بحمد الله سبحانه في الخطب ... وفي كلّ أمر له بال ، حتّى إنّهم سمّوا الخطبة التي لا يحمد الله فيها سبحانه بتراء وقطعاء)) [169]. وقد كان الخطباء والمؤلّفون يسيرون في ذلك على هدي الإسلام ، فأوّل آية في فاتحة كتاب الله تعالى هي الحمدلة، وبها يستهلّ المسلم توجّهه إلى ربّه، ويردّدها سبع عشرة مرّة في الفرائض . وفي الحديث الشريف إنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: " كلّ أمر ذي بال لا يبتدئ فيه بالحمد فهو أبتر " ، فكأنّ العرب لما يستفتحون كتبهم بالبسملة والحمدلة يريدون بذلك أن تحاكي القرآن الكريم .)) [170] ، كذلك اهتدى الكثير من العلماء والكتّاب أن يستفتحوا أحاديثهم بحمد الله عزّ وجلّ اقتداء بما ورد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال في خطبة المعروفة بخطبة الحاجة، يقول فيها : ((إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا

168 – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة : لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 71 .

169 – ابن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام. تحق محمد رضوان الداية. دار الثقافة بيروت لبنان 1966 م.ص 55.

170 – يوسف الإدريسي، عتبات النصّ في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر. ط / 1 . الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لينان. 1436 هـ – 2015 م . ص 29.

شريك له ، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله. إنّ أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار ...))[171] ، وذلك يرد خاصّة في الخطب والعقود والكلام في المناسبات الهامّة.

1 / 1 / 2 – المعجم الفنّي :

اقتبسنا هذا المصطلح النقدي من كتاب القصة الجزائرية المعاصرة للناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض". لم يقدّم له تعريفا، لكنّه بادر مباشرا دراسته في مجموعة من القصص لكتّاب جزائريّين. من القسم التطبيقي عمله فهمنا أنه يريد بالمعجم الفنّي مختلف المفردات منفردة ومجتمعة، أفعالا وأسماء وحروفا ، يدرسها فيجانب أو أكثر من الجوانب التالية: التكرار، الإبداع والتقليد، المصادر والتأثر، مواطن الجمال والخلابة فيها، صلاتها بالواقع والخيال، التصوير والإيحاء فيها، دلالاتها ومقاصدها[172]. فالمقصود بالمعجم الفنّي ((هو التميّز الذي يميّز النصّ الإبداعي بمجموعة من الخصائص الفنّية التي يتفرّد بها. أو يجب أن يتفرّد بها على الاقلّ. كلّ مبدع في أيّ لغة وفي أيّ أدب)) [173]. وقد وجدنا أنّ هذه المفردات المكوّنة للبنية النصية في الابتداء من المقامة المكتوبة من قبل ابن حمادوش الجزائري يمكن لنا تقسيمها إلى ثلاث حقول دلالية بارزة، هي وفق التالي :

171 – الحديث رواه رالترمذي والنسائي وأبو داوود بسند عن عبد الله بن مسعود.

172 – ينظر : عبد الملك مرتاض، القصّة الجزائرية المعاصرة. المئسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1990. من ص 135 إلى ص 184.

173 – عبد الملك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري، دراية تشريحية لقصيدة أشجان يمانية . دار الحداثة للطباعة والنشر واتوزيع، لبنان . بيروت. ط / 1 . 1986 . ص 246.

– الحقل الأوّل:

قبل التفصيل في هذا العنصر عند "ابن حمادوش الجزائري" لا بأس من الإشارة إلى مفهومه ، ((الحقل الدلالي و الحقل المعجمي هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها . مثال ذلك كلمة الألوان في اللغة العربية. فهي تقع تحت المصطلح العام لون ، وتضمذ الفاظا مثل : أحمر، أصفر، أخضر، ابيض ... الخ))[174] ، فهو مفردات متّسقة من حيث المعنى والغاية. ومكوّنات هذا الحقل: الإشارة إلى الأمل: لأجتني الثمار، لكي أدرك الأوطار، السفر مبرور.

– الحقل الثاني:

– تصوير العسر الصعوبة: ضيق الأسباب، هوى الاكتساب، شدّة الإياس، أخوض الغمار، أقتحم الأخطار، الخطر.

– الحقل الثالث:

– الحكمة ومصدرها (لقفت، أفواه العلماء، وصايا الحكماء، الخطر غرور، المسافر مبرور).

1 / 1 / 3 – عناصر الابتداء من الوجهة النحوية:

أ – الأدوات:

174 – أحمد مختار عمر، علم الدلالة . عالم الكتب، القاهرة ، مصر. ط / 5 . 1998. ص 79.

– حروف الجرّ: لـ ، بـ ، إلى ، من، إلى ، لـ ، لـ ، من . وحروف العطف : وهوى ، إلى ، من شدّة ، وأقتحم ، وكنت ، ووصايا، وأنّ . وهذه الأدوات اشتركت في تحقيق غايات كثيرة ومن بينها تحقيق الانسجام والترابط ما بين عناصر الابتداء.

– حروف التوكيد: أنّ، أنّ. والتوكيد ((لفظ يراد به تمكين المعنى في النفس، وإزالة الشكّ عن الحديث أو المحدث عنه))[175]، وقد ورد في قول صاحب المقامة (أنّ الخطر غرور)، وفي قوله للفمرّة الثانية (أنّ المسافر مبرور)[176] .

ولا بدّ من الإشارة أنّ العطف بين الجملتين عند البلاغيين يسمّى " الوصل "[177] ، فجملة (وهوى الاكتساب)، موصولة بما قبلها لاتفاقهما في الأسلوب الخبري. وجملة (وأقتحم الأخطار) فقد وصلت بما قبلها لتوافقهما من الناحية الخبرية كذلك . أمّا الجملة الأخيرة (وكنت لقفت من أفواه العلماء، ...) فقد جاءت موصولة بحرف الواو العاطف مع ما قبلها لوجود الجامع أو المناسبة التامّة [178] بينهما.

175 – ابن عصفور ، المقرب. تحقيق أحمد عبد الستّار، وعبد الله جبوري. إحياء التراث الإسلامي. ص 338.

176 – أنّ عند البلاغيين تندرج في مؤكدات الخبر وفي التقييد بالنواسخ. وعند النحاة تندرج في أخوات إنّ .

177 – الوصل: باب من أبواب البلاغة في علم المعاني . ويدرس دوما مقترنا بموضوع الفصل. والفضل في الاسيس لهذين الموضوعين يرجع إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز "، ((عرّفه علماء البلاغة بأنّه عطف جملة على جملة أخرى بحرف العطف الواو)) عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في علم المعاني. مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية. الأسكندرية، مصر. د ت . ص 197.

178 – العبارتان: الجامع والمناسبة مصطلحان يوظّفهما علماء البلاغة في بيان مواضع الالوصل والفصل ويوردانهما بمعنى الرابط والعلاقة والقاسم المشترك الواقع بين الجملتين أو الجمل. ينظر: – عبد المتعال الصعيدي،الناشر مكتبة الآداب القاهرة، مصر. ط / 2. 1423 هـ – 2002 م . البلاغة العالية علم المعاني. ص 107، 108، 109، 110، 111.

ب – الجمل:

– الجمل الفعلية: ((هي التي يكون المسند فيها فعلا سواء تقدّم هذا الفعل أو تأخّر. والفعل كما هو ثابت في نصوص اللغة وقواعدها قد ورد لازما كما ورد متعدّيا، وكذلك جاء على صورته الأصلية أي مبنيا للفاعل، كما جاء على غير هذه الصورة أي مبنيا لغيره. والفعل اللازم قد يحتاج إلى مكمّلات وقد يستغني عنها، أمّا الفعل المتعدّي فإنّه يحتاج بالضرورة إلى مفاعيل فضلا عمّا قد يحتاج إليه بدوره من ببقية المكمّلات أيضا))[179]. هناك ستّ جمل فعلية أصلية: (طحى ، هوى، خطرت، أخوض، أقتحم، كنت).

كما هناك جمل فعلية فرعية: "أجتني" في محلّ جرّ مصدر مؤوّل اسم مجرور تقديره: اجتناءِ . "لكي أدركَ" سُبق بلام التعليل وكي الناصبة ، هذه الجملة من الفعل المضارع والفاعل الضمير المستتر في محلّ جرّ مصدر مؤوّل اسم مجرور تقديره: إدراكِ) ، "لقفت" جملة فعلية في محلّ نصب خبر كان . وتمام هذه الجملة الفعلية ذات الصبغة الأسلوبية الخبرية هو: (لقفت من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أنّ الخطر غرور، وأنّ المسافر مبرور). والجمل الفعلية من أهمذ خدماتها في الكلام التجدّد بالعودة والتكرار، والحدوث بالإنشاء والإيجاد، وكذلك الإضهار والإبرار .

– الجمل الاسمية: ((يستخدم مصطلح الجملة الاسمية في التراث النحوي للإشارة إلى أنواع متعدّدة من الجملة العربية، تجتمع معا في أن يتصدّرها الاسم مع وقوعه ركنا إسناديا فيها،

179 – علي أبو المكارم، الجملة الفعلية . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، مصر. ط / 1 . 1428 هـ – 2007 م . ص 37.

ومقتضى هذا التصور الذي يشيع بين النحاة أنّه لا عبرة في التصدير بالعناصر غير الإسنادية التي لا تقع ركنا من أركان الجملة سواء أكانت أسماء أم أفعالا أم حروفا.

وتتكوّن الجملة الاسمية عند التحاة من مبتدأ وخبر، أو مبتدأ ومرفوع سدّ مسدّ الخبر، أو كان أصله المبتدأ والخبر، وبذلك تكون الجملة الاسمية عند النحاة إطارا يضمّ في حقيقته أنماطا متنوّعة الصياغة والمكوّنات مختلفة الروابط والعلاقات)) [180] .

– الحمد لله: جملة اسمية تامّة، تتكوّن من المبتدأ المرفوع (الحمدُ)، ومن شبه الجملة من حرف الجرّ ولفظ الجلالة في محلّ رفع خبر.

– أنّ الخطر غرور: جملة اسمية تامّة من اسم إنّ المنصوب، ومن خبرعا المرفوع. وهي جملة فرعية في محلّ نصب مفعول به.

– وأنّ المسافر مبرور: جملة اسمية تامّة من المسند إليه: اسم أنّ المنصوب (المسافر)، ومن المسند خبرها المرفوع (مبرور). والجلة الاسمية من مهامها في الكلام إلحاق وإسناد شيء لشيء آخر أي إثباته والحكم به على الآخر.

1 / 1 / 4 – من الوجهة البلاغية:

أ – أساليب المعاني:

– الأسلوب الخبري: كلّ الجمل الاسمية والفعلية الواردة في نصّ الابتداء أوردها صاحب الرحلة "ابن حمادوش" في ثوب أسلوبي خبري، لا وجود فيه للأساليب الإنشائية . ولعلّ هذا

180 – علي أبو المكارم، الجملة الاسمية. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، مصر. ط / 1 . 1428 هـ – 2007 م . ص 17، 18.

الإخبار يتلاءم مع رغبته في إعلام القارئ بالأوضاع التي كابدها من معيشة وسفر وتعرّضه لمختلف المهالك والمشقّات التي تطلّبت منه مقاومة وعزما من أجل تجاوزها وتخطّيها للحصول على واقع اجتماعي حسن.

ومن مقاصد الأساليب الخبرية الموظّفة من طرف صاحب المقامة: إظهار الرضى بقدر الله عزّ وجلّ، إبراز الجرأة على تغيير الأحوال واستبدالها بما هو أفضل وأجود، إلى جانب ذلك الإبانة عن طموحه في جني الثمار وتحقيق الأوطار. والإخبار هو ((الكلام المحتمل للصدق والكذب)) [181]، كما هو ((القول المقتضي بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم ، بالنفي أو الإثبات . ومن حدّه بأنّه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمه الدور ؛ ومن حدّه بالمحتمل للتصديق والتكذيب المحدودين بالصدق والكذب واقع في الدور بمرّتين)) [182]. فالخبر محتمل للصدق والكذب، وهو إلحاق شيئ بشيء آخر .

- الإيجاز بالقصر[183]:

إذا دقّقنا النظر جيّدا في مختلف العبارات التالية : (الأسباب، الإكتساب، الغمار، الثمار، الأخطار، الأوطار) فإنّنا نجدها كلمات مفردة معرّفة بالالف واللام ومنها الواردة بصيغة المفرد

181 - علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات . ضبطه وفهرسه محمد بن عبد الحكيم القاضي ، دار الكتاب المصري القاهرة و دار الكتاب اللبناني بيروت . ط / 1 . 1991 .. ص 110

182 - فخر الدين الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز . تحقيق سعد سليمان حمودة . ط 2003 . دار المعرفة الجامعية . مصر . ص 69 .

183 - الإيجاز بالقصر: ((الاتّساع في المعاني المراد التعبير عنها مع الاختصار في الألفاظ المعبّر بها)) محمود شاكر القطّان، الإيجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية . 1410 هـ – 1989 م . دار الطبع جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنوّرة السعودية. ص 11.

والجمع ، ومنها من جنس المذكّر والمؤنّث ، وهذا الإفرد الذي قدّمت به لم يمنع من احتوائها وحملها للمعاني الكثيرة ، وتضمّنها الدلالات عديدة . فكلمة (الثمار) يفهم منها المال والأكل والشراب والمبيت، ويفهم منها المسجد، العلماء، الكتب، ويفهم منها كذلك الراحة، والقرار والهناء. وبالنسبة لكلمة (الأخطار) بدورها يستخلص منها مقاصد عديدة، مثل الفقر والحرمان وضيق الحال والمعيشة، والجزع والخوف والاضطراب. لذا قلنا أنّ مثل هذه العبارات تدخل في إطار أسلوب بلاغي سمّاه العلماء الإيجاز بالقصر.

ب – الصورة البيانية :

– الصورة التشبيية:

لم يهمل أصحاب المقامات هذا الشكل الفنّ التصويري ((لقد شكذل هذا النوع من البيان أحد المكوّنات الأسلوبية الهامّة في متن المقامات ، حيث لجا النصذ –كعادة المقاميين – ليرسم الاشياء من زاوية نظره ، وليبلور الأحداث ، واضعا نصب عينيه استعمال المعطى الجمالي القائم على تعميق الدلالة ، وعلى استحضار الأبعاد الفنية بواسطة اختيار كلمات دن أخرى من منطلق الخبرة بعلاقات السياق وتوظيفها في بناء في بناء الأسلوب))[184] كي يثير القارئ ويمتعه بلغة أنيقة راقية .

وردت في قول "ابن حمادوش" : (الخطر غرور). وهذه العبارة جزء من الحكمة التي اقتبسها من العلماء والحكماء. الخطر هو كلّ ما يؤلم الإنسان ويؤذيه وينال منه، مثل المصيبة

184 – غربي شميسة، بناء المقامة عند ابن ميمون من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، دراسة. ص 125.

والشدّة، المكروه والخطب. والغرور هنا الخداع والهلاك. شبّه صاحب المقامة (الخطر) بالغرور . فالاوّل هو المشبّه والثاني هو المشبّه به، ولا يوجد أثر لأداة التشبيه ولا بوجه الشبه، فالتشبيه هنا بليغ. ومن دلالات هذه الصورة التشبيهية أنّ الأخطار والمصائب والكوارث فخّ يعرّض صاحبه للهلاك والدمار، ومِصيدة توقع بالواقع فيها السوء والضرر. ويفهم كذلك من هذه الجزء من الحكمة أنّ ابن حمادوش متفطّن لمآلات الخطر، وعواقبه الجسيمة.

– الصورة الاستعارية:

هذا النمط من أساليب التصوير حضر بدوره في لغة المقامات ، ((وتتابع المقامات حافلة بهذا النوع من المجاز ، حيث تتراكم الاستعارات في متتاليات خاضعة لقانون انتهاك المألوف ، فإذا بالمتنا المقامي يقع تحت سلطة الرصيد المجازي الذي ينمّي إسقاط خصائص المحسوس عل خصائص المجرّد))[185] فتتشكّل الصور بالألوان والحركات.

وردت في قول "ابن حمادوش" : (هوى الاكتساب). والفعل هوى هنا بمعنى ضعف وسقط ومات. والاكتساب هو كل ما انجرّ عنه ربح واستجلب منه نفع مثل التجارة أو معاملة اقتصادية . شبّه فيه التعبير الكاتب التجارة والاكتساب بالشيء الذي يسقط مثل الإنسان المريض أو الضعيف، أو الشيئ الذي يُرمى به لعدم نفعه وزال ربحه، إلّا أنّه عدل عن التشبيه الصريح. أبقى على المشبّه (الاكتساب)، وحذف المشبّه به وأبقى على أحد لوازمه وصفاته (هوى)، والفعل ممصدره (الهُوي) أي السقوط من الأعلى. ولذلك كانت هذه الصورة استعارة

185 – غربي شميسة، بناء المقامة عند ابن ميمون من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، دراسة. ص 123.

مكنية. من معانيها تصوير واقع التجارة وحال العمل في الأسواق ومع الناس، وأنّها سقطت وماتت مثل ما يسقط الطير الضعيف أو الميت من المكان العالي. ومن معانيها أنّ الفقر حلّبه والبطالة أحاطت به.

وهذا النوع من الاستهلال الذي ساقه "ابن حمادوش" يسمّيه بعض النقاد المعاصرين باسم " الاستهلال الواقعي "، الذي ((هو الاستهلال الذي يكون فيه المستهلّ شخصا واقعيا مثل كاتب العمل لاويسمّى الاستهلال التأليفي)) [186] , وهذا ينطبق على الابتداء السابق فهو واقعي وليس استهلالا خياليا مبتدعا سيق لتحقيق غرض ما.

2 – الابتداء في مقامات " ابن محرز الوهراني":

2 / 1 – نصّ الابتداء في المقامة الأولى، هو وفق ما يلي : ((قال الشيخ ركن الدين محمّد بن محمّد الوهراني المغربي عفا الله عنه يصف بغداد المحروسة وسفرته إليها ويمدح الخليفة. قال الوهراني لما تعذّرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاق الأدب رضاعتي. فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته، ولا وزيرا إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلّا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه)) [187].

186 – عبد الحقّ بنعابد ، عتبات جيرار جينت (من النصّ إلى المناص). الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان. منشورات اختلاف الجزائر، الجزائر 1429 هـ – 2008 م . ص 116.

187 – محمد بم محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. ص 1.

2 / 1 / 1 – مقولة: (قال الشيخ ركن الدين محمّد بن محمّد الوهراني المغربي عفا الله عنه يصف بغداد المحروسة وسفرته إليها ويمدح الخليفة. قال الوهراني) : يمكن إدراجها في إطار ما سمّاه علماء الحديث بمصطلح الإسناد الذي نخده في كتب الأحاديث وبعض كتب التفسير ومصادر الأدب واللغة والنحو – وقد سبق أن وقفنا عند هذا الأسلوب – وهذه الطريقة العلمية معتمدة من حين لآخر في المقامات عند الأديب "ابن ميمون الجزائري " وعند غيره من المتخصّصين في فنّ كتابة المقامات .

2 / 1 / 2 – التكرار

أ – تكرار الجمل الفعلية :

– لما (تعذّرت مآربي): هذه جملة الفعلية مكوّنة من الفعل الماضي المبني (تعذّرَ)، وتاء التأنيث الساكنة التي لا محلّ لها من الإعراب (تْ)، والفاعل (مآربي)، وقد اتّصل هذا الفاعل بضمير الإضافة (ي)، فهو معرّف بها.

– (واضطربت مغاربي): جملة معطوفة على جملة الأولى (تعذّرت مآربي) بواسطة حرف الواو. وتتكوّن من الأركان الإعرابية نفسها التي تتكوّن منها السابقة، (فعل ماضي، تاء التأنيث الساكنة، القاعل، والمضاف إليه).

– (ألقيت حبلي على غاربي): وقد استقاه صاحب المقامة من كلام العرب المأثور انطلقت حرّا من كلّ قيد ومتحرّرا من أيّ التزام، وغير مرتبط بشيء ما، فلا حاجز يحول بيني وبين رغبة أرغبها أو حاجة أريدها، فلا عائق يمنعني من التوجّه إلى أيّ مكان.

– (وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي) : جملة فعلية مكوّنة من الفعل (جعلْـ)، وضمير الكتكلّم المتّصل في محلذ رفع فاعل. " مذهّبات الشعر " هي شعر المعلّقات الجاهلية. وهنا تشبيه بليغ بحيث شبّة المعلّقات بالبضاعة. أي أبيع وأشتري بالشعر أشتري به القلوب والعقول، وأتكسّب به لنيل أوطاري وتحقيق أغراضي. وفي هذا التعبير كذلك صورة بيانية أخرى. وهي صورة كنائية. يفهم منها المعنى الأوّل وهو درايته بالشعر الجاهلي في معلّقاته المشهورة. كما يفهم منها المعنى الثاني وهو معرفته بالشعر العربي القديم الإسلامي منه والأموي والعباسي والأندلسي. وهي من نوع الكناية عن موصوف .

– وباقي الجمل الفعلية هي : فما (مررت) بأمير، إلّا (حللت) ساحته، و(استمطرت) راحته، (قرعت) بابه، و(طلبت) ثوابه، (أخذت) سيبه، و(أفرغت) جيبه. ونلاحظ أنّ الفعل في الجمل السالفة قد ورد في زمن الماضي. أمّا الفاعل فهو واحد في مبناه لم يتغيّر ، حاضر في الضمير المتّصل التّاء (تُ) العائد على المتكلّم وهو صاحب المقامات ابن محرز الوهراني.

ب – تكرار حرف الواو:

– (واضطربت مغاربي، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاق الأدب رضاعتي.) نجد الواو المتّصلة بالفعل الأول معطوف على الجملة الاستئنافية التي سبقتها. والواو الثانية المتصلة بالفعل (جعلت) واو العطف كذلك مثل التي سبقتها. والواو الثالثة واو عطف متّصلة بالفعل المحذوف المقدّر بالفعل (جعلت)، وبعد الحذف المقدّر هذا هي ملتصفة بجرف الجر (من).

– (فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته): الواو التي اقترنت بالجملة (استمطرت) جعلت من هه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها (حللت ساحته) ، وهي الواقعة الواقعة بعد أداة الاستثناء (إلّا).

– (ولا وزيرا إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه): الواو الأولى هنا معطوفة على الجملة المركبة السابقة (فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته). والواو الثانية المتصلة بالفعل (طلبت) معطوفة على جملة (قرعت بابه).

– (ولا بقاض إلّا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه): الواو الأولى معطوفة على الجملة المركبة[188] الثانية (ولا وزيرا إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه). والواو الثانية المقترنة بالفعل (أفرغت) معطوفة على جملة (أخذت سيبه) .

الواو هنا عند النحاة حرف عطف ورد بعده جملة هي تابعة لما قبلها من الناحية الإعرابية. وعند البلاغيين فقد قامت الواو بوظيفة الوصل بين الجمل مادامت كلّها ذات طابع خبري غير طلبي.

2 / 1 / 3 – عناصر القصّ في الابتداء:

لا يخفى على دارسي الفنون القصصية القديمة والحديثة أنّ المقامة فنّ منها. وذلك لتقاطعها مع الحكاية والقصّة والأقصوصة، والرواية، وأدب السيرة، والحكاية الشعبية في العديد من العناصر ،

188 – الجملة المركّبة نقصد بها الجملة الكبيرة التي تحتوي على عدّة جمل، في مقابل الجملة البسيطة التي تضمّ جملة واحدة فقط أسمية أو فعلية.

مثل الزمان والمكان والأحداث والشخصيات وباقس المكوّنات . وقد لاحظنا أن المقامة بوصفها نوعا من القصّ تحتوي على عدّة مقاطع قصصية، منها الابتداء. يشكّل هذا الأخير مقطعا قصصيا بارزا وذلك لكونه يتضمّن على عدّة مقوّمات قصصية . نذكر منها مايلي:

أ – المكان : هناك أمكنة في هذا المقطع القصصي الابتدائي. المكان الأوّل موجود وقائم لكن غير مصرّح به. ولم يعيّنه الراوي كاتب المقامة. ونقصد بذلك المكان الذي كان موجودا فيه أثناء تعذّر المآرب واضطراب المغارب. المكان الثاني مثل الأوّل لم يكشف عنه لراوي وتركه مطويا ومستورا ، وهو ذلك المكان الذي صرّح فيه بما يلي: (ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاق الأدب رضاعتي). وهو المكان الذي حدث منه الانطلاق والسعي ليحصل على مبتغاه . أمّا باقي الأمكنة فهي المرتبطة بوجود الأمراء والوزراء والقضاة، فهي إمّا تكون في الدور التي يعملون ويشتغلون بها أو المانازل والساحات التي يملكونها ويسكنونها، والعبارات الدالة على ذلك: (ساحته، بابه، إقامة القضاة).

ب – الزمان : حدّدت الزمان في هذا المقطع كلمة (لما) التي وردت في اللعبارة التالية: (لما تعذّرت مآربي، واضطربت مغاربي)، ولما لها عدّة معاني في اللغة العربية منها معنى الظرفية الزمانية مثل " حين "[189] أي " وقت " و " زمن " . وهو الزمن الذي ضاقت سبل العيش وشقّت صروف الدهر ونوائبه على "ابن محرز الوهراني"، فكان الزمن زمن الحرمان والغبن، زمن العجز عن تحقيق الغايات والأماني، وعدم القدرة على الوصول إلى ما يبتغيه ويشتهيه.

189 – ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب. ج / 1. تح محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية بيروت، لبنان. 1327 هـ – 2006 م . ص 309.

ت – الشخصيات:

في هذا المقطع الابتدائي نجد عدّة شخصيات، منها الشخصية الأولى، وتتمثّل في الراوي " ابن محرز الوهراني " صاحب المقامة، وشخصيات أخرى منها من الطبقة السياسية والإدارية الحاكمة والمسيّرة لشؤون البلاد ، مقل الوزراء والأمراء، والقضاة، وكلّها شخصيات ذات شأن كبير ومقام عظيم، تتقاضى أجورا عالية من المال فهي غنية الحال ، وهذا هو الدافع الرئيسي الذي دفعه إلى التوجّه نحوها طمعا وأملا في الحصول على البعض أو القليل ممّا يوجد بيدها الأموال والسلطة والنفوذ. وإذا أردنا ترتيبها حسب قيمة الدور التي تؤدّيها فهي كالتالي:

– شخصية "ابن محرز"

(الراوي): هذه يمكن اعتبارها شخصية محورية وأساسية. والسبب في ذلك أنذ الزمان مرتبط بها، والمكان متعلّق بها، والأحداث من إنشائها، والشخصيات الأخرى متواصلة معها. فهي التي صنعت هذه البداية القصصية في مختلف عناصرها المكوّنة لها.

– الشخصيات الأخرى المذكورة هي: شخصية الأمراء (فما مررت بأمير)، شخصية الوزراء (ولا وزيرا)، شخصية القضاة (ولا بقاض). فهو لم يتّصل بواحد من كلّ هؤلاء، بل اتذصل بأمراء ووزراء وقضاة ، والعبارة الدالة على ذلك قوله (فما مررت بأمير)، فهي الذتي دلّتنا على أنّ كلّ طائفة منهم جمع وليس بالواحد. وهدا لنوع من الشخصية يمكن أن نصفه بالشخصية ثانوية وفرعية، ليست ذات أثر كبير في القصّ. فهي شخصيات وقع التواصل بينها

وبين الشخصية المحورية ، وكانت سببا في ظهور أحداث متعلّقة بالاتصال بهم وأخذ الأموال والحاجات منهم جميعا.

والشخصية المحورية التي تناولناها سالفا ينطبق عليها قول الناقد ((لا أحد من المكوّنات السردية الأخراة يقتدر على ما تقتدر عليه الشخصية. فاللغة وحدها تستحيل إلى سمات خرساء فجّة لا تكاد تحمل من الحياة والجمال. والحدث وحده في غياب وجود الشخصية يستحيل أن يوجد في معزل عنها، لأنّ هذه الشخصية هي التي توجد وتنهض به نهوضا عجيبا . والحيّز يخمد ويخرس إذا لم تسكنه هذه الكائنات الورقية العجيبة: الشخصيات.))[190]

ث – الأحداث : يمكن القول بأنّ أبرز الأحداث التي وقعت في المقطع القصصي في الابتداء المشار إليه سالفا قد سارت وقدّمت في ثلاثة محاور ظاهرة هي:

– المحور الأوّل: (تعذّرت مآربي، واضطربت مغاربي،) وهي أحداث ذات طابع نفسي شعوري.

– المحور الثاني: (ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاق الأدب رضاعتي) هذه الأحداث تتسم بالحركة والانتقال من السكون إلى أعمال وتصرّفات يستعدّ بواسطتها ويتوسّل بها، ويمهّد بها جميعا من أجل تحقيق أحداث قادمة، حاسمة ومصيرية.

– المحور الثالث : (فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته، ولا وزيرا إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلّا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه) هذه الاحداث هي الأحداث الكبرى والأحداث الأخرى السابقة لها صغرى توصل وتمهّد وتهيّء. لأنّه لما أخذ من الأمراء

190 – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد . دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران. الجزائر. 2005 م . ص135.

ونال من الوزراء وحصل من القضاة الأموال ومختلف لاالحاجات يكون بذلك قد حقّق هدفه الأكبر وأمنيته المادية التي بها سيقضي على الخيبة والحرمان.

ج – الوصف :

هذه الأداة استعملها الراوي الشخصية الرئيسية في عرض أحوال الغبن والتعاسة التي كان يعيشها ، وكذلك في إبراز الأسلحة التي تسلّح من ةأجل بلوغ غاياته مع مختلف الشخصيات الحاكمة، والعبارات التي تهدينا غلى ذلك : (بها لما تعذّرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاق الأدب رضاعتي.)

ح – التصوير :

ومن جهة أخرى استعانت شخصية ابن محرز الوهراني بوسيلة التصوير، وتتمثّل هذه الوسيلة التصويرية في قول صاحب المقامة : (فما مررت بأمير إلّا حللت ساحته، واستمطرت راحته، ولا وزيرا إلّا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلّا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه) . وفي هذه النصوص ألوان من الصور البيانية مثل المجاز (أخذت سيبه)، والتشبيه (استمطرت راحته)، والكناية (أفرغت جيبه). وفي هذه الصور نجد الحركة والطلب والأخذ والحرص.

3 – الابتداء في المقامة الخامسة عشر " لابن ميمون ":

3 / 1 – نصّ الابتداء:

كتب فيه "ابن ميمون" ما يلي : ((ولما فرّ من المدينة الكفرة، وزعموا أنّهم ناؤوا عن الذّلّ والمحقرة، وأنّهم إذا تفاقم عليهم الأمر يفرّون في البحر، فذهبت السفن من عندنا تحاصرهم والمسلمون في البرّ تطاردهم. وهذا الحصن عظيم البنا وكأنّه مدينة للسكنى. ولم يتأتّ الوصول إليه إلّا على طريق واحدة والأمم تذهب وتأتي إليه بائدة. وبإزائه حصن صغير للحرب أعدّوه فتعلّق به المسلمون ففتحوه ، وتحيّر المسلمون لطول مكثه حتّى أيسوا من فتحه، فأمر أبو الفتوح باللغم أن يحفر، من جهة البحر...))[191]، هذا نصّ الابتداء يحتوي على فنون بديعية مختلفة مثل الطباق والمقابلة والجناس والسجع. وهذا الأسلوب البقديعي الأخير هو محلّ اهتمامنا في هذا المبحث.

3 / 1 / 1 – السجع :

هذا الأسلوب البلاغي البديعي عَرّف ((في اللغة الكلام المقفّى، أو موالاة الكلام على روي واحد، ويجمع على أسجاع وأساجيع، وهو مأخوذ من قولهم سجعت الحمامى وسجع الحمام هو هديله وترجيعه لصوته.)) وفي الاصطلاح هو تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو حرفين متقابلين، أو حروف متقاربة.))[192]. وأسلوب السجع دراسه المتقدّمون ضمن مختلف أساليب البلاغة العربية ولم يميّزوه عن غيره من الأساليب. وقد تناوله العديد من علماء البلاغة مثل ابن سنان، ابي هلال العسكري، ابن الأثير، عبد القاهر الجرجاني. في مرحلة

191 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 245.

192 – محمد شعبان علوان، و نعمان شعبان علوان ، من بلاغة القرآن المعاني البيان البديع. ط / 2 . 1998 م . الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر. 278.

تالية لهؤلاء صَنّف ضمن علم البديع في المحسنات اللفظية، كما سلك في ذلك "بدر الدين ابن مالك، ومحمد بن محمد علي الجرجاني، والخطيب القزويني" .. وآخرين.

وقد التفتت الناقدة " غربي شميسة " إلى هذا الشكل الفنّي البديعي عند " ابن ميمون الجزائري " فبيّنت ((عند دراستي لمقامات ابن ميمون وجدتها ترفل في بني موقعة تستند على الفاظ منتقاة وتصطنع جملا مسجوعة ، متماثلة – في الغالب – متوازية بعضها مع بعض في البناء وطرائق الإخراج))[193] وتوظيف الناقد في نصّها عبارة (يرفل) يفضي بنا إلى الاهتمام الكبير الذي أولاه صاحب المقامات لهذا الاسلوب البديعي الصوتي.

ومن جهتنا سجّلنا أسلوب السجع موظّفا في الابتداء مثل سائر أقسام المقامة والمقامات الأخرى في كتاب ابن ميمون " التحفة المرضية ". وقد بادرنا لتسجيل بعض الملاحظات حوله. من هذه الملاحظات أنّنا وجدنا أنّه قد استعمل بطرق مختلفة منها :

أ – السجع المطرّف : نلاحظه في الكلمات (الأسماء والأفعال) الآتية :

(يحفر / البحر) ، (أعدّوه / ففتحوه) ، (البنا / للسكنى) ، (الكفرة / المحقرة) . والسجع المطرّف ((هو ما اتّفقت أعجاز فواصله في نوع الحروف فقط واختلفت في عددها ووزنها ، كقوله تعالى ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ سورة نوح / الآية 13، 14. [194] فما بين كلمتي (كفرة ، محقرة) اتفاق في الروي وهو حرف الراء، مع

193 – غربي شميسة، بناء المقامة عند ابن ميمون من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، دراسة. ص 145.

194 – بكري الشيخ أمين. البلاغة في ثوبها الجديد ، علم البديع. دار العلم للملايين، بيروت، لينان. ط / 1 . 1987.

الاختلاف في الوزن، فوزن الأولى (فَعَلَةٌ)، ووزن الثانية (مَفْعَلَةٌ). وعدد حروف الأولى أربعة، وعدد حروف الثانية خمسة. لهذا كلّه كان اسم السجع المطرّف.

ب – السجع المتوازي : من البلاغيين الأوائل الذين ميّزوا بين أنواع السجع المختلفة في القرن السادس الهجري نذكر العالم المتعدّد المواهب والاختصاصات فخر الدين الرازي[195]، الذي عدّ السجع المتوازي نوعا من أنواع أسلوب السجع، وقد عرّفه بأن ((تكون الكلمتان متساويتين في عدد الحروف ، وفي نوع الحرف الأخير ... كقوله تعالى ﴿ فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ﴾ [196] سورة الغاشية / الآية 13، 14. هذه نماذجه المذكورة في الابتداء من الأفعال والأسماء ، (مكثه / فتحه) ، (واحدة / بائدة) ، (تحاصرهم / تطاردهم) ، (أمر / بحر) . الأمر / البحر) .

هذه الأسجاع المتنوّعة لا شكّ أنّها أطربت سمع القارئ ومشاعره بإيقاعاتها الصوتية الجميلة الساحرة. وحوّلت النصّ إلى قطعة موسيقية يتغنّى بها من قرأها، وجعلت منه نشيدا ترتفع

195 – من مؤلّفاته: التفسير المبير أو مفاتيح الغيب، المحصول في علم أصول الفقه، لوامع البيّنات شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، تهلية العقول في دراية الأصول، ذمّ الدنيا، مناقب الإمام الشافعي، فضائل الصحابة، شرح كتاب المفصّل للزمخشري في النحو، شرح ديوان المتنبّي، عجائب القرآن، ...

196 – فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. دراسة وتحقيق سعد سليمان حمودة. 2003 م . دار المعرفة الجامعية. القاهرة مصر. ص 65. ويذكر فخر الدين الرازي للسجع نوعين هما: السجع المطرّف والسجع المتوازي فقط. أمذا الترصيع عنده فهو أسلوب مستقل عن السجع ص 67. بينما يذكر له محمد بن علي بن محمد الجرجاني (729) ثلاثة أنواع : مطرّف ومرصّع ومتواز. ينظر : محمّد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. تحقيق إبراهيم شمس الديندار الكتب العلمية بيروت لبنان. ط / 1 . 1423 هـ – 2002 م . ص 236. وكذلك يصنع الخطيب القزويني . ينظر: التلخيص في علوم البلاغة. دار الفكر العربي . ط / 2 . 1350 هـ - 1932 م . ص 397.

فيه لاالأصوات مع الألحان. ومن بعد ذلك دفعت بالعقول إلى تكرار قراءة النصّ واستخلاص ما ينطوي تحت الأسجاع من معاني وأفكار ومواقف. فالاسجاع هي التي تجعل النصّ يَقبل عليه إقبالا غير الإقبال على النصوص التي تفتقد للإيقاع الصوتي .

وقد أكّد العديد من النقاد في سياق دراساتهم للأساليب البديعية الصوتية مثل السجع أنّه ((وإذا كان للسجع فائدة ونكتة لا تقلّ عمّا ذكروه للجناس، إذ أنّه يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدّر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثّر في النفوس تأثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثّرة والموسيقى القوية، التي تطرب لها الأذن وتهشّ لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها أو يخالطها فتور فيتمكّن المعنى في الأذهان وقرذ في الأفكاروبعزذ لدى العقول، وكان كلذ أولئك ممّا يتوخّاه البلغاء ويقصده ذوو البيان واللسن، كان السجع ممّا يستدعيه المقام وتوجبه البلاغة.))[197]، تلك بعض الوظائف التي يؤدّيها السجع وظائف مرتبطة بالعقل والنفس والأعصاب والآذان، فيتحقّق للأسلوب الذي ورد فيه التمكين والبقاء، ويتحقق له التأثير والنفاذ.

تميّزت اللغة الموظّفة في النصّ الابتدائي السابق بتنوّع الأساليب النحوية مثل الشرط والعطف والتوكيد والنفي، الزمن الماضي والمضارع، وغلبة الجمل الفعلية من جهة، ومن ناحية أخرى اتّسمت بتوظيف مجموعة من الألفاظ المعبّرة عن الوضع الحربي الذي كانت تعيشه وهران وضواحيها آنذاك جرّاء الاحتلال الاسباني الغاشم، مثل: (الكفرة، المحقرة، تفاقم ، تحاصرهم،

197 – أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، مصر. 1388 هـ – 1969 م . ص 496، 497.

تطاردهم ، بائدة، اللغم، يحفر،) كلّ ذلك جعل القارئ يستخلص أنّ ((اللغة انسجام وتناغم ونظام ، واللغة الإبداعية نسج بديع يبهر ويسحر. ولعلّ الأديب الكبير هو الذي يعرف كيف يتلطّف على لغته حتّى يجعلها تتوزّع على مستويات لكن دون أن يشعر قارئه بالاختلال المستوياتي في نسج لغته، وذلك بالإبقاء عليها في مستوى فنّي عام موحّد على نحو ما.))[198]، ومن المعروف أنّ توفيق القدماء في حسن نسج لغتهم يرجع إلى كثرة ما حفظوا من الأدب والقرآن والحديث وعلوم اللغة، وما قرأوا، وسمعوا في الحلقات من الشيوخ والعلماء.

3 / 2 – الابتداء في المقامة الرابعة عشر "لابن ميمون" :

يقول "ابن ميمون الجزائري" في افتتاحه لهذه المقامة : ((ولما بصروا بفتح المدينة تمزّقت قلوبهم بضربة مكينة، وتشاوروا فيما بينهم ، ورأوا أنّ الهلاك يفضي إليهم، لكنّهم أظهروا التجلّد فحاربوا يوم الفتح من المساء إلى الصبح. ثمّ مكثوا هنيهة من الزمان، وطلبوا الأمان جزعا من الموت وأسفا على ما يفقدونه من القوت. وخرج النصارى وصاروا أسارى ، نحو خمسمائة وستّين، وألقوا أسلحتهم ومفاتيحهم في الحين ، وأورث الله المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم. وأخذوا منهم ثأرهم ، وحرس الوطن بوجود الأمير حرس الله جوانب علاه وأعانه وتولّاه فيما ولّاه.))[199].

198 – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية . بحث في تقنيات السرد . دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران . الجزائر . 2005 م . ص 168.

199 – محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. ص 238.

المقامة التي أخذنا منها هذا الابتداء عنوانها ما يلي : (في استفتاح برج الأحمر والجديد وكيف ألقوا لأبي الفتوح المقاليد). سندرس في هذا المقام المتعلّق في الاستفتاح أو الأبتداء أسلوب الجناس الذي وظّفه صاحب المقامة " ابن ميمون " مبرزين نزعه وشواهدة ووظائفه المنوطة به ، وذلك بعدما تناولنا في الابتداء السابق فنّ السجع.

3 – 2 – 1 – الجناس في النصّ الابتدائي للمقامة :

من المتقدّمين الذين وقفوا عند أسلوب السجع الشاعر الناقد "ابن المعتزّ"، فعرّفه موضّحا ((هو أن تجيء للكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، أي أن تشبهها في تأليف الحروف))[200]. وجاء بعده الناقد قدامة بن جعفر فكشف عن طبيعته ((هو أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة، وألفاظ متجانسة مشتقّة))[201]. كما أسهم " أبو هلال العسكري " في الإبانة عن هذا الأسلوب، فقال عنه ((أن يورد المتكلّم كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسب ما ألّف "الأصمعي" في كتاب الأجناس))[202]. ومن البلاغيين الذين أثروا هذا الأسلوب نذكر "ابن سنان الخفاجي" فأفصح عن معالمه ، ((هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقّ من بعض إن كان معناهما واحد ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفا، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى. وهذا إنّما يحسن في بعض

200 – ابن المعتزّ، البديع. تحقيق إغناطيوس كراتشقوفسكي . دار المسيرة . بيروت، لبنان. ط ة/ 3. 1402 هـ – 1982. ص 25.

201 – قدامة بن جعفر ، نقد الشعر. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. د / س. ص 162.

202 – أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. حقّقه وضبط نصّه مفيد قميحة. دار الكتب العلمية بيروت، لبنلن. ط / 2 . 1409 هـ – 1989 م . ص 353.

المواضع إذا كان قليلا غير متكلّف ولا مقصود في نفسه)). [203] هذه التعاريف كلّها أنّ فنّ الجناس أو التجنيس مؤسّس على لفظتين تتاشبه في تركيب الأصوات، ومعان مختلفة تدور حول مبنى لغوي واحد متجانس هذا يشترك مع الآخر.

فنّ الجناس الجناس ظاهرة أسلوبية منتشرة بكثرة في مقامات ابن ميمون الجزائري. وهذا الحضور المكثّف فيما كتب بمكن عدّه اقتداء منه بأصحاب المقامات في المشرق العربي والمغرب العربي والأندلس. وتزداد قيمة الجناس فيما كتب ابن ميمون كونه يعالج في مقاماته مواضيع سياسية وعسكرية خالصة لاعلاقة لها بالقضايا لتعليمية والاجتماعية والأخلاقية. والاقتداء الذي نقصده هنا ليس اقتداء مبنيا على التكلّف والتصنّع بل اقتداء فيه ثمرات جمّة وحسنات لطيفة متعلّقة بالشكل والمضمون.

أنواع الجناس في هذا الابتداء:

1 – الجناس التام: هذا النوع من الجناس نلحظه في قول "ابن ميمون" التالي: ((ولما بصروا بفتح المدينة ... فحاربوا يوم الفتح))

– القسم الأوّل من الجناس: (فتح المدينة): كلمة (فَتْح) في الجملة الشرطية (بصروا بفتح المدينة) يَفهم منها القارئ في إطار نصّ الابتداء النصر على الأعداء والغلبة على الخصوم، وجعل المدينة حرّة طليقة من أيدي المحتلّين الغاصبين الإسبان وهذا المعنى يؤيّده ما أورده ابن منظور حول دلالة كلمة الفتح في الاستعمال العربي والقرآني، ((والفتح افتتاح دار الحرب،

203 – ابن سنان الخفاجي الحلبي، سرّ الفصاحة. تحقيق علي فودة. مكتبة الخانجي القاهرة مصر. ط / 2 . 1414 هـ – 1994 م . ص 183.

وجمعه فتوح . والفتح النصر... وقوله تعالى : ﴿ إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾[204]، قال "الزجّاج" جاء في التفسير قضينا لك قضاء مبينا أي حكمنا لك بإظهار دين الإسلام وبالنّصر على عدوك))[205]. فالفتح هنا يحمل هذا المعنى المشهور المتواتر.

– القسم الثاني من الجناس (يوم الفتح) : كلمة الفتح هنا جاءت مضافا إليه ، لا بدّ أن تفهم كلمة (اليوم) بواسطتها وفي ضوءها، فيصبح المراد اليوم الذي وقع فيه النصر والغلبة، والمعنة هنا واسع جدّا على المعنى الاوّل، فيدخل فيه كلّ ما يحيط بالنصر طيلة اليوم من شروق الشمس إلى غلروبها من استعددات الطرفين لقتال، ومجريات المعارك، وما تلاها من ظروف ونتائج مرتبطة بالطرفي المعركة من المسلمين الفاتحين والبكفرة الغازين المنتهكين للحرمات.

بالاعتماد على الشرحين الذين سقناهما للعبارتين اللتين وردت فيهما كلمة (الفتح)، يمكن أن نستخلص أن الفتح في الجملة الأولى غير كلمة الفتح في التركيب الثاني وذلك يرجع لتعلق كلّ واحدة بلفظه صاغ لها معنى لا يرادف بعضهما البعض. وهذا هو الجناس أو التجنيس المسمّى بالكامل، هذا لا يكفي أن تكون الحروف في طرفي الجناس من جنس واحد بل لا بدّ من التباين في المعنى بينهما .

وهذا الضرب من التجنيس سمّاه "عبد القاهر الجرجاني" المستوفَى ، تحدّث عنه مبرزا ((المستوفى المتّفق الصورة، منه كقوله :

ما مات من كرم الزمان فإنّه ... يحيى لدى يحيى بن عبد الله))[206]

204 – سورة الفتح / الآية 1 .

205 – ابن منظور ، لسان العرب. ج / 10 . ص 190.

وهو عند "الفخر الرازي" المجانسة التامة ((إنّما توجد إذا تساويا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها، كقوله:

لشؤون عيني في البكاء شؤون ... وجفون عينك للبلاء جفون))[207]

يصوّر هذا الأسلوب الجناسي من خلال حضور العبارتين الواقع الذي آل إليه وضع الاراضي الإسلامية المحتلّة وحالة المغتصبين وما حلّ بهم من هزيمة وخزي ومذلّة. فالشقّ الأوّل من الجناس (فتح المدينة) يبرز أنّ المسلمين المجاهدين عاشوا صورة الفتح في قلوبهم ووجدانهم وعقولهم قبل أن يخوضوا معارك الفتح الدامية، والشق الثاني (يوم الفتح) يكشف أنّ المقاتلين المؤمنين الصابرين المحتسبين عاشوا أوقات يوم الفتح بجزئياتها وكلياتها حقيقة وصدقا لحظة لحظة بما حمل لهم من أفراح وأحزان ومن مسرات وبشائر وغموم وأكدار.

2 – الجناس الناقص: ((الجناس الناقص وهو أن يختلفا في في الهيئة دون الصورة. كقولك: البُرد يمنع البَرد. وكقولك: البعة شَرَك الشِّرك، وكقولك : الجهول إمّا مُفْرط أم مفَرِّط))[208] إلى جانب النوع الأوّل من الجناس الذي بيّناه سابقا هناك تجنيس آخر ، مشترك مع

---

206 – عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة. تحقيق عبد الحميد هنداوي. منشورات محمد علي بيضون، لنشر كتب السنة والجماعة. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ط / 1 . 1422 هـ – 2001 م . ص 23 .

207 – فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. ص 57.

208 – أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم. ظبطه وكتب حواشيه وعلّق عليه نعيم زرزور. دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان. ط / 2 . 1408 هـ – 1987 م . ص 429. ويسمّي يحي بن حمزة العلوي المثال التجنيسي الذي سقناه التجنيس المختلف وهو عنده نوع من أنواع التجنيس العشرة. ((الضرب الأوّل يلقّب بالمختلف ، وما هذا حاله يكون اختلافه بالحركات لا غير ... ومنه قوله نظما :

فقلت للائمي أقصر فإنّني .... سأختار المقام على المقام

الأوّل في أمور ومختلف معه في أخرى ،. والنموذج الذي سندرسه من خلال طرفيه في هذا الإطار قول " ابن ميمون " : ((حُرِسَ[209] الوطن بوجود الأمير حَرَسَ الله جوانب علاه)).

– القسم الأوّل من الجناس هو الواقع في الجملة التالية: (حُرِسَ الوطن بوجود الأمير : (حُرِسَ) هنا فعل ماض من نوع المبني للمجهول، ونائب فاعله هو لفظ (الوطنُ)، والفاعل الحقيقي المحذوف هو الله عزّ وجل الراعي والحامي والحافظ له. ويندرج هذا النوع من الحذف في حجذف متعلّقات الفعل ماضيا كان أم مضارعا. والمعنى في هذه الجملة قيّدت تقييدا واضحا بعبارة (وجود الأمير)، فيصبح المعنى أنذ الوطن محروس من الله بسبب من الأمير الحاكم المجاهد.

– القسم الثاني من الجناس هو الواقع في التركيب الآتي: (حَرَسَ الله جوانب علاه): الفعل هنا المتصدّر للجملة في زمن الماضي ، فاعله هو الله جلّ جلاله، و (جوانبَ) في محلّ نصب ومفعول به ولفظة (علاه) مضاف إليه متّصلة بالضمير المضاف إليه الثاني في محلّ جرّ. والمفعول به وما اقترن به من المضاف إليه قيّد الفعل حرس وجعل الحراسة من عند الله محصورة في الأمير (جوانب الأمير).

– ينظر: ج / 2. يحي بن جمزة العلوي، الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلو حقائق الإعجاز. تحقيق عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت لبنان. ص 186 ، 187.

209 – وكلمة (حرس) الواردة في النصّ أعلاه تذكّرنا بحديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن ابن عبّاس أنّه قال ((عينان لا تتمسّهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله.)) رواه الترمذي .

من هنا ينكشف لنا من خلال التعبيرين أنّ الفعل (حُرِس) في التركيب الأوّل ليس مرادفا للفعل (حَرَس) في التركيب الثاني. فالأول الذي حرس هو الله عزّوجلّ. والمحروس هو الوطن بوجود الأمير. والثاني الذي حرس هو الله سبحانه ، والمحروس هم الأمير الحاكم المجاهد. لذا اعتبرت اللفظتان جناسا، لأنّه – وكما هو معلوم – من شرط وقوع الجناس أو التجنيس بين الكلمتين أن لا يتفقا ويترادفا في المعنى المراد التعبير عنه من طرف المتحدّث.

إحضار صاحب المقامة لهذا الجناس في استفتاحه تصريح واضح بأنّ هذا الوطن بكلّ ما فيه من رعية مرؤوسة وراعي رئيس محاط برعاية الله وحفظه (حُرِسَ الوطن)، فأهالي الوطن يعيشون عيشة راضية آمنة من كلّ خوف ورَوْع، عيشةً مختلفة عن عيشة الشعوب الأخرى. والأمر في ذلك مردّه إلى (وجود الأمير) الذي نشر المعروف والخير والعدل. وكما حرس الله به الوطن فقد أكرمه الله بحراسته فحفظه وحماه من كلّ شرّ وسوء ومنكر وفساد.

3 – الجناس المذيّل:

النوع الثالث من التجنيس الذي وظّفه " ابن ميمون الجزائري " في ابتداء مقامته هو الجناس الذي لقبّه بعض علماء البلاغة بلقب المذيّل، ((....وأمّا إذا كان الاختلاف واقعا في أعدادها فقط ، وذلك أن يوجد في إحدى الكلمتين حرف لا يوجد في الثانية ، وكلّ ما وجد في الثانية فهو موجود على استقامته في الأولى ، وهو المسمّى بالمذيّل.

وذلك إمّا أن يوقع في أوّل الكلمة ، كقوله : ﴿ والتفّت الساق بالساق إلى ربّك يومئذ المساق ﴾ أو في وسطها كاللبد والكمد، والرمد والرد، أو في آخرها كقول أبي تمام : يمدّن من

أيد عواص عواصم ... تصول بأسياف قواض قواضب)) . والنموذج الجناسي الذي نستعين به في هذا النوع قول ابن ميمون : (وتولّاه / ولّاه).

– الطرف الأوّل من الجناس (تولّاه): ((تولّاه اتّخذه وليّا، وإنّه لبيّن الوِلاة والوَلْية والتولّي والوَلاءوالوِلاية والوَلاية والولي: القرب والدنو))[210]. ((أن تولّوهم أن تنصروهم ... جعل التولّي ههنا بمعنى النصر من الولي والمولى وهو الناصر))[211]. أي أنّ الله قرّبه إليه ودنّاه منه، وحفظه وعافاه . ونصره وجعل الغلبة على يديه.

– الطرف الثاني من الجناس فعل في زمن الماضي (ولّاه) يعود على الضمير الغائب المفرد (هو)، وولّاه الله الأمر ((جعله واليا عليه))[212]، ومعنى ((الوالي والي البلد المتسلّط عليها وحاكمها))[213]. فيصبح المعنى لهذا الطرف الثاني من الجناس فيما جعله حاكما عليه، وسلطانا فيه، ومشرفا وإماما ومسيّرا له. بين (ولّاه) بتوفيقه للحكم وبين (تولّاه) برعايته وحفظه ولاء عظيم فبعد أن تولّاه ووالى الله كافأه الله الكريم الجواد بولايته .

4 – التجنيس اللاحق :

210 – ابن منظور ، لسان العرب . ج / 15. ص 455.

211 – المصدر نفسه. ص 453.

212 – خليل الجرّ، المعجم العربي الحديث لاروس. مكتبة لاروس باريس فرنسا. 1973. ص 1298.

213 –المرجع نفسه . ص 1271.

يعرّف هذا النوع من الجناس " بهاء الدين السبكي مبيّنا ((إن لم يكن الحرفان اللذان وقع الاختلاف بينهما متقاربين[214] سمّي الجناس لاحقا ، واللاحق إمّا باختلاف الحرفين في الأوّل، كقوله تعالى ﴿ ويل لكلّ همزة لمزة ﴾، أو يقع الاختلاف في الوسط ... أو في الأخير))[215].

– الزمان / الأمان : اتفقت الكلمتان في الحرف الثاني (م) ، والحرف الثالث الألف (ا)، والحرف الرابع النون (ن). أمّا الاختلاف فقد وقع في الحرف الأوّل من الكلمتين: (ز) و (أ). وهذان الحرفان مختلفان في المخرج، فحرف الزاي من الحروف الأسلية، ومخرجها من طرف اللسان وفوق الثنايا السفلى. وحرف الهمزة من الحروف الحلقية ومخرجه أقصى الحلق.

– الموت / القوت : اتفقت الكلمتان في الحرف الثاني الواو (و) ، والحرف الثالث التاء (ت). أمّا الاختلاف فقد وقع في الحرف الأوّل من الكلمتين: الميم (م) و القاف (ق). وهذان الحرفان مختلفان في المخرج. فحرف الميم (م) في كلمة (المَوْت) من الحروف الشفهية، ومخرجه ممّا بين الشفتين بانطباقهما .والقاف في كلمة (القُوت) من حروف اللهوية ومخرجه من أقصى اللسان ممّا يلي الحلق.

– مدينة / مكينة . اتفقت الكلمتان في الحرف الأوّل الميم (م) ، والحرف الثالث ياء المدّ (ي). والحرف الرابع التاء (ـة). أمّا الاختلاف فقد وقع في الحرف الأوّل من الكلمتين: الدّال (د) و الكاف (ك). وهذان الحرفان مختلفان في المخرج. فحرف الميم (م) في كلمة (

214 – يقصد هنا الاختلاف في مخارج الحروف.

215 – بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . تحقيق عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت لبنان. ط / 1. 1423 هـ – 2003 م . ج / 2. ص 291.

مدينة) من الحروف الشفهية، ومخرجه ممّا بين الشفتين بانطباقهما .والكاف في كلمة (مكينة) من حروف اللهوية ومخرجه من أقصى اللسان بعد مخرج القاف [216].

هذا الجناس (ولما بصروا بفتح المدينة تمزّقت قلوبهم بضربة مكينة يصور أنذ الفتح الذي حقّقه المجاهدون المنتصرون لم يبق فيهم شيئا يذكر، إذ قلوبهم تلقّت ضربة شديدة القوة والفتك فمزّقتها ولم تتركها سليمة. أمّا الجناس الثاني (ثمّ مكثوا هنيهة من الزمان، وطلبوا الأمان)، فيعكس هول ما وقع لهم والذي لم يكونوا متوقّعينه فلم تمر من لحظات المعركة إلّا القليل فذلّوا وأقبلوا ينادون بالأمان خوفا من الموت أو الأسر. والجناس الثالث (جزعا من الموت وأسفا على ما يفقدونه من القوت) بدوره يجلّي حبّهم للدنيا والعيش فيها وكرههم للموت والزوال، وتعلّقهم يطونهم من الأكل والقوت.

وهذا الوقفات المتفاوتة عند أسلوب الجناس التي عرضناها في مقامات "آابن ميمون " آنفا يؤكّد ما كشفت عنه الناقدة " غربي شميسة " وهو أنّه ((من الخصائص الإيقاعية في المقامات ذيوع ظاهرة الجناس ، كأداة من أدوات الترجيع الصوتي))[217] اللافتة في البنية الأسلوبية في الكتابة المقامية عند " ابن ميمون " .

216 – اعتمدنا في العرّف على مخارج الحروف على : أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية. دار الفكر العربي بيروت لبنان. دار الفكر دمشق سورية. ط / 3 . 1424 هـ – 2003 م . ص 187، 188.

217 – غربي شميسة، بناء المقامة عند ابن ميمون من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، دراسة. ص 155.

بالنظر إلى ما سبق فإنّ أسلوب الجناس له آثار عميقة ونتائج طيبة يجنيها النصّ والقارئ له فيها الطرب والمتعة والمغالطة الحركة الذهنية والبحث المتدبّر لذا ففنّ ((الجناس من الحلي اللفظية البديعية التي لها تأثير بليغ، تجذب السامع، وتحدث في نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذّذ بنغمته تاعذبة، وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، فتجد في النفس لبقبول، وتتأثّر به أيّ تأثير. وتقع من القلب أحسن موقع.))[218]، وفضلا عن هذه الثمرات الحميدة فإنّه قد تبيّن لنا أنّ هذا الفنّ البديعي يتأسّس على التباين والاختلاف ((فالجناس يقوم على مفارقة بين وجهي العلامة اللغوية، إذ الاصل فيها أن يطابق وجهها الحسّي (الدال) مدلوله، ولكن الجناس يشوّش ذلك التطابق فيفتق تلك اللحمة ويخيّل بوحدة صوتية بين ألفاظ متباعدة في الخطاب ولكنّها تخفي اختلافا في الدلالة))[219]، فالتخييل والتضليل من مقاصد هذا التعبير الفنّي ذي الطابع الصوتي الظاهر ، ذلك أنّ ((الجناس إيهام بالوحدة العضوية بين أجزاء الخطاب المختلفة، وهذا أساس المغالطة فيه))[220]. زيادة على هذه المعاني العامة للجناس يظلّ هذا الأسلوب البديعي محتفظا بدلالات خاصّة تُستخرج وتفهم من سياق الكلام والمقام الذي ورد فيه.

218 – عبد الفتّاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن. الناشر المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر. ط / 3 . 1986. ص 155.

219 – الأزهر الزنّاد ، دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة . المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء وبيروت. ط / 1 . 1992 م . ص 156.

220 – الأزهر الزنّاد ، دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة . المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء وبيروت. ط / 1 . 1992 م . ص 155.

وفي خاتمة هذا الفصل الذي أفردناه لفنّ المقامة الجزائرية عند القدماء دارسين فيه المضامين والأشكال الفنية نذكّر أنّ المضامين التي تتوفّر عليها المقامات المدروسة إن هي إلّا نماذج من مضامين كثيرة اتّسعت لها المقامة الجزائرية القديمة . وكذلك الامر بالنسبة للأشكال الفنية فلم ندرس منها إلّا القليل . فلا ندّعي من خلال ما كتبنها في هذا الفصل من الرسالة الإحاطة والشمول.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

مضامين أدب الرحلة الجزائرية القديمة وأشكالها الفنية

القسم الأوّل من الفصل الثاني

مضامين

أدب الرحلة الجزائرية القديمة

تمهيد:

قبل أن نشرع في تقديم التعريف اللغوي والاصطلاحي لأدب الرحلة لا بدّ أن نوضّح أنّ النقّاد ودارسي الأدب الجزائريين والعرب لايجمعون على مصطلح واحد يطلقونه على هذا الفنّ القصصي العربي القديم "أدب الرحلة" ، فإذا تصفّحنا عناوين الكتب التي ألّفت في هذا اللون الأدبي النثري نجد البعض يورد عبارة (أدب الرحلة) [1]، والبعض منهم يذكر (الرحلة) [2]، وتارة ثالثة البعض يسمّيه (الخطاب الرّحلي) [3] نسبة إلى الرحلة ، وهناك إلى جانب من سبق ناقد جزائري في سياق تأريخه للنثر الجزائري الحديث يسمّي هذا الضرب القصصي من النثر العربي القديم والحديث (المذكّرات) [4].

أمّا من وجهة نظرنا في هذا البحث فإنّنا نضع في الدرجة الأولى المصطلحين : أدب الرحلة ، والرحلة . وفي الثانية نضع مصطلح : الخطاب الرحلي أو الأدب الرحلي. أمّا مصطلح الناقد عبد الملك مرتاض (المذكّرات) فغنّنا نراه بعيدا نوعا ما عن مكونات أدب الرحلة ، إذ لا نجده يتقاطع مع أدب الرحلة إلّا في في بعض المواطن ليس هذا مقام ذكرها. وتبعا لهذا الترتيب سنوظّف في دراستنا مصطلحي الرحلة وأدب الرحلة .

[1] – ينظر : أدب الرحلة: الحسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني. منشورات عكاظ. 1990 م .

[2] – ينظر : عمر بن قينة. رحلات ورحّالون في النثر العربي الجزائري الحديث. دار الأمة برج الكيفان، الجزائر. 2012 م . المقدّمة: ص : 5 . الباب الأوّل: رحلات الحجّ ص 11. الباب الثاني: رحلات السياحة والسياسة والاطّلاع ص 93.

[3] – ينظر : عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائرية الحديث ، مكوّنات السرد. دار هومة ، الجزائر. 2014. الخطاب الرحلي : ص 55.

[4] – ينظر : عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 م – 1954 م . ص 293.

التعريف اللغوي :

– مفردة " الرحلة ": ((رحل الراحلةُ: المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى. ورحلتُ بعيري أرحلُه رحْلا، وارتحل البعير رُحْلة أي سار فمضى ثمّ جرى في المنطق حتّى يقال : ارتحل القوم . الرحيل اسم الارتحال للمسير. والارتحال نقيض المحلّ...))[5] فكلمة ارتحل مرتبطة ابتداء بالبعير لما يسير ويمضي في سيره نحو مكان معيّن. ثمّ استعير هذا اللفظ للإنسان فردا وجماعة عند انطلاقهم في المسير من محلّ إلى محلّ آخر. والمسير تحرّك من نقطة إلى نقطة أخرى، وانتقال من منطقة معيّنة إلى أخرى. من هنا أصبحت الرحلة بمعنى الانتقال والمضي إلى سفر نحو وجهة ما .

– أدب الرحلة : فنّ من فنون الأدب النثرية. يحرّرها إنسان ذو مستوى ثقافي وعلمي بارز ومعلوم في مصنّف بعد انتهائه من الرحلة. من المعلوم أن تكون لها بداية ونهاية، رحلات صغيرة. يحصل القارئ لها على فوائد متنوّعة وكثيرة. هذه الرحلة يسجّل فيها الرحّالة مشاهدته التي عاشها ولاحظها، ويدوّن فيها الأحداث التي واكبته في مختلف تنقّلاته، كما يقيّد فيها التجارب التي حدثت له، ويبرز فيها اللقاءات التي كتبت له مع مختلف النّاس، والأعمال التي تمكّن من القيام بها هو ومن صاحبه في الرحلة من الأصحاب والناس.

ومن التعريف التي اخترناها لهذا اللون السردي أنّها فنّ من فنون النثر ((ينقل فيه الرحالة ما عاينه أو سمعه من روايات شعبية أثناء سفره أو ما نقله من مصنفات قائمة بأسلوب السرد

[5] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين. تحقيق عبد الحميد هنداوي. منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط / 1. 2002 م – 1424 هـ. ص 106.

القصصي، يتوخّى الدقة والملاحظة والوصف الحيّ المتحرّك وسهولة الرواية مع تحرّي الحقيقة))[6]. والرحلة لا يمكن تصنيفها في ميدان الأدب إلّا إذا توفّرت على خصائص أدبية في الأداء التعبيري بلاغية ونحوية وصوتية، وجمع فيها بين التقرير والتصوير، وبين الإيجاز والتفصيل، وبين الإثارة والإمتاع من جهة وبين الإقناع والإفادة من زاوية أخرى. ومن السمات الأدبية التي ينبغي أن تتوفّر فيها حضور الفنون الشعرية، والألوان النثرية. ومن باب الإنصاف للشعر العربي القديم أنّه حمل الرحلة بطريقته المتميّزة في جزء من مضامينه المتعدّدة، ((وقد ظلّت الرحلة مكوبيةّنا ثقافيا لإنسان المنطقة العربية قبل الإسلام وبعده. وتبدّى تأثيرها في لغته وإبداعه.

ومن ذلك حضورها المتكرّر في القصيدة العربية. فالرحلة حاضرة في البنية الأولى من القصيدة (النسيب) عبر عنصر رحلة الظعائن التي تمثّل الهجرة الموسمية للقبائل البدوية، وهي حاضرة في بنية الرحلة التي يركب الشاعر فيها ناقته ليغادر ساحة الأطلال.))[7] ومع مرور الزمن وتطور الفنون الأدبية حاز أدب الرحلة لنفسه حيّزا عبرب العصور لحدّ الآن ضمن الفنون النثرية الأدبية.

والرحلة لا تخصّ الأدب فقط، وإنّما نجدها في السير والتراجم، في التاريخ والجغرافيا، في السياشة والمعارك العسكرية ... ولا بأس أن نسير أنّ الرحلة منها ما هو واقعي ومنها وما هو

[6] – مصطفى سالم عبد الله حابوص، أدب الرحلات عند العرب نشأته وتطوره ابن بطوطة أنموذجا. منشورات المركز الوطني للمحفزظات والدراسات التاريخية، ليبيا 2009م. ط / 1 . ص 19.

[7] – عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز. مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت لبنان. ط / 1. 2009م. ص 53.

خيالي، مثل (رسالة الغفران لأبي العلاء المعري)، و (رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد)، و (التوهّم للحارث المحاسبي). إنّها ((تصاغ بأسلوب قصصي يديع يؤكّد الواقع أحيانا وينشئ لنا عوالم خيالية أخرى))[8]، كما بيّنا آنفا من خلال النماذج السابقة والاحقة التي سنتناولها.

وقبل أن نشرع في دراسة مضامين أهمّ الرحلات التي شهدها الأدب الجزائري القديم نرى ((أنّ الرحلة في جوهرها حركة. وهذه الحركة دليل حياة – كما يقول ياقوت الخموي – قد يتحقّق وقد لا يتحقّق، وسيتمّ – في الحالتين كلتيهما – اكتساب خبرات عملية علمية ناجمة عن المخالطة. وبذلك يتمّ التقابل بين الرحلة في اللغة والاصطلاح جيث يجمعهما أنّهما حركة.))[9] . ودليل حياتها القوي كونها لازالات خالدة بفضل الرحّالة الذين دوّنوا رحلاتهم وبفضل المحققين الذين أخرجوها من عالم المخطوطات إلى عالم الواقع والقراءة والدراسة.

الرحّالة الجزائريون :

الرحلات الأساسية التي سنشتغل عليها في دراستنا هاته هي:

1 – رحلة " ابن عمّار ": ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب).

2 – رحلة " ابن حمادوش " : عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال).

[8] – شوقي ضيف، الرحلات دار المعارف . ط 4 . ص 05.

[9] – ناصر عبد الرزاق الوافي، الرحلة في الأدب العربي حتّى نهية القرن الرابع الهجري. ط / 1. 1415هـ – 1995م. مكتبة الوفاء. القاهرة. ص 25.

3 – رحلة " أبي راس " : محمّد أبوراس الجزائري (فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته).

4 – رحلة " المقرّي " : أبو العبّاس أحمد المقرّي (رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق).

5 – رحلة " الورثيلاني " : سيدي الحسين بن محمّد الورثيلاني (الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار).

وهناك رحلات أخرى سجّلها مؤرّخو الأدب الجزائري القديم – ليست موضوع دراستنا – لا بدّ من ذكرها مثل: رحلة البوني (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) لأحمد بن القاسم بن محمّد ساسي البوني. رحلة الباي (رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي) لأحمد بن هطّال التلمساني. رحلة الأغواطي (رحلة الأغواطي إلى شمال إفريقيا والسودان والدرعية) للحاج بن الدين الأغواطي. رحلة التنيلاني (الرحلة إلى ثغر الجزائر عام 1231 هـ – 1816م) لعبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر التنيلاني. رحلة الدحاوي (الرحلة القمرية في السيرة النبوية) لمصطفى بن زرفة الدحاوي.

وقد ذكر "أبو القاسم سعد الله" أنّ هناك رحلات أخرى منها النثري والشعري: رحلة التوجيبي التلمساني، رحلة ابن قنقد القسنطيني، رحلة عاشور بن موسى القسنطيني المعروف الفكيرين، الرحلة الفاسية محمّد لزجاى، رحلة عبد القادر المشرفي، رحلة عبد الله بن عمر البسكري (قصيدة شعرية)، رحلة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني (قصيدة

شعرية)، رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي (قصيدة شعرية). رحلة محمد بن المسايب التلمساني (قصيدة شعرية بالملحون)[10].

قبل أن نشرع في دراسة مضامين الرحلات الجزائرية الخمس نذكر أنّ "أبا القاسم سعد الله" يعدّ من أبرز المهتمّين بأدب الرحلة الجزائرية القديمة. وذلك واضح من خلال تحقيقه لرحلة ابن حمادوش، ورحلة الأغواطي ابن الدين. وكذلك من خلال كتابته عنها معرّفا وناقد ومقارنا في كتابيه :

أ – أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر[11]: (من ص 177 إلى 200).

ب – تاريخ الجزائر الثقافي، ج/ 2 : (من ص 395 إلى 412) .

وليس غريبا أن يثمر هذا الانشغال العلمي كتابا ألّفه "أبو القاسم سعد الله" عنوانه (تجارب في الرحلة والأدب)[12] دوّن فيه إلى جانب قضايا أدبية ونقدية قديمة (المقامة، الإجازة، الرسالة، شعر ...) وأحاديث في (شعر، قصّة، مسرحية، أحاديث ...) رحلاته إلى المغرب الأقصى ، والجزيرة العربية في مكة والمدينة، وإلى خنقة سيدي ناجي بالصحراء الشرقية الجزائرية. كما أنّه قدّم دراستين حول الرحلة في الكتاب نفسه ، الأولى لابن طوير الجنّة. والثانية للأمير الألماني "موسكاوي" إلى عنّابة.

[10] – ينظر: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20). ج / 2. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985. من ص 395 إلى ص 412.

[11] – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج / 1 . عالم المعرفة . الجزائر. طبعة خاصّة، 2011 م .

[12] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1983 م .

وفي سياق التمهيد للرحلات الجزائرية لا بأس من إيراد هذه الشهادة لأحد أبرز مؤرّخي الأدب الجزائري القديم ، ((تعتبر الرحلة قطعة هامّة من تراث الجزائر الوطني خلال القرن الثامن عشر، ذلك أنّ الكتّاب المغرضين كثيرا ما روّجوا بأنذ الجزائر في العهد العثماني لا تملك من هذا التراث إلّا اليسير. والواقع أنّنا نجد مجموعة من الأعمال الجزائرية التي كتبت خلال القرن المذكور، منها (التحفة المرضية)في سيرة الداي محمّد بكداش. و (الثغر الجماني) في سيرة الباي محمّد الكبير. و (نحلة اللبيب) في التشوّق والاستعداد للحجّ إلى بيت الله الحرام. و (نزهة الأنظار) للورثلاني ، وهي رحلة حجازية . وغيرها))[13]. هذا النصّ يحمل قيمتين، هما :

– الأولى : الردّ على المنكرين من من مختلف التوجّهات في الداخل والخارج فنّ الرحلة الجزائرية في القديم، والمبخسين للتراث الجزائري الغني، وهذا الردّ يحمل دعوة وجيهة لأبناء الجزائر للبحث والتقيب عن الجواهر المبثوثة في تراثهم الغالي، ودراستها والكشف عن مكنوناتها بمختلف الوسائل العلمية .

– الثانية : هذه الأهمية التي التي أكّد عليها أبو القاسم سعد الله هي حصيلة قراءاته الطويلة والممعنة لها ، وكتاباته المتعدّدة حولها . ومن وجوه الأهمية التي تكتسيها تلك الرحلات ما زخرت به من مضامين تجمع بين الذات والخارج ، وبين الديني والعلمي والتاريخي والجغرافي ، وفيما بين الأخلاقي والاجتماعي والسياسي. ونظرا لقيمة هذه المضامين فهي التي سنستهل ذبها هذا القسم من الفصل الثاني.

13 – أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحّالة ابن حمادوش الجزائري. عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر. طبعة خاصّة، 2015. ص 76.

أوّلا : من مضامين رحلة " الورثيلاني " :

عنوان الرحلة: (الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)[14]. وهي لصاحبها ((الحسين بن محمّد الورثيلاني نسبة إلى ورثيلان قبيلة قرب بجاية . أنفس تصنيف رصّعت جواهره في وطن الجزائر، وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي والحواضر لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الطرائف وأوابد العوائد وفرائد الفوائد ونسق كالأوصاف الكاملة، وحلّ المسائل الشاكلة تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارة واردا حياض التفسير والتاريخ والتجويد، وتارة طامحا إلى التصوف والنصح والوعظ ... فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة ومرصّعا وشاحه بياقوت الأشعار الرفيقة وغير ذلك ممّا هناك.))[15]. وهذا التقديم الإجمالي للرحلة لا شكّ أنّه نابع عن قراءات متكرّرة عميقة من طرف المحقّق" محمّد بن أبي شنب " أراد أن يصوّرها على النحو العلمي والأدبي لتكون حافزا ومحرّضا للمتلقّي كي يحسن القراءة لمتن الرحلة.

والشهادة السابقة تسندها شهادات كثيرة منها اعتبار هذه الرحلة ((من أهمّ الرحلات في هذه المرحلة الزمنية وقد تضمّنت وصفا دقيقا للمناطق التي زارها الورثلاني سواء في نواحيها الجغرافية السياسية الاجتماعية والعلمية الثقافية إذ تعدّ حسب كثير من المؤرخين مما لا يستغنى

14 – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. تصحيح محمد بن أبي شنب. الناشر مكتبة الثقافة الدينية، الفاهرة مصر. ط / 1 . 1429 هـ – 2008 م .

15 – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. محمّد بن أبي شنب، كلمة المصحح ص 3. (مقدّمة قبل عرض رحلة الورثيلاني نقرأ فيها تعريفا بالرحلة وصاحبها، وبالنسخ المعتمدة في تصحيح الرحلة).

عنه في دراسة هذه الحقبة من تاريخ العالم الاسلامي بشكل عام))[16]، نواحيها ومحتوياتها عديدة تستغرق الحياة السائدة آنذاك برمّتها، لما اعتمد عليه فيها من وصف مستفيض، ونقل دقيق، وتدوين جامع بين المعرفة والفكرة، وبين التصوير والرسم.

1 – بواعث الرحلة :

أوّلُ ما يستفتح به " الحسين الورثيلاني " صاحب الرحلة بعد استهلال طويل يحمد فيه الله عزّ وجلّ، ويلقي فيه بالصلاة والسلام على النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم ذكرُ الباعث الذي جعله يسنفر قواه لإنجاز هذا العمل المتميّز، ((وبعد فإنّي لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرّباع والقفار والديار، والمعاطن والميّاه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء في كلّ مكان من الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبّين المحبوبين من المجاذيب المقرّبين والأبرار، من المشرق والمغرب سيما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم من غير الله فرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشّادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوّف ممّا فُتح به عليّ أو منقولا من الكتب المعتبرة))[17] في هذا تصريح واضح

[16] – عائشة دبّاح ، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات " رحلة الحسين الورثيلاني أنموذجا" مجلّة قضايا تاريخية. فصلية أكاديمية محكمة نصف سنوية تصدر عن مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة. العدد 08. 1439 هـ – 2017 م . ص 57

[17] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 12، 13.

بالخلفيات التي دفعته والمؤثرات التي حرّكته، فالمشاهد المقدّسة في مكة والمدينة، واللوحات الطبيعية من جبال وسهول، وحقول وآبار، والأشكال الهندسية في المدن والقرى، وأولئك الناس بمختلف طبقاتهم ومراتبهم وتخصّصاتهم وانتماءاتهم كلّ هذا أحبّهم ومال إليهم، وارتبط بهم، ودَّهم وهواهم ونزع وجدانه إليهم تعلّق لهم وبادروا به إلى كتابة هذا الجوهر الثمين والكنز الغالي.

من أجل كتابة ذكر مستمرّ، وتخليد باق لهؤلاء الذين أحبّهم وودّهم، يقرّر ، قيمتها عنده كبيرة ورفيعة لا تعدلها رحلة، ولا يدانيها مصنّف مهما كان. وأيّ قارئ لها سيرتبط بها ويجلّها، وستؤثّر فيه وتأسره، لأنّه رأى فيها من المحاسن ما لا يحصى، محاسن تجمع خيرات وثمار وفواكه لا توجد في البساتين الأخرى. ففيها القصص والأنباء، منها العادي المتوقّع والغريب المفاجئ، وفيها موصوفات من كلّ جنس منها الطبيعي والحجري والإنساني الحيّ والميّت. وفيها المسائل التاريخية والقضايا الفقهية والأدب الأخلاقية.

2 – المصادر التي اعتمدها في تدوين رحلته :

ومن باب الأدب الفاضل والأمانة العلمية العالية يكشف " الوثيلاني " لقارئه بعض المصادر الرفيعة التي اعتمد عليها. كان ((اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله ثمّ على من به اعتمادنا سيدي أحمد بن ناصر الدرعي الجعفري. هذا وإنّي أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة وغيرهما ممّا يناسب المحلّ))[18] .

[18] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 13.

– المصدر الأوّل الذي اعتمده في إنشاء رحلته هو العمل الرّحلي الذي أنجزه " أبو العبّاس أحمد ابن محمّد بن ناصر الدرعي الجعفري " (1057 – 1128 هـ / 1647 – 1718 م)، وعنوانها (الرحلة الناصرية الكبرى) [19] ".

– المصدر الثاني الذي ذكره هو (نبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة).

– والمصنّف الثالث الذي صرّح به هو (مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان).

– والأثر الرابع الذي أفصح عنه هو (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)، وإلى جانب الرحلة الناصرية وكتب التاريخ الثلاثة فقد اعتمد على مستندات أخرى لم يفصح عن عناوينها لكنّه عبّر عنه من خلال كلمة (وغيرهما).

3 – مسالك الرحلة:

– مرحلة الذهاب : خروجنا من بسكرة بالجزائر (المسلك الأوّل). وصولنا إلى طرابلس (المسلك الثاني). خروجنا من مصر (المسلك الثالث). دخولنا مكّة المشرّفة (المسلك الرابع).

– مرحلة العودة : خروجنا من مكّة المشرّفة[20] (المسلك الخامس). دخولنا مصر (المسلك السادس). خروجنا من طرابلس (المسلك السابع). وصولنا إلى تونس (الثامن). دخولنا قسنطينة (التاسع والأخير).

---

[19] – أبي عبد الله محمّد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الناصرية الكبرى . بدراسة وتحقيق المهدي الغالي . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. 1434 هـ – ر2013 م .

[20] – لم يذكر المحقّق رحلة الورثيلاني في الفهرس دخول الحسين الوثيلاني المدينة المنوّرة، والثابت المؤكّد في الرحلة أنّه لما خرج من مكّة دخل المدينة، وبعد الانتهاء من زيارتها دخل مصر.

4 – مضامين الرحلة إلى مكّة:

سبق وأن وقفنا عند جزء من المقدّمة التي أوردناها " للحسين الورثيلاني " فألفيناه يبيّن فيها المضامين الكبرى التي احتوتها رحلته وهي: المحاسن، والأخبار، الأحكام الغريبة، الحكايات المستحسنة، الغرائب العجيبة، الأحكام الشرعية، التصوّف. هذه الأمور السبعة رأينا فيها أنّها المضامين الكبرى التي تدور حولها الرحلة. وبالاعتماد على هذه القضايا اخترنا من كلّ عنصر نموذجا منه، وبذلك نكون قد سعينا لوضع القارئ أمام الرحلة لينطلق من ذلك للقراءة والتنقيب والاستيضاح.

أ – من المحاسن: مواطن المحاسن في الرحلة كثيرة منها هذا النموذج، ((... فلو شاهدت يا هذا تلك الحال وما عليه الناس في جبل عرفات، ووقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره، وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره، إذا ترى الملوك في مقام الافتقار والذلّة، والفقراء في محلّ الاضطرار والقلّة. والجميع يرغبون في المغفرة من الرحمان، ويطلبون الرحمة والعفو من العفوّ الرحيم الحنّان المنّان:

جاؤوا بأحمـــال أوزار تؤدهم ... منها جبال، وحسن الظنّ وطّاها

فسال لما رأى الرحمان ذلّتهم ... طوفان عفـو وغفـران فغطّـــاها))[21]

الحسن في هذا النصّ في الكلمات: ياهذا، تلك الحال، العرصات، لهالك، المشهد، هال، عجز، وفي المقامات المتقابلة التي قدّمها: مقام الملوك في حال الخضوع ةالحاج، ومقام

[21] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 460.

الفقراء في حال الاحتياج والالتجاء. وفي المشهد العامّ لهما: الرغبة والطلب الرغبة في الصفح والطلب للرفق والودّ. ومن مظاهر الحسن في هذا النصّ البيتان الشعريان الواردين عقب الكلام. فكلذ كلمة فيهما توحي وتشير إلى معان كثيفة. جبال أوزار، جبال، وطّاها، سال، طوفان، غطّاها.

ب – الأخبار: منها ((ذكر من لقيتهم في الحرم المكّي من الأئمّة: الشيخ المخيلي الشافعي، والشيخ عبد الله بن سالم البصري الشّافعي، والشيخ محمّد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه الشيخ عبد المحسن، والشيخ عبد المنعم، والشيخ عبد القادر بن أبي بكر الحنفي المفتي، كان تولّى الفتوى قبل . والشيخ محمّد أكرم الهندي والشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكّي الشافعي. وله تآليف على التاريخ ذكر فيها علما الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه، أطلعني على سفر منه ذكر فيه المحمّدين فقط. ولم يكمل إلى الآن. وله رحلة إلى اليمن، ولقي الوالد وأخذ عنه. وجعل له ترجمة . والشيخ محمّد بن عبد الباقي الاسكندراني المالكي، والشيخ أحمد بن إدريس الصعدي الشافعي، وهو نسبة إلى صعدة باليمن، والشيخ عبد الرحمن السندي والد أكرم. والشيخ عبد الكريم الهندي.))[22].

– ذكر من لقيتهم في الحرم المكّي من الأئمّة:

" الشيخ المخيلي، الشيخ عبد الله بن سالم، الشيخ محمّد تاج الدين، الشيخ عبد المحسن، الشيخ عبد المنعم، الشيخ عبد القادر بن أبي بكر ، الشيخ محمّد أكرم، الشيخ مصطفى

[22] – المصدر نفسه . ص 496.

بن فتح الله، الشيخ محمّد بن عبد الباقي، الشيخ أحمد بن إدريس، الشيخ عبد الرحمن، والشيخ عبد الكريم " . والملحوظ أنّ " الحسبن الورثيلاني " ذكر لكلّ واحد مذهبه الفقهي الذي ينتمي إليه، فمنهم المالكي والحنفي والشافعي، وكلّهم من أهل السنّة والجماعة، فقذ لم يلتق بإمام واحد من الحنابلة.

كما ذكر لأغلبهم الموطن الذي ينتمون إليه: البصرة (العراق)، الهند، حماة (سوريا)، الاسكندرية (مصر)، صعدة (اليمن). وهناك من ذكر له وظيفته الشرعية (مفتي). وهناك من ذكر له آثاره العلمية (الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي) في التاريخ والرحلة، والتراجم.

ت – الأحكام الغريبة:

هذا النصّ دكره الرحّالة "الحسين الورثيلاني" في سياق وصفه لقسم من البناء العمراني في مكّة وهو قبابها ((... وأسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثرة غالبها للشرفاء أمراء مكّة. ومنها قبّة سامية يقال لها قبّة أبي طالب ... هو أمير مكّة المتأخّرين من أشرافها ... قالوا كان في حياته شجاعا مقداما فاتكا دوّخ بلاد الحجاز، وقهر عربانها غاية القهر. وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرّخون بعهده، فيقولون كان هذا في زمان أبي طالب. وكان سفّاكا للدماء، ومع ذلك كان حسن السيرة. ولم يكن أحد يأتيه بالولاية اما هو عليه من الفتك والبطش، إلّا أنّ بعض أهل الكشف كان يقول هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية أقيم في مقام الجلال . فلمّا توفّي ظهرت له كرامات كثيرة ، وصار قبره من أعظم المزارات))[23]، الأحكام الغريبة التي أصدروها

[23] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص

في حقّ هذا الأمير في كونه كان شجاعا مقداما فاتكا قاهرا سفّاكا للدماء، وفي المقابل كانوا يحكمون عليه بحسن السيرة، ويرون أنّ قهره مستمدّ من اسم القهّار، وظهرت له كرامات بعد موته، وقبره كان من أجلّ المزارات. ووجه الغرابة فيها كلّه هذا التناقض بين سلوكه السيّء الطّائش وبين اعتباره وليا صالحا يزار.

– النصّ الثاني هذا أغرب من الأوّل، ((فما ظهر منها أنّهم قالوا جلس جماعة من القرّاء حوله قبره يقرؤون القرآن قرب موته كما هو عادتهم، وبين أيديهم شمعة تضيء بليل، فوقعت بالأرض، فانطفأت، فتحيّروا، فلم يجدوا من يوقدها لهم، فانشقّ القبر عيانا، فخرج منه من أوقد لهم الشمعة فرجع.)) [24] ، والحكم الغريب في هذا النّصّ هو انشقاق القبر وخروج الأمير الميّت من القبر لإيقادها من جديد . والغريب من هذا أنّ هذه الرواية العجيبة التي لا يصدّقا عقل ولا منطق، ولا يقبلها دين وتوحيد لم يعقّب عليها صاحب الرحلة بصغير أو كبير، يصراحة أو إشارة.

ث – الحكايات المستحسنة:

هذه حكاية قصيرة من الحكايات العديد المسجّلة في الرحلة، ((فطفت بهم طوافا كاملا بشروطه وانتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فيه، أعلّمهم إيّاه. ولما رأى أهل مكّة فعلي ذلك، تغيّروا وقالوا: ألم تعلم أنّ أهل مكّة لا ينتظرون إلّا هذا الموسم ، فقالوا طف لنفسك، واترك النّاس.

[24] – المصدر نفسه. ص 509.

فقلت أنا أطوف بهم وأعلّمهم وأنتم خذوا الأجرة منهم))[25]، هذه الحكاية وجه الاستحسان فيها هو عنصر المفاجأة والحيرة. فالرجل الكريم الحسين الوثيلاني متطوّعا محتسبا طاف بأصحابه ومجموعة من النّاس الذين كانوا معه، فأنكر عليه ذلك يعض من أهل مكّة محذّرين له أن يطوف بنفسه ويترك من معه، فالطواف بالنّاس هو أمر محتكر لهم فقط ينالون منه الأجر. لم يناقشهم في الأمر وجسا وخوفا. فلا مكان لتعليم النّاس وإرشادهم والتّطوّع للطواف بهم/ فكلّ حاجّ يحجّ لنفسه ولا يرشد أة يشرك النّاس في عمله.

ج – الغرائب العجيبة:

ومن بين هذه الغرائب نسجّل ((... دخلت على سلطان مكّة المشرّفة في داره في منى في بعض الإبل ذهبت للحجّاج أغار عليها العرب، فاستأذنّا في الدّخول عليه ... فأذن لي منفردا، ... ثمّ قال ماذا تريد؟ قلت الجمال، لأنّ العرب أغاروا عليها عند البئر الفلاني ، وقلت له ألم تعلم أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته... وقال نعم فإن دخلنا مكّة نأتكم بالإبل التي ضاعت لكم ... وهذا كلّه يرشد إلى أنّ الزمان قد زاد في الظلم والتعدّي، نعم قد كاد الحجّ أن يكون ساقطا من الظلم من الولاة وأصحابهم والعرب والظلم الكبير من الشيّالين زادوا في الارتياش للظلام والشكوة[26]))، الأمر الغريب الأوّل هو هذه الخلق القبيح والسلوك الدنيء الصّادر من بعض أهل مكّة وفي مكّة، وفي موسم الحجّ العظيم، وفي هذا المقام الجليل. يغيرون على الحجّاج فيسرقون منهم عدوا وظلما إبلهم التي منها

[25] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 454.

[26] – المصدر نفسه . ص 496.

ركوبهم وأكلهم وثمن معيشتهم. الأمر المدهش الثاني هو إشارة الحسين الورثيلاني إلى وجود الظلم الجور، والاعتداء على النّاس ونهب ما يملكون. ونتيجة لعمق تأثّر صاحب الرحلة بهذا الواقع المرير أدّى به إلى القول (كاد الحجّ أن يكون ساقطا من الظلم) خاصّة وأنّه صادر من المسؤولين على رعاية شؤون الحجّاج، ومن أتباعهم المستبدّين، زمن أولئك الذين يحملون حوائج وزاد الحجّج وينقلونها من مكان إلى مكان.

ح – الأحكام الشرعية:

سرد لنا الرحالة جمع غزير من الأحكام الفقهية، فما من شعيرة وقفا إلّا ويذكر ما يتعلّق بما يرتبط بها من واجب أو حرام، من مندوب أو مكروه، أو مباح. ومنها ((ولما كان يوم التروية وزالت الشمس طفنا، فخرجنا لمنى إذ الخروج وقتئذ بقدر ما يدرك به الظهر كلّ على قدر حاله. فإنّ المراد بقولهم يدركون بمنى الظهر أي يدركون أواخر الوقت المختار، ويكره التراخي عن ذلك إلّا لعذر كما كما يكره التقدّم قبل ذاك. ومن خاف خروج وقت الظهر قبل أن يصل إلى منى صلّاها في الطريق. وتردّد مالك في قصره وإتمامه، واستخسن سند القصر.))[27]. هذا النصّ عرض فيه الطواف يوم التروية بعد زوال الشمش، الخروج من منى وقت عدم خروج وقت الظهر، أي إلى غاية الوقت المختار، تأخير ذلك عن الوقت لا يقع إلى لضرورة ومثله تقديم ذلك، والخشية من خروج وقت صلاة الظهر فيها مجال للصلاة في الطريق، ذكر سعة القصر أو الإتمام، مع ترجيح القصر.

[27] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 457، 458.

خ – شيء من التصوّف:

وهذه نبذة عن ذلك ((... الأرواح قد تجلّى عليها ربّها، فخرّت صعقة مغشية عليها، فغيّبها عن الأكوان، كلّها بمشاهدة مكوّنها ومن جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهمّ والمشقّة، فلمّا هبّ نسيم جوار الحبيب أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال، ودلائل الحضرة، وسواطع الانتقال، فعلمت بيت الربّ، فتعلّق بها الجبح واللبّ، سذل كلّ حبيب سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كأس الجوار وأداره ...))[28]، وقد ذكر أشياء كثيرة تتعلّق بالتصوّف لا يقبل عقل المسلم ولا يجد لها مبرّرا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أو ممّا أثر عن الصحابة والعلماء العاملين، ومعالم التصوف عند الورثيلاني فنجده في الجزائر قبل أن ينطبق إلى بسكرة قد زار وذكر عشرات الرجال الأموات والقبور والمزارات والخلوات مع ذكر بعض الأحداث الخارقة التي لا سند لها من الشرع اولتوحيد ... تجلّى ربّها، فخرّت صعقة مغشية ... فغيّبها عن الأكوان، كلّها بمشاهدة مكوّنها ومن جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهمّ والمشقّة، فلمّا هبّ نسيم جوار الحبيب أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال، ودلائل الحضرة، وسواطع الانتقال، فعلمت بيت الربّ، فتعلّق بها الجبح واللبّ، سذل كلّ حبيب سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كأس الجوار وأداره .

5 – المضمون التاريخي:

[28] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 452.

التاريخ في رحلة " الورثيلاني " حاضر بكثرة في الرحلة، ومنتشر في كافّة ربوعها. والأمر هذا ليس بالغريب مطلقا خاصّة وأنّ " الورثيلاني " يذكره بجلاء في عنوانه (رحلة الورثيلاني الموسومة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) فالرحلة فضلا على جانب التسلية والترويح وتجديد النفس إطراب النفس والترفيه عنها التفريج التلطيف والطاقّة (نزهة الأنظار.)

فقد قيّدها بعبارة في فضل علم التاريخ وهذا التخصيص وإن كان غير مهيمن على الرحلة كاملة فإنّه يحمل تنبيها للقارئ بأنّ المواضيع التاريخية في هذه الرحلة موجودة وغير غائبة، وجلية ظاهرة غير خفية، ومعنتى بها غير منسية. وعبارة فضل الموظّفة من طرف الحسين الورثيلاني نفهم منها أنّ التاريخ فيه فضل كبير، ومنح جليلة، وفوائد جمّة، ومنافع لا تحصر ، وهذه شهادة علمية يصرّح بها الرحّالة الورثيلاني، ويردّ بها على الجاهلين بقيمة التاريخ والمنكرين لفضله، والمنتقصين من قدره، ولعلّ المجتمع الذي عاش فيه كان مهملا لقيمة التاريخ ودوره في فهم الحاضر وبناء المستقبل.

ومن النماذج التي نسوقها للقضايا التاريخية:

النموذج الطويل يقع تحت عنوان (ذكر دخولنا إلى مصر: 640)، والعنوان الفرعي التابع له (ذكر الإسكندرية وما بها من العجائب: من ص648 : إلى 659). وهذا النموذج التاريخي قدّمه باعتباره حديثا نبويا شريفا، ((أخرج بن الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرج ابن الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كان ... كان أوّل شأن الاسكندرية أنّ فرعون اتّخذ بها مصانع ومجالس وكان أوّل من عمرها وبنى فيها فلم تزل على بنائه ومصانعه إلى أن

تداولها الملوك ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون، فلمّا ظهر سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام على الأرض اتّخذها مجلسا وبنى فيها مسجدا. ثمّ إنّ ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم إلّا بناء سليمان بن داود لم يغيّره ولم يهذمه وأصلح ما كان خرب منه وأقرّ المنارة على حالها ثمّ بنى الإسكندرية من أوّلها بناء يشبه بعضه بعضا ثمّ تداولتها الملوك من الروم وغيرهم ما من ملك إلّا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به وينسب إليه. قال ابن الحكم ويقال أنّ الذي بنى منارة الإسكندرية قليوبطرة الملكة. وهي التي ساقت خليجها حتّى أدخلته الإسكندرية ولم يكن يبلغها الماء قال ويقال أنّ الذي بنى الإسكندرية شدّاد بن عاد.))[29]. هذا النصّ ذكر الشخصية التي عمرت وبنت الإسكندرية وعمرتها بالمصانع والمجالس. ثمّ أبرز الشخصية التي بنت المنارتين في الإسكندرية. وفي العنصر الثالث من النصّ التاريخي يكشف عن دور سيّدنا داود عليه الصلاة والسلام الذي اصطنع وجعل فيها المجلس وأقام بها المسجد .

وعندما حلّ بها ذو القرنين[30] اتّخذها ملكا له، وحطّم وأسقط ماكان فيها من تشييدات الملوك والفراعنة ولم يترك فيها إلّا ما أقامه سليمان عليه الصلاة والسلام من تشييدات ولم يهدمها

[29] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 648، 649.

[30] – عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، مصر. ط / 1 . 1416 هـ – 1996 م : ذو القرنين: ((... وأيّا ما كان الأمر فإنّه ملك صالح مكّن الله له في مشارق الأرض ومغاربها وورد ذكر قصّته في القرآن الكريم للإرشاد والتعليم ردّا على سؤال المشركين بإيعاز من اليهود ارسول الله صلّى الله عليه وسلّم، جيث إنّها من الأحبار التي يعرفها أهل الكتاب، فذكر الله قصّته في القرآن حقذا وصدقا)) ص 93. وقد تناول الكاتب رحلة ذي القرنين من ص 92 إإلى 98. (رحلته إلى المغرب، إلى المشرق، الرحلة الثالثة) .

ولم يزد أو ينقص فيها بل أتمّ ما اعتراها من نقص وتبديل. كما يذكر النصّ أنّ ذا القرنين أعاد تعمير الإسكندرية وأقام بها بناء يشبه بعضه بعضا.

وبعد هذا العهد انتقلت الإسكندرية من ملك إلى آخر، وما من واحد إلّا وقد ترك أثرا ودليلا يتذكّره به الناس. وقد تابعنا من قبل أنّ " دلوكة بنت زبا " هي التي بنت المنارتين، وفي هذه المرّة يذكر أنّ التي بنت المنارة هي الملكة " قليوبطرة ". وفي آخر النصّ نلحظ أمرا آخر فبعد أن أوضح وانتهى من ذكر الذين اسهوما فيبناء المدينة عاد ليكشف عن اسم شخصية جديدة، هي التي بنت الأسكندرية ورفعتها والمقصود هنا شدّاد بن عاد.

المصادر:

ما سجّلناه حول النموذج التاريخي السابق حول مصر وخاصّة الإسكندرية أنّه اعتمد على مجموعة من المصادر، نذكر منها: – حسن المحاضرة افي أخبالر مصر والقاهرة. تأيف لسيوطي الحاغظ جلال الدين السيوطي (849 هـ 6 911 هـ) – الرحلة الناصرية الكبرى تأليف أبي علد الله محمّد بن عبد السلام الناصري (1239هـ – 1823 هـ) – مروج الذهب تأليف أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي. – صاحب مباهج الفكر ومنابع العبر تأليف محمّد بن إبراهيم الوطواط (632 م – 718 م) – ابن المتوج (إيقاظ المتغفّل من العجائب) – الرحلة العياشية: أبو سالم عبد الله بن محمّد بن أبي بكر العياشي (1037 هـ – 1090 م) . من بعد ذكره للأحداث التاريخية السابقة سجّل أحداثا أخرى: ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة والسلام (ص 660). ذكر من ملك مصر قبل الطزفان (

ص 661). ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصر. ذكر عجائب مصر القديمة (ص 664).

ومن النماذج التاريخية التي تعرّض لها: فتح مصر في عهد عمر استولى عليها عمرو بن العاص: (ص 665). خلافة عمر، خلافة أبي بكر. غزوات عثمان، علي. الحسن. عمر بن عبد العزيز. مروج الذهب. الدولة العباسية: السفاح: (ص 686). في الدولة الأموية لم يذكر إلّا عمر بن عبد العزيز. وفي الدولة العباسية ذكر سائر الحكّام.

وقد حضر المضمون الجغرافي متداخلا مع الجانب التاريخي في عدّة مواضع من الرحلة، منها:

- ((وكانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض وهي موضع المنارة والاها والإسكندرية، وهي موضع قصبة الإسكندرية اليوم وهيطة وكان على كلّ واحد منها سور وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهنّ جميعا وأخرج ابن عبد لاالحكم عن عبد الله بن طريف الهمذاني قال كانت على الإسكندرية سبعة حصون وأخرج أنذ ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخّمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد والحمرة))[31] قالاسكندرية مدن قبل أن تكون واحدة بها منارة وقصبة وهيطة وأسوار. وأصل بنائها كان بالرخام .

[31] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار . ص 649.

– ((ومن عجائب مباني أرض مصر كما قال صاحب مباهج الفكر منارة الإسكندرة وهي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرصاص على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر اسطوانات من نحاس وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض تصعد الدابة يحملها إلى سائر البيوت من داخلها وللبيوت طاقات ينظر منها لإلى البحر.))[32]. المنارة مبنية بالحجارة المصبوغة بالرصاص، والقاناطر من الزجاج.

– ((وتاجوراه هذه قرية طيبة فيها أشجار وفيها فاكهة ونخل ورمان. رمانها لا نظر له فيما رأيت إلّا في مواضع قليلة وقد وجد في قرية أمالو فإنّ رمانها أولى من هذا وأحلى منه وفيها مدرسة كان يقرأ فيها الشيخ النعاس وبعد ذلك قرابته وقد علمت أنّ محلّ العلم محلّ عظيم عند الله سجب تعظيمه شرعا فإنّهم قوم لا يشقى بهم جليسهم نعم صلّيت الظهر فيها وذهبنا منها.))[33]. في ذلك وصف لمدينة تاجورء وفيها من مواد أولية طبيعية ومراكز تعليمية وتعبّدية.

– ((ثم إنّ ساحل حامد بلدة طيبة ذات زيتون ونخل وعمارة يبدو حسنها للرائي وهي في رأي العين لا نظير لها لكثرة مائها واتّساع ارضها مع استوائها وجودة ترابها فبساتينها روضة من الرياض مجدولة جداويل مع استواء بيوتها وتحسين أضلاعها فإنّ المرء إذا وصلها زال عليهم الهمّ والنكد لأنّ رؤية الخضرة والبحر والوجه الحسن تزيل الهمّ عن القلب وتفرج الغمّ عن الصدر وفي هذا الساحل أفاضل أحياء وأموات))[34] . هذا وصف جديد بلغة جديدة وصور أنيقة وظلال

[32] – المصدر نفسه. ص 651.

[33] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ص 213.

[34] – المصدر . ص 220.

رائعة ، وصف آخر لقرية وما تزخر به من ثروات مائية وترابية ورياض وبساتين، ومن أشجار الزيتون وفاكهة الرمان.

هكذا يتجلّى لنا من خلال رحلة " الورثيلاني " أنّ عددا من الرحلات كانت تحرّكها ((دوافع دينية: كأن يرتحل إلى الأماكن المقدّسة تلبية لنداء الرحمن توبة وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب وعهدا للسير على الصراط المستقيم وأملا في المغفرة ومن قبيل ذلك التبشير بالدين أو زيارة المقابر... و دوافع علمية أو تعليمية بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم ذاع صيتها في مجالات العلوم كالفقه والطبّ والهندسة والعمارة وغيرها ... وأيّا ماكان من الرحلة فإنها في أعلب الأحوال سلوك إنساني حضاري يؤتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها. وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كلنت عليه قبلها))[35].

وهذا الدافعان الديني والعلمي أفضيا إلى ثمرات وفوائد لا تحصى من تاريخ وجغرافية ومعارف دينية وأدبية. وما تركه لنا الورثيلاني وأصحابه الرحالين ((من أثر تقاييدهم في السفر يتفاوت قيمة وأهمّية بطبيعة الأمر. لا من من ناحية الوجهة والغاية، بل من ناحية التحقيق والتحرير وشدّة الرغبة في الاطّلاع على حقائق الأشياء وأصولها، وكان علماء نبهاء من بين هؤلاء الحجيج يدوّنون مشاهداتهم فيصفون تجوالهم في مختلف الأقطار ويسجّلون الأحداث التي عرضت لهما مدّة ترحالهم تخليدا لذكراهم وهداية لإخوانهم وبقية مواطنيهم وتعريفا بالمسالك التي

[35] – فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة. ط /2. 1423 هـ – 2002 م . ص 19 ، 20.

يجب سلوكها أو المهالم التي ينبغي أتّقاؤها.))[36]، لذا كان أدب الرحلة مفتوح لاعلى سائر الفنون والمعارف.

ثانيا: من مضامين رحلة " ابن حمادوش " :

شخصية " ابن حمادوش " متعدّة الاختصاصات العلمية في المنطق والتوحيد في العلوم الطبية والرياضية وفي الشعر والنثر، واهتماماته بالطبّ كانت الأبرز ((وصف ابن حمادوش نفسه سنة 1145 بعد الأبحاث التي أجراها فقال: اليوم والحمد لله أنا عشّاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض))[37] ولعلّ عنوان الكتاب الذي أفرده (أبو القاسم سعد الله لابن حمادوش) يحمل قيمة علمية أوّلا ثمّ قيمة أدبية تاريخية معرفية ثانيا. فالعنوان الكبير هو (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري) فاستحضار صفة الطبيب أوّلا ثم بعدها نعت الرحالة شهادة من " أبي القاسم سعد الله " أنّ هذه الشخصية علمية قبل أن تكون أدبية. والعنوان ذاته يكشف لنا انّ أهمّ ما اشتهر به في الأدب هو فنّ الرحلة التي تضمّن بدوره ألوانا أدبية متنوّعة في الشعر والنثر.

1 – ما قبل الرحلة

أ – التعريف بنفسه ((الحمد لله، بسم الله الرحمن الرحيم. صلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد. يقول عبد الرزّاق بن محمّد بن أحمد بن حمادوش الجزائري الدّار والمنشأ، الأشعري عقيدة،

[36] – مقدّمة المحقق ص (ز) و (ح) عبد الله التجاني. رحلة التجاني، قدّم لها حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981م.

[37] – أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره.. ص 37.

المالكي مذهبا، الشريف نسبا.))[38]. هكذا يقدّم الكاتب الرحّالة " محمّد بن حمادوش الجزائري " نفسه مع ذكر اسم أبيه وجدّه ، فبعد ان استفتح بحمد الله تعالى وبسم الله مع الصّلاة والسلام على النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم الكريم. إنّه "محمّد وأبوه أحمد وجدّه حمادوش" من الجزائر. وقد أخذ شهرة اسمه من جدّه فلقّب وعرف "بابن حمادوش الجزائري". وهو من بلد الجزائر أصلا ومولدا، ونشأة وإقامة.

ينتقل بعد هذا للكشف والإفصاح عن هويته العقدية الدينية وهي الانتساب إلى المذهب المعروف عند أهالي في بلاد المغرب العربي الكبير باسم المذهب الأشعري نسبة إلى مؤسّسه العالم المعروف[39]، وعن مسلكه الفقهي الراجع إلى المذهب المالكي[40]، ويختم التعريف بنفسه

[38] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 29.

[39] – الأشعرية :مذهب من المذاهب العقدية الذي يهتمّ بالمسائل العقدسة من صفات وأسماء وأفعال وقضايا الغيب، كما يهتمّ بالردّ على المخالفين من المعتزلة ةالجهمية والقدرية. ((لقد كان الأشعري مؤسسا لمذهب يقال له الأشعرية وقد انفرد الأشعري عن أتباعه بآراء تميّز بها إلّا أنّه تكلّم في كلّ ما من شأنه أن يؤلّف مذهبا مبتدئا بالله وصفاته وحدوث العلم ومشكلة الصفات عامّة ...)) ص 209. و ((الأشعري هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ابن إسملعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري ولد بالبصرة سنة 260 هـ.)) ص 165. النصّان من كتاب جلال محمّد عبد الحميد موسى، نشأة الأشعرية وتطوّرها. دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان. 1982 م.

[40] – المذهب المالكي : ((المذهب المالكي هو أحد المذاهب الإسلامية المعتبرة. نشأ في القرن الثاني الهجري، ومؤسّسه هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي المتوفّى سنة 179 هـ. ويعدّ مطهبه مدرسة مستقلّة بين المدارس الفقهية الاجتهادية التي استمرّت حتّى عصرنا... انتشر مذهبه منطلقا من المدينة المنوّرة موطن مالك، ولقي القبول شرقا وغربا . وينتشر هذا المذهي في شمال إفريقيا وبلاد المغرب العربي والساحل الغربي لإفريقيا وبلاد السودان والإمارات العربية المتّحدة.)) محمّد المختار المالكي مدارسه ومؤلّفاته، خصائصه وسماته. مركز زايد للتراث والتاريخ. العين، الإمارات العربية المتّحدة. ط /1. 1422 هـ – 2002 م. ص 7.

بكون نسبه الأصلي يعود إلى سلالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتقديم الرحالة " محمّد ابن حمادوش الجزائري " لنفسه في بداية الرحلة لم نألفه عند أصحاب الرحلة الجزائريين الآخرين. هذا التصريح بالنسب والأصل، وبالعقيدة والمذهب الفقهي، يريد أن يرسل للقارئ من خلاله أنّ هذا هو أنا، فاعرفني وتابعني فيما يصدر عنّي من أخطاء أو مخالفات عقدية أو فقهية أو ما ينافي مسارات سنّة النبيّ وهديه صلّى الله عليه وسلّم.

وقد يكون هذا التقديم ردّا على من يقدّمونه بخلاف ما ذكر وبيّن. ويلاحظ أنّ الرحالة " ابن حمادوش " لم يذكر شيئا عن التصوّف وما يتعلّق به.

ب – عنوان الرحلة ودخول محرّم 1156 هـ ((الجزء الثاني من رحلته (لسان المقال في النبإ عن الحسب والنسب والحال)، من أوّل ليلة الإثنين فاتح عام 1156 هـ عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية، وخامس شهور سنة 2054 إسكندرية))[41] . يفصح في هذا النصّ عن عنوان رحلته (لسان المقال في النبإ عن الحسب والنسب والحال)، ويبدو لأوّل وهلة أنّ العنوان صعب الفهم، مفرداته بدورها تتّسم بالعموم والسّعة. وقد لا ينطبق على مضامين الرحلة. بعد هذا يحدّد تاريخ سفره ورحلته.

[41] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 29.

أهمّ ما في هذا النصّ هو قوله بأنّ هذا الكتاب الذي يحرّره لا يمثّل الرحلة بأكملها، وإنّما هو الجزء الثاني من الرحلة. يستفاد من هذا أنّ الرحلة مكوّنة من أجزاء. وحسب المهتمّين بأمر الرحلات الجزائرية فباقي أجزاء الرحلة مفقودة، من حيث وجودها كمخطوط.

ت – المؤلّف يبلغ 48 سنة: ((وأوّل درجة من الساعة الرابعة من افتتاح سنة 48 ثمانية وأربعين عجمية من ولادتي قبل غروب الشمس بثلاث ساعات ، اعتدالية من يوم الأحد، فيسبق افتتاح سنة العجمية على سنة العرب بثلاث ساعات، وهذه نصبتها، وضعت لتحويل الشمس لنقطتها لوقت ولادة كاتبه لمضي سبعة وثلاثون (كذا) درجة ونصف من زوال يوم الأحد فيكون لمضي عشرة أدراج وسدس من ساعة الزهرة.))[42] . وفي هذه الفقرة يبلغنا عن سنوات عمره والمتمثّلة في ثمانية وأربعين سنة. المعلومات الحسابية والفلكية التي ساقها مقترنة بعمره يدلّ على أنّ هذه الرحالة له سبق اطّلاع بالحساب والفلك.

2 – المؤلّف عند جبل طارق: ((وفي هذه الساعة كنّا على ظهر البحر، قريبا من غرناطة، وكان عاشر خروجنا من الجزائر، والإثنين حادي عشرتا. ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق، ونحن على وجل ...))[43] . يعطي لمتلقّي رحلته الوقت الذي كان فيه على سطح البحر، والمدّة الزمنية التي استغرقتها الرحلة، والمكان الذي رسا فيه المركب بجبل طارق، ولم يغفل وصف الحالة النفسية التي كان عليها هو وأصحابه، وهي حالة نفسية

[42] – المصدر نفسه . ص 29، 30.

[43] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال.ص 30.

عبّر عنها بـ (الوجل)، نفهم منه الاضطراب والتوجّس والخوف الذي لامس قلوبهم وحياتهم أثناء السفر.

3 – في تطوان:

أ – دخول المؤلّف تطوان: ((وصبيحة السبت بعد شروق الشمس خرجنا من جبل طارق ، ألقينا مراسينا، وألقى بعض أصحابنا وكانوا نزلوا في الفلوكة قبل ذلك، ألقوا أرجلهم بالبرّ لمضي ثلاثة أدراج من غروب شمس ليلة الأحد. فذهبوا إلى البلد، وبتنا في المركب إلى ضحى يوم الأحد جاءنا أربع قواني كبار، فنزلت في الثانية منها إلى البرّ . وركبت دابّة وحملت ثقلي على غيرها فدخلت تطوان في أوّل الساعة السابعة وصلّيت بها الظهر جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي فسلّمت عليه.))[44]، في هذا الحلقة الأخيرة من المرحلة التي سمّيناها ما قبل الرحلة يذكر " محمّد بن حمادوش الجزائري " وقت الخروج من مضيق جبل طارق، حيث البرّ، وكان المبيت في المركب، ولم ينطلقوا إلى تطوان إلّا يوم الأحد وقت الضّحى. وعند دخوله المدينة كان وقت صلاة الظهر فصلّى الفريضة جماعة. وأوّل لقاء له مع علماء مدينة تطوان كان هو العالم الشيخ " أحمد الورززي ".

ب – الإقامة الأولى بتطوان: أهمّ الوقائع التي ذكرها في رحلته وهو بتطوان: لقاؤه بالشيخ البناني. زيارة ضريح الشيخ الريفي: حضوره دروس البنّاني، تدريسه كتاب المقنع، حضوره

[44] – الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال . ص 31.

دروس الشيخ الورززي، إجازة المرززي للمؤلف، قصيدة المؤلّف في البناني، إجازة البناني للمؤلّف، مناقشته للعلماء البناني، والورززي، إجازة السرائري للمؤلف، المؤلّف يشتغل بكتب الحديث، يقرأ ألفية العراقي على السرائري، ينسخ ويشتري كتبا في السيرة والمنطق والأدب. ولا يجد من يتقن الفلك والطبّ في تطوان.

أهمّ ما يلفت الانتباه في هذا الطور من الرحلة ذكره ما ورد في الفهرس الذي سلّمه له الشيخ البنّاني. وهو يحتوي على ما يلي: الشيوخ الذين أحذت عنهم: شيوخ البناني: (محمّد الفاسي، أحمد بن العربي بن الحاج، محمّد بن أحمد القسمطيني الكماد، العربي بن أحمد بردلة، الحسن بن مسعود اليوسي، أبو مدين بن الحسن المكناسي، عبد السلام القادري، علي بن محمّد بركة التطواني، سعيد الحميري، محمّد بن أحمد المنساوي الدلاني، عبد الله التجمعوني، أحمد بن محمّد بن ناصر الدرعي، أحمد بن يعقوب، محمّد بن عبد الرحمن التازي، محمّد بن محمّد الفاسي، محمّد بن الصغير، محمّد بن قاسم بن زاكور). كما عرض ما في الفهرس من أسماء علماء المغرب الذين أجازوا البناني، وكذلك أسماء علماء المشرق الذين أجازوه.[45]

4 – إقاماته ببعض مدن المغرب الأقصى:

أ – الإقامة في مكناس :

[45] – ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. من ص 40 إلى 62.

أهمّ ما ينبغي الوقوف عنده في هذه الإقامة هو كتابته لمقامتين، الأولى في وقت خروجه من تطوان إلى مكناس، والثانية في لحظات نزوله بالفندق ما كان فيه من هرج ومرح. والأمر المهمّ الآخر هو حديثه عن تلك الغرائب التي رآها في الطريق بين تطوان ومكناس. من الناحية العلمية يذكر التقاءه بعلماء مكناس ومنهم " سيدي عبد السلام القباب "، ويعلمنا بقراءته لمقامات الحريري (وهذه كانت آخر ما أقدم عليه في مكناس). وفي هذه الإقامة بمكناس يبيّن ما وقع في ثورة الحاكم، وخبر انتصار السلطان عليه.

ب – إقامته بفاس:

في هذه الإقامة يلتقي بالمنجّم " القسنطيني "، ينظم قصائد في الحكيم " أدراق " وفي الحمّى وفي الشيخ " ابن المبارك "، يتحدّث عن عادة المولد في فاس والجزائر، يصاب بالحمّى ويعالجها. الحدث العلمي البارز في إقامته بفاس هو قراءته على الشيخ " ابن المبارك " . وقد أخبرنا أنّه تحصّل على إجازة من الشيخ، وشهد له بها القاضي " بوخريص ". ولم يفوّت على القارئ نبأ وفاة الشيخ "ابن المبارك" وحضور جنازته، وكذا نظمه مرثية فيه حبّا وإجلالا[46].

ينتقل مرّة أخرى إلى ثورة الرّيفي وأعمال السلطان بعد مقتل الريفي. وفي السلطان " عبد الله " يبلغنا أنّه نظم قصيدة. في آخر إقامته بفاس يبيع سلعته. ويغادرها واصفا مشاهداته في الطريق.

[46] – ينظر: الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال من ص 80 إلى 91.

ت – إقامته الثانية بتطوان:

بعد إقامته في مدينة فاس، عاد محمّد بن حمادوش الجزائري إلى مكان الإقامة الأولى وهي مدينة تطوان. وفي هذه الإقامة روى لنا قصّة من كتاب الدرّ الفائق، وبعض أخباره بالمدينة، وخبر وصول سفينة من الجزائر إلى تطوان. وذكر لنا قراءته لكتاب روضة الأزهار على يد عبد الله جنان، هذا الأخير نظم فيه الرحّالة قصيدة نونية طويلة يمدحه فيها كما يذكر فيها مباهج تطوان وسحرها مع كيتان. كما كشف لنا اشتغاله بعلم الفلك وتصنيفه فيه، ورصده للنجم الشعاعي ووصفه له. لم يغفل عن وصفه ليوم العيد بتطوان.

وفي الأيّام الموالية لذلك ينظم قصيدتين في الحنين إلى أهله بالجزائر بعد أن غلبه الشوق، وغمره الهوى والحبّ. وفي آخر أيّام الإقامة بتطوان يخبرنا بتأليفه في الرزنامة وشراءه بعض الكتب. وعند الشروع في مغادرته تطوان إلى الجزائر يقوم بإحصاء سلعته بعد أن تهرّب من دفع المكس في مرسى تطوان. ووصف المدن التي أقام فيها يدلّ أنّ الرحلة قد ارتبطت ((بكثير من أعمال التراث العربي في جوانبه المتعدّدة. ففي المجال الكشف الجغرافي ووصف الأقاليم مثلا لعبت الرحلة دورا كبيرا فيما تضمّنته تلك الأعمال من معرفة وبيان أضحيا الآن تراثا تفخر به الأمّة العربية الإسلامية، ويشيد بقيمته الدارسون والباحثون والأجانب.

وتأكيدا لدور الرحلة في التراث الجغرافي للعرب والمسلمين فإنّ "عبد الله محمّد أحمد المقدسي" أحد أقطاب الجعرافيا العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يؤكّد أهمّية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي من أجل المعاينة وجمع المادّة العلمية التي سجّلها في كتابه

الشهير " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "))[47] ، وقد أكّد " ابن حمادوش " على هذا الجانب الجغرافي بطرق مختلفة وأساليب متنوّعة.

5 – الرحّالة " ابن حمادوش ": بين التجارة والعلم والتسجيل :

أ – التجارة :

– سلعة المؤلّف : ((وكان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تونة ششية تونسي، وسبعة عشر حزام حرير وقصاب زبد، فأخد في المكس منّي حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاسية زوج تزينات وواحدة، وجملة سراميتي في هذه السفرة المباركة ثمانون ومائتا سلطاني ذهبا، منها ثمانية وعشرون قراضا واثنان وخمسون ومائتان لي))[48]. هذه هي السلعة التي جلبها معه "محمّد ابن حمادوش الجزائري" من الجزائر إلى بلاد المغرب الأقصى. وهذه السلعة منها ماهي مرسولة، ومنها ماهي لأصحابه، ومنها ما هي له. وإذا نظرنا نظرة إجمالية إلى مجموع السلعة فهي قليلة، ليست سلعة لكسب المال الكثير، وإنّما هي سلعة أتى بها ليقضي بها مختلف حوائجه في المغرب، ويسدّ بها مختلف النفقات المترتّبة عن التنقّل من مدينة إلى مدينة، وعن الفنادق، وعن الأكل والشراب ... فرحّالة همّه وغايته التجارة لا يصطحب معه هذه السلعة الخفيفة. والحديث عن هذه السلعة التي قدمناها في النصّ السابق أورد الرحّالة الحديث عنها في بداية الرحلة فور وصوله ميناء تطوان.

[47] – حسين محمد فهيم، أدب الرحلات. عالم المعرفة ، الكويت. 1989 م. ص 84، 85.

[48] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 32.

في مقابل ذكره للسلعة في البداية، تناول الحديث عن السلعة في نهاية الرحلة غداة توجّهه إلى الجزائر. وهذه السلعة اصطحبها معه من المغرب إلى الجزائر ((فكتب له ورقة مضمنها، بعد السلام والدعاء الصالح، وأن جملة ما عندي مائة ذراع مغربية وخمسة أذرع ملف شكرناط أي أحمر. لكن الوصف لم أكتبه في ورقتي، وربع قنطار ونصف وربع قشينية، والسلام عليك ...))[49] . هذه السلعة وما فيها يبدو عليها هي الأخرى أنّ الغرض الأكبر من حملها ليس غرضا تجاريا خالصا بغرض الربح وتكثير المال، وإنّما كلّ ما في الأمر بيعها لا سترجاع بعض المال الذي صرفه في الرحلة، والمال المتبقّي ليكفل به حاجة أهله وليقضي عنهم الديْن . وفق ما ذكرناه فغرض الرحلة لم يكن تجاريا.

ب – العلم :

– أوّل حدث في الرحلة علمي : ((فدخلت تطاون وصلّيت بها الظهر مع الجماعة، ثمّ ذهبت إلى بيتي. وكنت أنظم قصيدة لأدفعها للشيخ محمد البنّاني، ففي يوم السبت دفعتها له حين افترقنا من قراءة البخاري. وكان أوّل يوم حضرت درسه من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس. وكان يدرّس بجامع زاوية سيدي محمد بن ناصر. ووجدته في كتاب الدعوات. وكان مسمعه سيدي محمد بوزبع التلمساني... وكان له درس في الضّحى يقرأ سيدي خليل في فقه الإمام مالك، فصرت أحضره ... وفي يوم الأحد الموالي لهذا السبت أبتدأ ختمة في صغرى

[49] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 112، 113.

سيدي محمّد السنوسي، فكان يحقّق العقائد للنّاس جزاه الله خيرا. وفي يوم الأربعاء أذن لي الشيخان البناني والورززي أن أدرّس المقنع فابتدأت ختمة للطلبة.)) [50] .

هذه أولى اللحظات التي عاشها في تطوان، وهي لحظات كما تظهر لنا بوضوح ذات طابع علمي خالص. يحضر فيها لقراءة (صحيح البخاري)، وقراءة (سيدي خليل في الفقه المالكي)، و (ختمة صغرى سيدي امحمد السنوسي في التوحيد). الأمر لم يقف عند القراءة والدراسة والحضور لتلقّي العلم، بل انتقل إلى تدريس كتاب المقنع وختمه للطلبة بإذن من الشيخين البنّاني والورززي. وهذا يكشف عن الثقة العلمية الكبيرة من الشيخين في علمه وحفظه وعدالته. وهمّ العلم والانشغال بالتّزوّد منه عند محمّد بن حمادوش الجزائري في مدينة تطوان لم يقف عند الحدود التي أوضحناها، وإنّما هناك زيادة في ذلك نذكرها فيما يلي:

– حضوره دروس الشيخ الورززي في االتفسير والفقه والحديث.

– إجازة الورززي : ((فأجزته أن يروي عنّي الكتب الستّة، أعني البخاري ومسلم وأبا داوود والترمذي والنسائي وموطّأ الإمام مالك، ومسند أحمد بن حنبل ... وكذا أجزته بكلّ ما صحّت لي روايته من جملة ما في فهرسة الإمام ابن غازي المكناسي ثمّ الفاسي، وكذا ما في فهرسة الشيخ بن محمّد بن سليمان السوسي ثمّ المكّي، وما في فهرسة الشيخ إبراهيم الكردي ثمّ

[50] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 33، 34، 35.

المدني، وغير ذلك ممّا صحّ لي ولم أتتبعه بالتنصيص مخافة السّآمة.))[51]. وفي ذلك تقدير علمي كبير للعالم " ابن حمادش " وإقرار عظيم بالمكانة العلمة التي يتبوّؤها عند العلما المغربيين .

– إجازة البناني ((فإنّ الفقيه الأجلّ العلّامة الأفضل المدرّس الأحفل، الشريف الأمثل السيّد عبد الرزّاق الجزائري قد تردّد في طلب العلم الشريف وحضر لدي في غير ما درس للعلم المنيف ... أجزت الفقيه المذكور جميع ما يجوز لي وعنّي روايته مقرؤ ومسموع ومجاز... إجازة تامّة مطلقة عامّة...))[52] . وهذه شهادة أخرى على تحصيله العلبمي في ميدان الفقه الإسلامي.

– إجازة السرائري للمؤلف: ((... فأجزته فيما سمع، وفي غير ذلك ممّا يصحّ لي وعنّي روايته إجازة تامّة عامّة ...))[53] . اعترتف علمي وشهادة لله وللتاريخ.

هذه الإجازات[54] من عند الشيخ البنّاني، والورززي، والسرائري قيمتها ليس في ذاتها وما كتب فيها، وإنّما في شهادتها العلمية الصادقة الخالصة فيما تعكسها من تحصيل علمي كبير وفّق إليه محمّد بن حمادوش الجزائري من علوم شرعية مختلفة ومن معارف في التاريخ والمنطق والأدب،

---

[51] – المصدر نفسه. ص 37، 38.

[52] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 62، 63.

[53] – المصدر نفسه. ص 68 .

[54] – الإجازة : ((والإجازة لغة مأخوذة من جواز الماء الذي يسقاه المال من الماشية والحرث، ويقال ايتجزت فلانا فأجازني إذا سقاك ماء لأرضك أو ماشيتك، كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه رواية علمه فيجيزه في ذلك)). محمّد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه. المؤسسة الوطنية للكتاب، وحدة الرغاية، الجزائر. 1989 م. ص 207.

كما تعكس الروح الوثّابة للتضحية من أجل طلب العلم واكتسابه، والإنسان الذي يغادر بلده في رحلة لا يريد مكسبا ولا مغنما، وإنّما يريد العودة إلى بلده زارعا باذرا، ناشرا معلّما، بانيا مشيّدا.

ومن وجهة أخرى تعرّي هذه الإجازات الأوضاع العلمية المزرية التي عاشتها الجزائر آنذاك في العهد العثماني. فالمغاربة بالرغم من الظروف الصعبة التي كابدوها على مختلف الأصعدة كان لهم اهتمام بالعلم كبير لا يضاهى. لو كانت للعلم في الجزائر العثمانية صروح وقلاع ومنارات هل كان محمّد بن حمادوش راحلا إلى المغرب طالبا للعلم مجاهدا في سبيله؟ هل كان سيقدّر ذلك التقدير الذي لاقاه في المغرب من قبل الشيوخ والعلماء بمختلف تخصّصاتهم وتوجّهاتهم؟

– إلى جانب التعلّم والتدريس ونيل الإجازات المشرّفة، نلتقي بالرحّالة في آخر أوقاته أثناء إقامته الأولى بتطوان طالبا للعلم بشكل جديد، وهو الأقبال على شراء الكتب ونسخها، ((أوّل يوم منه (صفر) أخذت المنوي على ألفية العراقي وحاشية سيدي عبد الرحمن الفاسي على البخاري، كلاهما بمثقالين عدة. وفي يوم الخميس ابتدأت نسخ نسحة من ألفية العراقي على السيرة المحمّدية. ثمّ اشتغلت بالنسخ، فنسخت ألفية العراقي، تممتها يوم الثلاثاء سابع صفر، وتممت قبلها يوم الاثنين ابن فارس على أحوال المصطفى، ومعها السوسي على الدجاج والرؤوس والبيض. ويوم الأربعاء تممت نصّ ايساغوجي — منطق – ، والسيوطي في أجداد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وفي يوم الخميس تممت منظومة السيوطي أجداد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . ويوم السبت تممت نسخ مختصر السنوسي في المنطق بلا شرح، وشيخ الاسلام على

المنفرجة. ويوم الثلاثاء زرت سيدي علي الريفي. ويوم الأربعاء تممت حاشية سيدي حسن اليوسي على المولات في المنطق. وفيه أخذت الجزء الثالث من الاكتفاء سيرة الكلاعي. ويوم الخميس اشتريت مقامات الحريري بخمسة أواق موزونات. فهذا جميع ما حصلت في تطوان ... وسألت عن علم الفلك فلم يكن له متقن ... وأمّا في الحساب والطبّ والهندسة فلم أر من يبحث عنها فضلا عن من يتقنها.))[55] .

لم نجد عالما من العلماء من علماء الرحلات الجزائرية حريصا كلّ هذا الحرص على طلب العلم وتحصيله، من خلال الحرص على اقتناء الكتب وشراءها، وكذلك على نسخها في بلاد الغربة مع قلّة وفرة الإمكانات المادية والمعنوية، إنّ هذا ليتطلّب همّة وحبّا، ورغبة وتعلّقا، وصبرا وحبسا، وتضحية وتجرّدا. والأمر المؤكّد من وراء شراء الكتب ونسخها أنّ تطوان والمدن المغربية كانت تتوفّر على ثقافة الكتاب والمخطوطات في مختلف المراكز العلمية والرسمية والشعبية من المكتبات ودور النسخ في بقاع المدينة والمساجد والزوايا.

إذا عدنا إلى النصّ السابق فسنجد أنّ الكتب المشتراة هي (للمناوي والفاسي والحريري). أمّا المصنّفات التي نسخها فهي (للعراقي، وابن فارس، والسوسي، وإيساغوجي، والسيوطي، السنوسي، وشيخ الإسلام، وحسن البوسي).

[55] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 69، 70، 71.

نستنتج من هذا أنّ عدد الكتب التي نسخها تفوق كثيرا عدد الكتب المقتناة. وقد انتبهنا إلى اختصاصات المؤلّفات فوجدناها تنتمي إلى المنطق، النثر الأدبي (المقامات)، شرح الشعر (قصيدة المنفرجة)، التّاريخ (أجداد الرسول صلّى الله عليه وسلّم)، السيرة النبوية. وبحثا منه عن الاختصاصات العلمية الدقيقة مثل الفلك والطبّ والهندسة فلم يجد لها أثرا بمدينة تطوان.

بعد تتبّعنا للتواريخ أحصينا المدّة الزمنية التي استغرقتها هذا عملية النسخ خمسة عشر يوما. ضحّى بكلّ شيء إلّا البذل في سبيل العلم. منزلة العلم عند الرحّالة ابن حمادوش عظيمة، ومكانته في عقله وقلبه كبيرة، تهون في سبيلها كلّ الحاجات والمطالب، والشهوات والرغبات. وفي ذلك درس كبير لكلّ مسافر مثقّف.

– آخر حدث في الرحلة علمي:

ورد في هذا النص : ((وفي يوم السبت السادس عشر اشتريت شمائل الترمذي وشرحها لابن مخلص. واشتريت مفيد الحكّام لابن هشام. وفي يوم الأحد اشتريت مختصر القويني والدواني، ومضحكات ابن عاصم. وفي الثلاثاء الثاني عشر من الشهر المذكور الموافق لثالث عشر من فبراير انتهاء سنة 48 من ولادتي عجمية. وفي يوم الثلاثاء السادس وعشرين من محرّم ختمت حضرة الارتياح لابن الخطيب السلماني في الأدب، لم أقيّد بداءته. وفي يوم الأربعاء ختمت حدائق الأزهار لابن عاصم. وفي يوم الخميس اشتريت ميارة على لامية الزقاق، وختمت

أنس العشيق في الأدب، لم أقيّد بداءته. وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين من الشهر المذكور ختمت لامية الزقاق.))[56] . وفي هذا جهد كبير ومقصد عظيم .

حسب ما قدّمه من تاريخ للمرويات في هذا النصّ فهذه المشتريات والختمات والتأليف كلّها وقعت في شهر محرّم أي قبل مغادرته تطوان إلى رحاب وطنه الجزائر في شهر صفر. هنا كان كذلك الشراء للمؤلّفات، وهي متنوّعة والطريف فيها هو كتاب المضحكات لابن عاصم. وكان التأليف للروزنامة، ممّا يكشف عن نزوعه العلمي نحو الحساب والفلك.

وقد حدث في هذا الشهر الحرام أنّه قد وفّق إلى عدّة ختمات لآثار عديدة هي حضرة الارتياح، وحدائق الأزهار، وأنس العشيق، ولامية الزقاق. هذا الختم لهذه الكتب الجليلة ينمّ بقوة ووضوح أنّ الرجل كان في إقامته عاكفا على العلم متعبّدا به الله سبحانه وتعالى. وختمة الكتاب عند القدماء من بين الوسائل التي بتمّ بها نمو العقل علميا، إلى جانب عوامل أخرى لا تقلّ أهمّية عنها مثل الحفظ، والمذاكرة، والسماع، ((وطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار من أوّل السبل لطلب العلم في تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما تصنعه اليوم من تتبّع المراجع والمؤلّفات، التي تزدحم بها خزانات الكتب الخاصّة والعامّة. وفضلا عن ذلك فقد تعدّدت مراكز الثقافة في ديار الإسلام ، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم إلى آخر، يدرسون من مشاهسر الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدّثين

[56] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 110 ، 111.

واللغويين ثمّ الأطبّاء والفلاسفة والرياضيين))[57]. وتندرج رحلة ابن حمادوش في هذا الإطار العلمي فلقد كانت رحلة علمية بامتياز في أغلب أحداثها ومشاهداتها.

ت – ثورة الريفي :

إلى جانب اهتماماته العلمية توجّه " محمّد بن حمادوش الجزائري " في تسجيل الفتنة التي وقعت بين حاكم تطوان والسلطان عبد الله، وهي قضية سياسية تتعلّق بالواقع المغربي وبالضّبط واقع تطوان وفاس ومكناس. فقد وصف ثورة الحاكم على السلطان وفصّل في أسبابها وغاياتها. بعد هذا تناول خبرا عن انتصار السلطان. ثمّ عاد إلى الكلام عن ثورة الريفي.

وبعد هذا وقف الرحّالة عند أعمال السلطان بعد مقتل الريفي، وكان ختام هذا المضمون السياسي التاريخي قصيدة نظمها " محمّد بن حمادوش " في مدح السلطان "عبد الله"[58]. فكاتب الرحلة كان يعيش الواقع في مجموعه، إنّه لم يعش منعزلا عن الواقع، ولم يكن منفصلا عنه، كما أنّه لم يكن متردّدا فقط على المساجد والمكتبات والعلماء والشيوخ.

6 – وصف تنقلاته من مدينة إلى مدينة:

ما لا ينبغي إغفاله عند حديثنا عن مضامين "رحلة ابن حمادوش" هو تلك الخطابات الواصفة، منها ما رآه في الطريق بين تطوان ومكناس، وما شاهده من أمور غريبة وقت خروجه من فاس،

[57] – زكي محمّد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر. 2013م. ص 10.

[58] – ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 75، 76، 77، 78. و 91، 92، 93. و 95، 96، 97، 98 .

وما سجّله عندما عزم عائدا للمرّة الثانية إلى تطوان[59]. كما اهتمّ الرحالة " ابن حمادوش " بوصف عيد الأضحى المبارك في مدينة تطوان، وزينة أهل مدينة فاس رجالا ونساء.

إنّ الرحّالين القدماء ((كانوا يجوبون الآفاق على ظهوز الجمال والبغال أو صهوات الخيول ويهدرون أعمارهم المحدودة قبل أن يؤوبوا إلى ديلرهم لكي يعكفوا على تدوين رحلاتهم، ويقدّموا للأجيال حصائد تجوالهم المترع بالرؤى والخبرات.))[60]، بكلّ صدق وحبّ، وبكلّ تضحية وتجرّد. ولما كان من بين اهتمامات الرحّالين هذا التسجيل العلمي المعرفي المقتدر ((بوصف المسالك والممالك والعجائب والرحلات ولذا سمّيت بالجغرافيا الوصفية))[61] في بعض جوانبها ومضامينها .

7 – أشعار:

تضمّنت رحلة " ابن حمادوش " عدّة أشعار منها:

أ – قصيدة في الحنين إلى الأهل[62]: ((فرجعت كئيبا محزونا لقلّة ذات يدي، لأنّ كلّ ما عندي سلعة كاسدة، لا يمكن أن يؤخذ منها خبزة، وكثرة المطر، وقلّة ما يباع واشتغال النّاس بشؤونهم

59 – ينظر : ص 73، 98، 99، 107، 94، 95.

60 – عماد الدين خليل، من أدب الرحلات. دار ابن كثير. د ب. 1426 هـ – 2005 م. ص 5 .

61 – أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون. دار البيان العربي للنشر والتوزيع. جدّة، السعودية. د ت . ص 13.

62 – ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 108، 109.

وجتماعهم وغربتي، فقلت منشدا : لقد كنت قبل اليوم أصبر صابر ... وها أنا في هذا الأوان ذليل))[63]

ب – وفي الموضوع نفسه نظم قصيدة مطلعها:

أيا أم عبد صبري تصبّري ... وأيقني أنّي على الأمر جري[64]

ت – قصيدة المؤلّف في البناني بتطوان، ومنها هذين البيتين:

سموت فلم يكن بقربك نازل فكت في أوجّ العزّ تمطر بالسؤال

وصلّ إله العرش عن خير مرسل وأفضل من حاز الشفاعة في الرسل[65]

ث – مرثية المؤلف في ابن المبارك، ومنها :

أفلت يا شمس الغرب في حجب الثرى وأبقيت فاسا في الظلام وفي الغرب

وجمـــــادي أولا في ثالث عـــشرة ورابع عشـــرة الأخير ذو الوصم[66]

ث – قصيدة في الحمّى، ومنها : :

أيا شيخنا عبد الوهاب سعادة لتعلم ما حاز الفؤاد من الحدس

وجنّبني طارق البلاء وأهله وما يلقيه الشيطان في الروع بالخنس [67]

63 – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال ص 108، 109.

64 – نفسه . ص 109، 110.

65 – نفسه. ص 39.

66 – نفسه. ص 87، 88.

والذي يمكن تسجيله في أشعار " ابن حمادوش " أنّها كانت منظومة في فنون عديدة مثل المدح، والرثاء، في المرض، والشوق والحنين للوطن والأهل. ووجود هذه الأشعار وفنون نثرية أخرة مثل الخطبة والمقامة والقصة دليل على أنّ هذه الرحلة جمعت بين الأدب والتاريخ وشتّة المعارف فحقّ للدارس أن يدرجها في فنّ الرحلة أو أدب الرحلة.

وهكذا فإنّ تاريخ الرحلات مثل ما حفظ لنا رحلات نحو المشرق ((قد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة " ابن حمادوش " التي أقوم بتحقيقها. وليس ابن حمادوش هو أوّل جزائري يتوجّه إلى المغرب. فد سبقه كثيرون كابن قنفد والونشريسي والمقرّي ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرفي. ولكنّه أوّل جزائري حسب علمنا ترك لما وصفا دقيقا لمدن تطوان ومكناس وفاس وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر,))[68] فبلاد المغرب الأقصى قد استقطبت الرحالة والعلماء والمؤرّخين الجزائريين وكانت سببا في كتابة صفحات ومصنفات مضيئة فيها الثقافة والعلوم والدين والسياحة .

ثالثا: من مضامين رحلة " ابن عمّار ":

أثناء بحثنا عن رحلة " ابن عمّار " وجدنا نسخة مطبوعة في كتاب، قدّمها الطابع والناشر لها وفق العنوان التالي: " هذه نبذة من الكتاب المسمّى، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب " إذا أردنا أن أن نتبيّن العنوان فهو واضح (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب). أضيفت إلى

67 – ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 82.

68 _ أبو القاسم سعد الله . تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. 1981. ص 204.

هذا العنوان قبله هذه الجملة (هذه نبذة من الكتاب)، يفهم من هذا ببساطة أنّ ما هو مذكور في الكتاب إن هو إلّا نبذة من مجموع الرحلة، والنبذة من ((النَّبْذ: الشيء القليل، والجمع أنباذ... ويقال ذهب ماله وبقي نبذ منه، ونبذة أي شيء يسير، وبأرض كذا نبذ من مال ومن كلإ، وفي رأسه نبذ من شيب. وأصاب الأرض نبذ من مطر أي شيء يسير))[69]، فما طبُع من المخطوط الأصلي وما نقرأه من رحلة فيه هو قدر قليل وقسط يسير من الرحلة، نستخلص أنّ ما تبقّى من الرحلة وهو الجزء الكبير الأساس في حكم الضائع ((... في رحلته (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ط) التي تعتبر في حكم المفقودة أيضا لولا نبذة منها سلمت من الضياع))[70]. وفي حدود علمنا أنّ الجزء الضائع لازال في حكم الغيب .

والقارئ لغلاف الكتاب المطبوع سيجد إلى جانب ما ذكرناه نسبته لصاحبه وفق ما يلي (العلّامة الحبر المحقّق والفهّامة البحر المدقّق، أبي العبّاس سيدي أحمد بن عمّار ، مفتي المالكية بالجزائر في عصره، رجمه الله تعالى ورضي الله عنه .) ثم بعد ذلك سنة الطبع واسم المطبعة (سنة 1330 هـ – 1903 م طبع بمطبعة فونتانة في الجزائر.). والملاحظ في هذا الغلاف التعريفي بالكتاب عدم ذكر المحقّق لمخطوط الرحلة. وبناء على ذلك فالذي يبدو لنا أنّها غير محقّقة، مع

69 – ابن منظور، لسان العرب. ج/ 14. ص 17.

70 – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي . ج / 2 . من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20 م .) وهو يدرس الإنتاج الديني والأدبي والتاريخي والعلمي خلال العصر العثماني. ط / 2 . (منقّحة) . المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر . 1985 . ص 234.

العلم أنّ أمر تحقيقها يُنسب لابن أبي شنب. إلّا أنّ هذا الأمر لا يعوّل عليه فلا يوجد دليل قوي وبرهان ساطع على صحّة ذلك.

وهذا الواقع هو الذي دفع وحفّز الباحث عبد الجليل شقرون كي يكون موضوع الدكتوراه التي تقدّم بها هو تحقيق[71] هذا الجزء من الرحلة، الذي هو في الواقع مجرّد مقدّمة طويلة فقط من مجموع الرحلة العامّة التي ألّفها الرحّالة ابن عمّار.[72] وعنوان هذه الرسالة النوعية " ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. دراسة وتحقيق ". وقد جمع بين هذا العمل التحقيقي دراسة وثيقة الصلة بالعمل المحقّق تشمل: الحديث عن الرحلة ودوافعها والرحّالين الجزائريين. بعد هذا يقدّم ترجمة مفصّلة لصاحب الرحلة أحمد بن عمّار.

71 – ((يقصد به بذل عناية خاصّة بالمخطوطات حتّى يمكن التثبّت من استفائها شروط معيّنة، فالكتاب المحقّق هو الذي صحّ عنوانه، واسم مؤلّفه ونسبة الكتاب إليه وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلّفه)) عبد السلام محمّد هارون، تحقيق النصوص ونشرها. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط /7 . 1418 هـ – 1998 م . ص 42. ((فهو عملية مركّبة تشمل جملة من أمور، وتعني أنذ القارئ قد تثبّت من نصّ المخطوطة وصوّبه، وتثبّت من خلوه من التنافضات والهفوات وعرضه على أنّه نسخة مثبتة ونهائية صالحة للطباعة.)) دزيرة سقال، تحقيق المخطوطات. الجامعة اللبنانية 2020. ص 1.

72 – فقد ورد في آخر النسخة التي طبعت بفونتانا (هذه نبذة من الكتاب المسمّى، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب العلّامة الحبر المحقّق والفهّامة البحر المدقذق، أبي العبّاس سيدي أحمد بن عمّار ، مفتي المالكية بالجزائر في عصره، رحمه الله تعالى ورضي الله عنه . سنة 1330 هـ – 1903 م طبع بمطبعة فونتانة في الجزائر.) في هامش الصفحة 254: ((قال مصحّح هذه النبذة التي خزانة أدب، هذا آخر ما وقفت عليه من ةمقدّمة هذا الكتاب النفيس، والنسخة التي نقل منها هذا المطبوع هي بقلم أحد تلامذة صاحبه الأديب البارع وعلى بعص المواضع من هوامشها خطّ المؤلّف، ولعلّه قد أتمّه لأنّه رحمه الله تعالى عاش بعد ما شرع في تحريره أكثر من ثلاثين سنة. وأظنّ أنّ نسخة توجد كاملة بالحرمين الشريفين والقاهرة وتونس ، لأنّ مؤلّفه أقام في ملذ منها عدّة سنين والله أعلم.

وقد حدّد الباحث غرضه بدقّة واعتزاز من هذا البحث المتميّز المتعلّق بالتراث الجزائري الأدبي في العهد العثماني بقوله ((وسعيا منّا للمساهمة في هذا المسار النبيل إلى الخروج بذاكرة بلدنا من دائرة النسيان جاء اختياري لموضوع تحقيق مخطوط رحلة ابن عمّار (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب) صاحبها أبو عبد الله ابن عمار الجزائري أبو العبّاس من أعلام زمانه في العلوم النقلية والعقلية والتاريخ والحديث حجّ سنة 1166 هـ. وجاور الحرم حيث ألّف رحلته الحجازية المشهورة والمسمّاة بنحلة الحبيب ولكنّها في حكم المفقودة ، إذ لم يسلم من الضياع إلّا مقدّمتها الضخمة[73].

وحقّا فإنّ هذا العمل وأمثاله يسهم إسهاما عمليا موثّقا قويا في بعث ما خفي من الثقافة الجزائرية في شتّى مجالات العلم والمعرفة وكشف ما احتوته من قيم لا تعدّ ومن مزايا جمّة، تغذّي قارئها وتنمّيه، وتبعث فيه الطموح من أجل الاجتهاد والمثابرة للوصول إلى ما وصلوا إليه وبلغوه. ولا يخفى على عاقل أو متعلّم دور التحقيق في النهضة الفكرية للأمّة، وآثاره النفسية والعلمية والخلقية على الذين يتلقّونه وينشرونه. وللتذكير فإنّ دراستنا هذه حول رحلة ابن عمّار قد اعتمدنا فيها عى نصّ نسخة الرحلة التي حقّقها الباحث عبد الجليل شقرون.

وبعد قراءة نصوص رحلة " ابن عمّار " التي حقّقها الباحث عبد الجليل شقرون أحصينا المضامين التالية فيها:

73 – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. درلسة وتحقيق. إعداد عبد الجليل شقرون. إشراف شعيب مقنونيف. السنة الجامعية 1437 – 1438 هـ / 2016 – 2017 م . جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان. ص " د " من مقدّمة رسالة الدكتوراه.

1 – الشوق والحنين. ص 118 إلى 122 .

2 – وجوب الحجّ. ص 122 إلى 128.

3 – وجوب زيارة قبر النبيّ. ص 129 إلى 135.

4 – الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر. ص 150 إلى 183 .

5 – ترجمة الشيخ ... الشهير بابن عليّ. ص 184 إلى 254.

6 – مقتطفات من أخبار المعتمد. ص 255 إلى 274.

7 – شهادة أبو زيد بابن علي . ص 275 إلى 292 .

8 – في ذكر بعض العلماء القائلين بمشروعية المولد النبوي. 293 إلى 299.

9 – في ذمّ البدع القبيحة حلال الاحتفال بالمولد النبوي. ص 299 إلى 301 .

10 – الجائز والمحرّم خلال المولد النبوي . من ص 301 إلى 303.

11 – سنّة السلف في الاحتفال بالمولد النبوي. 303 إلى 320.

12 – فضل الأيّام والليالي واللأعمال... إلى 320 337.

13 – القصيدة الشقراطسية ص 337 إلى 352 .

14 – تخميسات الشقراطسية ص 352 إلى 358.

15 – الاحتفال بالمولد النبوي في القصر الزياني ص 358 إلى 362.

– الاحتفال بالمولد النبوي سنة ستّين وسبعمئة: ص 362 إلى 365. الاحتفال بالمولد النبوي سنة ثلاثة إحدى ستّين وسبعمئة . ص 365 إلى 370. الاحتفال بالمولد النبوي سنة سنة ثلاثة ستّين وسبعمئة ص 370 إلى 372 . الاحتفال بالمولد النبوي سنة ثمان وستّين

وسبعمئة ص 372 إلى 376 . الاحتفال بالمولد النبوي سنة سبعين وسبعمئة ص 376 إلى 387 . الاحتفال بالمولد النبوي سنة إحدى وسبعين وسبعمئة. ص 387 إلى 402. الاحتفال بالمولد النبوي سنة ثمان وسبعين وسبعمئة . ص 402 إلى 421.

من خلال ما عرضناه سابقا وجدنا أنّ القضايا المطروحة في هذه الرحلة مختلفة تعكس البواعث العامّة التي تدفع الرحالة إلى القيام بهذا السفر والتجوال المدوّن، فالرحلة تتنوّع ((باعتبار دوافعها وأغراضها فنجد الرحلة الحجازية التي يكون هدف صاحبها مقتصرا على أداء فريضة الحجّ وزيارة قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ومنها الرحلة العلمية ذات الغرض العلمي والمتجلّي في لقاء الشيوخ والعلماء والأخذ عنهم والتتلمذ على روابط الصلة بسندهم، ومنها السفارية وهدفها سياسي حيث يكون الرحالة سفيرا لبلاده، إلى جانب هذه الأنواع الرحلة السياحية أو الاستكشافية التي تتّخذ من السياحة في الأرض والتعرّف على المجهول أساسا لها كما هو الحال عند ابن بطوطة.

ومن خصوصيات أدب الرحلة عموما أنّها تتّخذ الوصف عمادها والأخبار أساسها ونقل الواقع الحقيقي حتّى لتكاد وأنت تطالع رحلة من الرحلات كأنّك في ذلك العصر الذي كتبه فيه وعلى أرض تلك البلاد التي تنقل إليك أخبارها وأمام أولئك القوم الذين تحكى عنهم.))[74].

[74] – عبد الله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتّى سقوط غرناطة. أطروحة انيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي. المملكة العربية السعودية، جامعة أمّ القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، فرع الأدب. 1422 هـ – 2001 م. إشراف الأستاذ الدكتور محمد حسن زيني. ص 11.

فعلا إنّ بواعث الرحلة تتجلّى في المحتويات التي يحرص الرحالة على إثباتها كتابيا، وكلّا كثرت الدوافع وتباينت حصل الثراء الفنّي والغنى في المواضيع المعروضة، والقضايا المبسوطة. وهذا الواقع المتنوّع الكتداخل في الرحلة هو الذي جعل منها متنا تتنازعه وتحتفل به مختلف الاختصاصات، وتتناوب عليه، وتنشغل به شتّى الأقلام في العلوم الشرعية والفنون الأدبية والمعارف من تاريخ وجغرافيا وسياسة واجتماع. ومن المضامين التي اخترناها للدراسة ما يلي:

1 – الشوق والحنين.

هذا الموضوع سقناه في أوّل الأمر نظرا لكونه هو الباعث الحثيث على الرحلة وأساسها فلولاه ما كانت الرحلة. وفي هذا الشأن يصرّح ابن عمّار ((لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهدة الآثار والأخذ من الراحة بالثّأر، وأن اهجر الأهل والوطن، وأضرب في عراص البيد، وأن اخلع على السائلين الساكنين الكرى، وأمتطي ظهر السهر والسرى، لبّيت داعيها وأعطيت كريم النفس ساعيها علما منّي أن ليس يظفر بمراد من لم يتابع الإصدار للإيراد، وليس يحظى بمأمول من لم يصاحب الحمول، وليس يجني ثمر الوصل من لم يتجرّع كؤوس الفصل. ولما انبر هذا العزم وانبرم، والتظى لأعجّ الشوق وانضرم، وباح الوجد بالسرّ المكتوم، وصاح حيي على الوصل القضاء المحتوم، شرعت ذاك في المقصود وأعددت طلسم ذلك الكنز المرصود، وأخذت في أسباب السفر، والسعد عن وجه الأماني قد سقى، وإذ فقدت لذيذي العيش والوسن، وخلعت في ميدان الهيمان الرسن، وناب عن القوت وأشبه الصّبر حجر الياقوت نزلت نفسي منزلة من يفري أديم البيد. وأنشدت معجزا صدر بيت لبيد :

(ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكلّ فتاة دون ليلى عاطل)

وكثيرا ما كان يصدر عنّي في هذه الحالة من المقطّعات الشعرية والموشّحات السحرية والمراسلات الشحرية والتقريضات الزهرية ما تثيره الأشواق المغالبة وتجريه الدواعي المناسبة))[75].

فضلا عن النداء الشرعي القاضي بوجوب الحجّ على كلّ مسلم ومسلمة بعد أن تتوفّر وتجتمع الشروط الضرورية من الجانبين المادّي والبدني الذي يؤمن به " أحمد ابن عمّار " صاحب الرحلة فإنّ هناك نداءات أخرى حرّكته وبواعث أخرى دفعته وهي (الأشواق). هذه الكلمة التي صدّر بها مقالته الافتتاحية وقد أوردها في صيغة الجمع تعبّر عن موقف، ويحاول من خلالها بعث رسالة لمحيطه ولقارئي الرحلة، وهذا المقطع وهذه العبارة الجليلة هي "الأشواق".

والأشواق مفردها " شوق "، وهو ((نزاع النفس ، وشاقّني حبّها وذكرها يشوّقني أي يهيّج شوقي، فاشتقت))[76]. وكذلك ومن معاني ((شوق الشين والواو والقاف يدلّ على تعلّق الشيء بالشيء، ... وهو نزاع النفس إلى الشيء، ويقال شاقني يشوقني، وذلك لا يكون إلّا عن علق حبّ .))[77]. ونضيف إلى ما سبق من معاني الشوق ((الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء ... والشوق حركة الهوى . والشُّوق العشّاق ... ويقال شاقني الشيء يشوقني، فهو شائق، وأنا مشوق... وشاقني شوقا وشوّقني هاجني، فتشوّقت إذا هيّج شوقك))[78]، وفق هذه

[75] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. درلسة وتحقيق. إعداد عبد الجليل شقرون. ص 119، 120.

[76] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين. ج / 2 . ص 366

[77] – أحمد بن فارس، معجم المقاييس. ص 543.

[78] – ابن منظور، لسان العرب. ج / 7 .ص 256.

التعاريف المعجمية السابقة لكلمة الشوق في هذه المعاجم العربية البارزة فإنّ كلمة الشوق تدور معانيها حول: نزاع النفس، الهيجان، التعلّق، الحبّ والهوى. فالشوق نزاع النفس إلى شيء، وميلها إليه، وكذالك تعلّقها به وحبّها له وهواه، بعد أن هاجت النفس وأثيرت إثارة وتحرّكت بقوّة نحو الشيء. اشتعلت ...

إنّ " أحمد بن عمّار " عندما أراد أن يتوجّه الى أداء فريضة الحجّ كان من وراء الداعي الفقهي دواع أخرى ذات طابع روحي ووجداني، فالنفس مالت وارتبطت، بالذهاب إلى البقاع المقدّسة، وحبّها لها، وهواها إليها قد قوي واشتعل، والحنين قد زاد، والأشواق قد تزاحمت كما يتزاحم الناس في الأسواق، وتكثر طلباتهم فيها، رغبة في بضاعتها ونزوعا إلى سلعها الرائجة. فقبل الذهاب هناك حبّ كبير وشوق عظيم لمشاهدة الآثار، ولأماكن شعيرة الحجّ في مكّة المكرّمة. والآثار الموجودة في المدينة المنوّره كونها محلّ الدليل والهادي إلى الحجّ.

ويذكّر الرحّالة " أحمد ابن عمّار " نفسه وكلّ مشتاق وراغب في الحجّ بجملة من الأمور الأوّلية قبل الزاد المادّي المتعدّد، منها الاستعداد القوي للتعب والمشقّة، والصبر على الأحباب والبلد، والعزم على الحركة وبذل الجهد. وبعد أن حرّكته الأشواق والحنين، واستحضر الأسباب (لبّيت داعيها وأعطيت كريم النفس ساعيها) فكان أن استجاب قلبه وعقله لنداء الداعي إلى الحجّ. وفي قوله (علما منّي أن ليس يظفر بمراد من لم يتابع الإصدار للإيراد، وليس يحظى بمأمول من لم يصاحب الحمول، وليس يجني ثمر الوصل من لم يتجرّع كؤوس الفصل) تذكير آخر

للنفس وللأصحاب المرافقين بالبذل والاجتهاد، ومصاحبة الأخيار، وحبس النفس عن كلّ ما لا يليق بآداء شعيرة الحجّ.

مرحلة أخرى جاء دورها (ولما انبر هذا العزم وانبرم، والتظى لأعجّ الشوق، وانضرم وباح الوجد بالسرّ المكتوم، وصاح حيي على الوصل القضاء المحتوم، شرعت ذاك في المقصود وأعددت طلسم ذلك الطنز المرصود، وأخذت في أسباب السفر والسعد عن وجه الأماني قد سقى، وإذ فقدت لذيذي العيش والوسن، وخلعت في ميدان الهيمان الرسن، وناب عن القوت وأشبه الصّبر حجر الياقوت نزلة نفسي منزلة من يفري أديم البيد.)

هذه المرحلة قويت فيها الإرادة واشتدّت، وازداد الميل، وعظم الحنين، وتيقّنت أنّ الذهاب حاصل بإذن الله تعالى، صار الأمر معروفا متداولا عند سائر الناس، في هذه الأحوال بادرت في الأخذ بالأسباب، والعمل على توفير الحاجات المطلوبة للرّحلة إلى بيت الله الحرام. هنا بدأت كذلك في تهيئة نفسي على ما سيلاقيني في السفر من عسر ومشقّة، ومن كرب محتملة ومصائب متوقّعة. وفي ظلّ هذه الأفكار التي تجاذبته استحضر قول الشاعر :

(ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكلّ فتاة دون ليلى عاطل)

نفهم من استحضاره لهذا القول الشعري أنّ أحمد ابن عمّار يحضّر نفسه في رحلته للتوجّه بها إلى الله بكلّ صدق وإخلاص، وبكلّ تجرّد واحتساب، بعيد عن كلّ ما يشين ويبطل ذلك من سمعة ورياء .

وفي آخر النصّ الذي اخترناه (وكثيرا ما كان يصدر عنّي في هذه الحالة من المقطّعات الشعرية والموشّحات السحرية والمراسلات الشحرية والتقريضات الزهرية ما تثيره الأشواق المغالبة وتحريه الدواعي المناسبة) يصف ابن عمّار شوقه وحنينه إلى ربوع الجزيرة العربية المشرّفة بأمّ القرى ويثرب يكشف لنا الرحّالة " ابن عمّار " أنّ تلك الأشواق قد أثمرت ما لا يستطيع حبسه في شعوره من مقطوعات شعرية نظمها، وموشّحات بديعية بهيّة نسجها، ومراسلات مع أحبابه جميلة ساحرة، وتقريضات سنيّة حسنة. فالأشواق عند ابن عمّار أنبتت أدبا جمّا فيه الشعر والنثر بينه وبين نفسه من جهة، وبينه وبين غيره من الأصدقاء.

2 – وجوب الحجّ وفضله والحذر من تأخيره:

هذا المضمون الذي نبسط فيه الحديث الآن دو طابع مغاير عن السابق، فإن كان الأوّل عاطفيا وجدانيا بالدرجة الأولى فإنّ هذا ذو صبغة شرعية خاصة، وفيه يوضّح الرحالة ((قال الله تعالى: ﴿ إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكّة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا. ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا. ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين ﴾ سورة آل عمران، الآية 96، 97. قيل المعنى ومن لم يحجّ وعبّر عنه بالكفر تغليظا كقول صلّى الله عليه وسلّم من ترك الصلاة فهو كافر، وقيل أراد اليهود لأنّهم لا يحجّون، وقيل من زعم أنّ الحجّ ليس بواجب. وقال القاضي ناصر الدين البيضاوي وضع كفر

موضع من لم يحجّ تأكيدا لوجوبه وتغليظا على تاركه ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم من مات ولم يحجّ فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا))[79] .

استهلّ حديثه عن وجوب فريضة الحجّ بآيتين من سورة آل عمران. الأولى قوله تعالى (إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكّة مباركا وهدى للعالمين) أل عمران، الآية / 96. احتوت هذه الآية على تاريخ بيت الله بمكة، فهي أوّل بيت، وفيه بركة وهداية. والثانية قوله تعالى: (فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا. ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين.) أل عمران، الآية / 97. وتحتوي هذه الآية على وجود الدلائل الساطعة فيه، منها مقام إبراهيم، ثمّ توفير الأمن والأمان لمن دخله. إثر ذلك ورد وجوب حجّة الإسلام مع شرط القدرة. فالكلام الدالّ على وجوب الحجّ محصور في قوله تعالى (ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وما قبل هذا الكلام تمهيد، وما بعده تعقيب من الله تعالى على من لم يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى في آداء فريضة الحجّ.

بعد أن قدّم " أحمد بن عمّار " الآيتين انطلق شارحا ومفسّرا[80] كاشفا عمّا تضمّنته من معان ومقاصد، وقد قدّم ذلك من خلال عبارة (قيل). هذا يدلّ على حسن اطّلاعه وعمق بحثه وقراءاته. والمسجّل فيما عرضه من معان أنّها أربعة: التعبير بالكفر عن تركه مع الاستطاعة

[79] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص 122، 123.

[80] – التفسير: ((التفسير لغة الإيضاح والبيان والكشف. اصطلاحا: العلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها. والتفسير رأس العلوم الإسلامية وأوّلها ظهورا حيث كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يفسّر للصحابة ما دقّ معناه واستشكل عليهم.)) ص 98. معجم علوم القرآن علوم القرآن، التفسي، التجويد، القراءات. إبراهيم محمّد الجرمي. دار القلم دمشق. ط/1. 1422 هـ 6 2001 م .

تهديدا وتخويفا، أمر الكفر يعود على اليهود لأنّهم لا يقومون بذلك. صفة الكفر متعلّقة بمن يرى أنّ الحجّ ليس فريضة شرعية وركنا ثابتا. ويختم بقول العالم والمفسّر البيضاوي الذي يرى أنّ إسقاط الكفر على التارك للحجّ يفهم منه التقرير والتمكين وإبراز مكانته العليا وخطورة التهاون في أدائه.

وانطلاقا من اعتقاده من أنّ الحجّ أحسن وأبرز الشعائر التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه يورد حديثا نبويا يُفهم من ظاهره عكس ما يؤمن به . وهو الذي ورد ((عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيّ العمل أفضل؟ فقا إيمان بالله ورسوله، قيل ثمّ ماذا؟ قال الجهاد في سبيل الله، قيل ثمّ ماذا؟ قال حجّ مبرور، هذا الحديث متّفق عليه. قيل وهو محمول على ما إذا تعيّن الجهاد أو يكون جوابا في حقّ سائل سأل لفرط شجاعته، ولذا قال مالك رحمه الله تعالى ورضي الله عنه لما قيل له الغزو أحبّ إليك أم الحجّ؟ قال الحج إلّا أن يكون سنة خوف .)) [81]

أورد " أحمد عمّار " الحديث النبوي بسنده وراويه[82]. والقارئ للحديث لا يجد صعوبة في فهمه واستيعاب مقاصده. حيث إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلم يجيب عن سؤال توجّه به

[81] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص 125.

[82] – سند الحديث ((السند لغة هو ما يستند إليه أو يعتمد عليه من حائط أو غيره, ويقال فلان سند أي معتمد. واصطلاحا: هو الإخبار عن طريق المتن، وقيل هو حكاية طريق المتن. قلت والأولى أنذ السند هو الطريق الموصل إلى المتن. أو هو عبارة عن الرواة الذين رووا الحديث.)) محمّد أبو الليث الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنّفين فيه. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط / 1. 1429 هـ – 2009 م. ص 73.

أحد الصحابة رضوان الله عليهم. فكان الجواب منه واضحا وجليا. هذا الجواب بيّن فيه صلّى الله عليه وسلم أنّ ترتيب الأعمال المفضّلة هو وفق ما يلي: الإيمان بالله ورسوله، الجهاد في سبيل الله، الحجّ مبرور. يقدّم ابن عمّار قراءة خاصّة لهذا الحديث مبنية على التأويل المؤسّس والشرح العميق. وكانت خلاصة الفهم الذي قدّمه لمقاصد الحديث هو ما ذكره الإمام مالك رضي الله عنه أنّ العمل المفضّل هو الحجّ ما لم يكن هناك خوف من انقضاض العدو على المسلمين. والمعنى الذي جعل من الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله والرسول هو في حالة تعيّن الجهاد أو لأنّ السائل كان يتمتّه بقوة كبيرة وجرأة وقدرة كبيرتين. وفي خاتمة مقاله عن مشروعية[83] الحجّ يوصي مرشدا ((اعلم أنّ الحجّ حلول بحضرة المعبود ووقوف بساحة الجود، ... ومشاهدة لذلّ المشهد العلي الرحماني، ... وأنّ التردّد في تلك المواطن فخار وسمو،))[84] فموسم الحجّ يكون العبد الحاجّ موجودا وحاضرا في رحاب الله المقدّسة، وفي بقاعه المفضّلة فلا يمكن أن يعود خائبا فارغا، ولا محالة أنّه سيكون له حظّ كبير من جود الله تعالى وكرمة وقبوله

– راوي الحديث: ((الرواية لغة نقل الكلام إلى شخص آخر وحمله إليه. واصطلاحا: نقل الحديث وإسناده إلى من عُزي غليه بإحدى صيغ الأداء مثل: حدّثنا أو أخبرنا أو سمعت، أو عن. ومعنى نقله أي أخذُه ثمّ تبليغه، فمن لم يبلّغ شيئا لا يكون راويا. ومعنى وإسناده إلى من عُزي إليه أي نسبته إلى قائله، فلو تحدّث بالحديث ولم ينسبه إلى قائله لم يكن ذلك رواية.)) محمّد أبو الليث الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنّفين فيه. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط / 1. 1429 هـ – 2009 م.ص 67، 68.

[83] – مشروعية : ((المشروع لغة مأخوذ من الشرع وهو البيان والإظهار. يقال شرع الله تعالى كذا أي أظهره وجعله مبيّنا ظاهرا، ومنه سميت الشرعة والشريعة لمكان ظاهر معلوم من البحر والنهر نغترف منه الماء وتشرب منه الدواب.)) محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ القثهية. دار الفضيلة.القاهرة، مصر. 1999 م . ص 291.

[84] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب.ص 128.

مادام أنّه كان خاضعا متذلّلا، وحظّ من العلوّ والفخر إنّه كان في أطهر الأماكن بركة وقربا وشرفا.

3 – الاحتفال بالمولد النبوي في القصر الزياني :

كان نصيب الحديث عن المولد النبوي أوفر نصيب من المواضيع الأحرى، وهذا يعكس أنّه لم يفت " أحمد بن عمّار " متابعة ما يجري من احتفالات بالمولد النبوي الشريف في قصر الحاكم، على مستويي القصر وعامّة الناس. ينقل لنا الرحّالة احتفالات القصر بسند " أبي عبد الله التنسي " في كتابه راح الأرواح ((وكان السلطان أبو حمو يقيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة، مدعاة حفل يحشر فيها الناس خاصّة وعامّة. فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، وبسط موشّاة، ووسائد بالذهب مغشّاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات، ومباخر صفر، منصوبة كالقباب، يخالها المبصرون من تبر يفاض على جميع أنواع الأطعمة كأنّها أزهار الربيع المنمنمة، فتشتهيها الأنفس وتستلذّها النواظر، ... ويعقب ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفّرات[85] ترغب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فنّ إلى فنّ، ومن أسلوب إلى أسلوب ... هذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ونداء المنادى حيّ على الفلاح))[86]

[85] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب (المكفّرات أشعار تقال في التزهيد فتكفّر ما كان من عبث وهي تشبه (الممحّصات) ص 359 من شرح المحقّق في هامش الصفحة.

[86] – المصدر نفسه . ص 359.

هذا النصّ وصف لمجريات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في قصر واحد من ملوك الزيانيين وهو " أبو حمّو ". حفل يحضره الناس مدعوين من مختلف الطبقات والمنازل. حفل تزيّن فيه القصر بأبهى الحلل، وأغلى الفرش وأجمل أنواع الزينة، حفل الموائد فيه والأطعمة غير الموائد والأطعمة في سائر الأيّام، حفل فيه قصائد المدح للمصطفى تصدح وتغرّد. حفل لا ينتهي إلّا بأذان الصبح. وفي النصّ عبارة تلخّص ما كان يصرف وينفق في هذا الحفل، وهي (وسائد بالذهب مغشّاة). فهل هذا هو الفهم الصحيح للاحتفال بمولده صلّى الله عليه وسلّم؟ ويذكر أحمد ابن عمّار أنّ العديد من ملوك المسلمين من كان يفعل أكثر من ذلك مثل ملوك مصر، والهند والأندلس، وملوك آل عثمان، فمنهم من كان يضع مصاريف حاصّة للاحتفال بالمولد من الذهب والأموال، والأطعمة، والهدايا ...[87] .

وفي مقابل الاحتفالات بالقصر الملك هناك احتفالات لأهل البلد ((هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا ... إذا دخل شهر ربيع الأوّل انبرى من أدبائها وشعرائها ... إلى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات، ويلحّنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجمية، ويقرئونها بالأصوات المطربة. ويصدعون بها في المحافل العظيمة، والمحافل المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظمية من المساجد والمكتبات والمزارات، وهو في أكمل زينة وأجمل زيّ، ...))[88] يروي لنا في هذا النصّ جانب واحد من جوانب احتفال أهل البلد الجزائر بالمولد النبوي الشريف، وهو الجانب المتعلّق بالأدب والطرب، ممثلا في قصائد المديح والموشحات النبوية

[87] - ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب من ص 297 إلى ص 309.

[88] - نفسه . ص 150، 151.

وتحويلها إلحان موسيقية تعرض في الأماكن الثقافية والدينية مثل المكتبات والمزارات والمساجد. الجانب الآخر الذي لم يتكلّم عنه هو الأطعمة والحلويات، والشموع وألبسة الزينة. والذي ينبغي لفت النظر إليه هو حضور الرحالة أحمد ابن عمّار في خضم أحاديثه المختلفة عن المولد النبوي الشريف، وذلك من خلال تلك القصيدة الموشّحة الطويلة التي أنشأها في هذه المناسبة مسهما بدوره بقريحته وموهبته الفيّاضة في الاحتفال النبوي.

مطلعها : يا نسيما بات من زهر الرّبا ... يقتفي الركبـــان

وختامها : ما همى غيث وما هزّ الصبا ... عذبة الأغصان)[89]

وأتبعها الأديب صاحب الرحلة بقصيدتين لأحد شعراء الجزائر البارزين في العصر العثماني البارزين للشاعر " سيد أحمد المانجلاتي " في مدحه للرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم كذلك[90]، وللتذكير فإنّ القصيدة الأولى موشّحة، والثانية عمودية.

وبالنظر إلى حضور الشعر والتراجم والأخبار التاريخية والمقالة العلمية والوصف الأدبي التصويري، فإنّ ((إنّ مفهوم الرحلة يطال مفهوم الأدب بمعناه العام ذلك لأنّ هذا الجنس يشمل الأدبي وغير الأدبي ... فهي جنس عابر للأجناس أو جنس عبر – أجناسي، ولربّما جاز لنا أن نقول بأنّها جامع الأجناس))[91] وهذا الجمع والاحتواء مظهر من مظاهر التميّز الذي يتفرّد

[89] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب . من ص 151 إلى ص 179.

[90] – ينظر : المصدر نفسه. ص 169 إلى ص 183.

[91] – الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والبلاد الروسية. 94. عبد النبي ذاكر. دار السويدي أبو ظبي ط/1. 2006/.

به فنّ الرحلة، وسمة تجعل القارئ في نزوع دائم وفضول مستمر لقراءته قراءة متأنّية تتختلف باختلاف النصوص الواقعة غي متن الرحلة.

4 – مضامين من رحلة محمّد " أبي راس الجزائري " :

لا تقع رحلة " أبي راس " في مصنّف خاصّ بها ، كما كان الشأن عند الرحّالة ابن حمادوش الجزائري والحسين الورثيلاني مثلا، وإنّما تقع في مصنّف عنوانه " فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته (حياة أبيراس الذاتية والعلمية)[92] ، جمع فيه كلّ ما يملك أبي راس من معلومات عاشها وعرفها حول حياته قاطبة ومن ضمنها الرحلة، على اعتبار أنّها جزء مهمّ من حياته النشيطة المملوءة بالمعارف والخبرات. ((ومهما كان الأمر فإنّ (فتح الإله) كتاب يقدّم لنا حياة أبي راس نفسه، فهو نوع من السيرة الذاتية، تحدّث فيه المؤلّف عن أهله وبيته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المشرق والمغرب، وما سئل عنه من المسائل العلمية وإجاباته على ذلك، وأخيرا يذكر مؤلّفاته))[93]، من هنا أمكن أن نؤكّد على أنّ المؤلَّف في فنّ الترجمة الخاصّة الموسّعة أو فنّ السيرة الذاتية. وضمن ذلك نجد الرحلة التي اشتهر بها في زمانه وفي وقتنا الحالي . وهذا التداخل بين الأنواع الأدبية ليس غريبا عن روح الأدب وطبيعته التي ترفض الانغلاق والانزواء.

---

[92] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". حقّقه وضبطه وعلّق عليه محمّد بن عبد الكريم الجزائري. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1986 م.

[93] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية "، من مقدّمة لأبي القاسم سعد الله ص 7.

1 – ذكره لرحلات سبقته :

الأمر الملفت للانتباه في رحلة " أبي راس " أنّه منذ البداية قد أوضح للقارئ أنّ كتابته لرحلته لم ينطلق فيها من فراغ، بل كانت له قراءات سابقة في بعض المتون الرحلية التي أفادته وأنارت له الطريق، واقتد دبها في عدّة أمور، ((... رحلتي للمشرق والمغرب وغيرها، ولقاء العلماء والأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام. وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسانيد الجماهير: كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمّد العيّاشي، نسبة إلى قبيلة " أيت أعياش" ، من البربر بإزاء "تافلالت". وقد سمّى ابن رشيد رحلته " ملء العيبة في طول الغيبة، إلى مكّة وطيبة "، في ستّة أسفار. وكذا رحلة الشيخ أحمد بن ناصر ، وغيرهم))[94].

والتأسّي الذي يقصده الرحالة " أبي راس " ليس التتبع التام والسير المطابق، وإنّما الاحتذاء بهذه الرحلات والاقتداء بها في خطوطها العريضة مثل الوصف والتأريخ والجغرافيا والمشاهدات والالتقاء بالعلماء والعرافين والحديث عن الشعائر ومكة والمدينة.

وللدّارس المتخصّص في فن أدب الرحلة أن ينظر بدقّة وإمعان عميقين عندما يقرأ رحلة " أبي راس " كاملة ويوازن بينها بهدوء وتمام وبين متون الرحلات العربية الأخرى ذات القيمة

[94] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 91.

العالية ، وذلك مثل رحلة ابن رشيد البتي [95]...، والخطيب ابن مرزوق[96]، ورحلة العيّاشي[97] وأحمد بن ناصر[98] فيما اختلفا فيه وما تّفقا عليه وفي الكشف عن مواطن التأسّي والاقتداء. ومن وجهة أخرة يكشف لنا تصريح " أبي راس " بالرحلات التي اقتدى بها الصدق في أخلاق الرجال، والأمانة العلمية في تصانيف العلماء.

2 – مسالك الرحلات:

1 – فأوّل رحلتي الجزائر العاصمة: ص (91. ص 98) .

2 – ولما دخلت قسنطينة: ص (98. ص 100).

3 – وكنت مرّة فقصدت وهران: (100. ص 101) .

4 – ورحلت إلى مدينة فاس: ص (101. ص 107).

5 – ولما رجعت من فاس دخلت تلمسان: ص (107. ص 108).

---

[95] – أبو عبد الله محمّد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة. الدار التونسية للنشر، تونس. 1402 هـ – 1982 م. كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي، ابن رشيد رحلته " ملء العيبة في طول الغيبة، إلى مكّة وطيبة "، في ستّة أسفار. و

[96] – ((أحمد بن محمّد بن محمّد بن أبي بكر بن مزوق التلمساني. فقيه مالكي من الصلحاء الزهادمن أهل تلمسان. ذكرت له كرامات وأحوال. قال ابن حجر: حجّ بولده بعد العشرين (720 هـ) وجاور بمكّة، ثمذ عاد إلى بلده. ثمّ حجّ وسكن بالمدينة مدّة، ومات بمكّة سنة 740 هـ أو في التي تليها.)) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان.ط/2. 1400 هـ – 1980 م. ص 369.

[97] – عبد الله بن محمّد العياشي، الرحلة العيّاشة. حقّقها وقدّم لها سعد الفضلي وسليمان القرشي. ط /1. 2006م. دار السويدي للنشر والتوزيع، الأمارات العربية المتّحدة.

[98] – أبو العبّاس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية. حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ المملوكي. المؤسّسة العربية للدراسات والنشر . دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتّحدة. أبو ظبي. ط/1. 2011م.

6 – ثمّ ذهبت إلى تونس: ص (108. 118).

7 – مصر : ص (115، ص 118) .

8 – رحلت إلى أمّ القرى: ص (118. 119) .

9 – ثمّ رحلت لطيبة: ص (119. 120) .

10 – ثمّ دخلت الرملة التي هي أحد مدن فلسطين. ص (120).

11 – رحلت إلى غزّة . ص (120).

12 – ثمّ رحلت إلى العريش. ص (120).

من خلال مسالك الرحلة السابقة يمكن تقسيم هذه المسالك نوعين الأولى في داخل الوطن الجزائري، والثانية في خارجه:

أ – الرحلات الداخلية: وقد تمركزت في المدن التالية في الغرب من الجزائر والشرق والوسط : الجزائر العاصمة، قسنطينة، وهران، تلمسان.

ب – الرحلات الخارجية: وقد تمحورت في المدن الآتية فاس بالمغرب، تونس بتونس، طيبة، أمّ القرى بالبقاع المقدّسة بالجزيرة العربية، الرملة، غزّة، بفلسطين، ثمّ مصر.

3 – الوصف:

أ – وصف المدن: مدينة فاس: ((مدينة فاس محلّ العلم والإيناس، والتقريب والتبعيد لأناس، وهي قبّة الإسلام والسلم والاستلام، المقام الأعلى والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافرة،

وخزائن المزائر، والشهرة الساحرة، والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني الباهية، والأوهار الواهية والمحاسن الشاهية ...))[99].

هذا النصّ يقدّم فيه " محمّد أبي راس وصف لمدينة فاس المغربية، وقد دخلها بعد أن وفد إليها من مدينة مكناس. أوّل وصف يذكره حول المدينة أنّها مقرّ المعارف والثقافات، وموضع العلوم وابتكار العقول. هذه ليس بغريب على مدينة فيها جامع القرويين بأئمّته وطلّابه، ومنابره رجاله العرفين. وفيها المساجد بحلقاتها العلمية ومكتباتها، وفيها دكاكين بيع الكتب، وفيها العلماء ساهرين على الختم والحفظ والمراجعة والإجازة. ولهذا السبب كثيرا ما يأنس لها النّاس الراحلين إليها، ويرتاحون ويفرحون، فبلد العلم بلد السكينة والوقار، وبلد الأخلاق والخلال.

وهي قبّة الإسلام أوّل مدينة مغربية حضرية أسّسها " مولاي إدريس " وأبناؤه. منها انطلقت العلوم الشرعية، والهيئات العمرانية، والقوانين المنظّمة، والأعراف الاجتماعية والأخلاقية الفاضلة، والتجارات الرابحة والسلع الفالحة، فتأسّست بفضلها أمرائها ورجالها مدن وقرى فاخرة. وبهذا تحقّقت لها شهرة واسعة في المغرب وكذلك في العالم الإسلامي والأوربي. ولم ينس محمّد أبوراس خصائها الجغرافية من سهول وهضبات، وجبال عظيمة شامخة، والمباني الباهية. كما أنّه تفطّن لذكر سحرها العمراني المتمثّل في جمال بناياتها، وقصورها، ومساجدها، وبساتينها.

– مدبنة تونس: ((ثمّ ذهبت إلى تونس أمّ البلاد، ومثوى الطارق والتلاد، هي التي على عمل، أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسيّ الذي بعصاه ترعى الهمل، والمصر

[99] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 101.

الذي له في خطّة المعمور الناقة والجمل، ذات المبادي والمناهي، يقضي منها نفثه العاكف والبادي، والرائح والغادي، خفقت بها ريح الخلافة في القرن السابع في كلذ الأقطار والأركان، وما كان مهبّه إلّا ذلك الإيوان بلا شكذ ولا مين، حتّى جاءته بيعة أهل بيعة الحرمين...))[100].

فالمشارقة والمصريون والليبيون إذا أرادوا الانتقال إلى الجزائر أو المغرب أو الأندلس لا بدّ أن يمرّوا بها ويقيموا فيها ويتزوّدوا منها. وكذلك الأمر بالنسبة للأندلسيين والمغاربة والجزائريين إذا أرادو الرحيل إلى ليبا أو مصر أو إلى ربوع الجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين لا بدّ ان يقفوا عندها فهي المحطّة الكبرى التي لا يغفل عنها ارائحون والغادون. وهذا ما جعل تونس (مثوى الطارق والتلاد)، أي مقرّا آمنا لأصحاب الجاه والسلطان والمقام، منزلا هادئا لأصحاب الأموال والتجارات. فهذا ما جلب لها الحركة والنشاط (هي التي على عمل، أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل).

والحديث عن تونس حديث عن القيروان، فهي التي أعطت لتونس هذا الذكر وهذه الشهرة، وهي التي جعلتها مهدا للدّين والتوحيد، وهي التي كانت مجمع الجيوش والعلماء ينتشرون في بوع تونس، وما تونس لولا القيراوان التي شيّدها الفاتحون الأبطال؟ وقد فتحت القيروان باب تونس الكبير، (خفقت بها ريح الخلافة في القرن السابع في كلّ الأقطار والأركان، وما كان مهبّه إلّا ذلك الإيوان بلا شكّ ولا مين، حتّى جاءته بيعة أهل بيعة الحرمين...) على يد الفاتح عقبة بن نافع سنة 670 م للمرّة الأولى، وعلى حسّان بن النعمان سنة 693 م

[100] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 108، 109.

للمرّة الثانية. فخفقت راية الإسلام عالية ترفرف على الأندلس وإفريقيا. من هنا اتخذت القيروان وتونس القاعدة الخلفية للفتح الإسلامي المبارك.

– وصف القاهرة: ((مصر البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد، والفرا الذي في جوفه كلّ الصيد، استقلّ به كرسيّ خلافة الإسلام، وأعار بالرصافة والحسن ومدينة السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، وتع بّر عن كماله فنون الكلام. ودخلت بناءها المبهت المعجب، وخارجها المنبت المنجب، فحمذت الرؤوف المنزل، ذا العطايا المجزل، حتّى صار (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) عنّا بمعزل، ذا العمارة الهامية، كأمواج البحور الطامية، ذا العلوم الزاهرة، كأمواج البحور الطامية، ذا العلوم الزاهرة، بـ " الأزهر "، والعساكر القاهرة بـ " القلعة "، والمزهر زالفسطاط، ومشهد الإمام وجامع ابن طولون والأهرام، والحسين الشرفاء الخنفاء، والملوك والخلفاء.))[101]. ما ينبغي التنبيه إليه أنّ هناك أوصاف أخرى تتعلّق بالمدن قدّمها محمّد أبوراس المعسكري مثل: وصف مدينة فاس في اص 101، 102، ووصف طيبة (المدينة المنوّرة) في ص 119.

ب – وصف العلماء:

((ولقيت أيضا شيخنا العالم المشارك، في أنواع العلوم الدّارك، الواسع الرواية، الحسن الدراية، صاحب الرحلة الجمّة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد، الجليل القدر، المستوعي لما يفوت

[101] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 115.

الحصر، سلس اللسان والعبارة، مليح التصريح والإشارة، أمجد النظّار، السيّد أحمد ابن عمّار، عالم الجزائر، محطّ رحال المستفيد والزائر ...)) [102]

استفتح محمّد أبوراس وصف هذه الشخصية بعبارة (شيخنا) وذلك يدلّ على المكانة العالية التي يحظى بها في قلبه وفكره. ويعود هذا الاحترام الجمّ إلى التبة التي تبوّأها وهي كونه (العالم المشارك، في أنواع العلوم الدّارك)، عالم مطّلع على شتّى المعارف والعلوم، فهو (الواسع الرواية، الحسن الدراية) ومنها تبحّره في رواية الأحاديث والأخبار والقصص والتواريخ. عمق اطّلاعة على أسانيد الرجال الراوين لمختلف أنواع الكلام، وفنون المعارف والثقافات .

بعد الأوصاف السابقة يلتفت محمّد أبي راس المعسكري إلى أهمّ إنجاز عرف به أحمد بن عمّار وهو تلك الرحلة الخالدة التي قام بها، (صاحب الرحلة الجمّة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد) يسجّل محمّد أبي راس المعسكري هنا موقفه العلمي الصريح الصّادق من رحلة (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب)، فهي ذات فوائد لا تحصى علميا دينيا أدبيا وتاريخيا. وإلى جانب ذلك يذكر محمّد أبوراس لأحمد بن عمّار قدرته لبيانية وفصاحته الخطابية. وأنّه (سلس اللسان والعبارة، مليح التصريح والإشارة)، متمكّن من أسلوب التقرير والانكشاف والظهور من جهة، وأسلوب الإيماء والإيحاء والمجاز من جهة أخرى. وشخصية علمية وفق الأوصاف السابقة لا شكّ أنّها (محطّ رحال المستفيد والزائر)، يرحل إليها الناس من كلّ حدب وصوب

[102] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته.. ص 92.

للاستفادة والاستثمار منها، والانتفاع الكثير من مواهبها الجمّة، وشمائلها المعنوية والمادية التي لا يمكن الإتيان على إحصائها.

إلى جانب ما سبق قدّم صاحب الرحلة أوصافا لعلماء آخرين من أمثال: عبد الكريم الفكون (ص 98)، علي لونيسي (ص 99)، محمّد بن الحفّاف (ص 95)، الحاج بن محمّد الشّاهد (ص 96)، محمّد بن شيوخ (ص 98)، الطيّب بن كيران (ص 102، 103)، الشيخ أحمد العبّاسي (ص 99) ...

4 – المسائل العلمية :

أ – في التاريخ : ((... ولما رجعت من فاس، دخلت تلمسان، فسئلت عن علمائها وملوكها، ومن اختطّها. فقلت أوّا من اختطّها " بنو يفرن " قبل الإسلام، ثمّ شاركهم إخوتهم: مغراوة فيها، وكان بينهما منافسة وحروب ، كما كان بفاس بين زيري بن عطية المغراوي. ويروي بن يعلى الإفريني : ولما نزل عليهما يوسف بن تاشفين سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة اختطّ تلمسان الجديدة، حتّى درست، ثمّ ملكها الموحّدون، ثمّ بنو مرين، ثمّ بنو عبد الوادي، ومنهم أخذ الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ثمّ صارت بين الفريقين فتنة إلى أن صفت للأتراك سنة ستّ وخمسين من القرن المذكور.))[103]:

في هذا النصّ نموذج من النماذج التاريخية الكثيرة التي أحضرها محمّد أبوراس المعسكري في رحلته. ويروي فيها أنّه بعد مغادرته مدينة فاس المغربية، دخل مدينة تلمسان الجزائرية، فالتفّ

[103] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 107، 108.

حوله جمع من سكّان تلمسان، وهم من العلماء والشيوخ ليسألوه عن تاريخ مدينة تلمسان القديمة، ويفهم من هذا السؤال أنّ صاحب الرحلة كان معروفا عند أهل تلمسان بعلمه المتنوّع وثقافته الرحبة المتعدّدة. وطبيعة السّؤال تجعلنا نفهم أنّ السّائلين كانوا إمّا جاهلين بالأمر، أو مترددين في الخطأ والصواب، أو أنّهم أرادوا أن يختبروا علمه ومعارفه، فيتأكّدوا من شهرته وتزكية العلماء والشيوخ له. مون السؤال المتوجّه به إلى الرحّالة هو (ومن اختطّها[104]؟) أي من خطّط لها ورسم لها خريطة مفصّلة الأقسام والمعالم والحدود ليبنى عليها مدينة بكافّة لوازمها ومطالبها. فكانت الإجابة الواضحة (أوّل من اختطّها " بنو يفرن " قبل الإسلام،) ولم يكتف بهذا الإجابة بل زاد عليها (ثمّ شاركهم إخوتهم: مغراوة فيها) فمدينة تلمسان يرجع الفضل في اختطاطها واتّخاذها مدينة إلى بني يفرن وأشقّاهم مغراوة. وبيّن بعد هذا أنّ هذه الأخوّة لم تكن مبنية على الأمان والسلم والحبّ والخير (وكان بينهما منافسة وحروب)، والأمر كما يقرّره محمّد أبوراس المعسكري كان واقعا بالمغرب (كما كان بفاس بين زيري بن عطية المغراوي). هذا عن تلمسان القديمة ومن انشأها وخطّط لها كي تكون أقليما حضريا بسهم في بنا الحضارة الجزائرية والعربية الإسلامية.

لم يكتف المجيب أبوراس المعسكري بما قدّم بل زادهم علما ومعرفة بالذي اختطّ مدينة تلمسان الجديدة بل يرزي عن ابن يعلى الإفريني (ولما نزل عليهما يوسف بن تاشفين سنة

[104] – اختطّ: واختطّا فلان خِطّة إذا تحجّر موضعا وخطّ عليه بجدار. والخِطّ والخِطّة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك. وقد خطّها لنفسه خطّا واختطّها: وهو أن يعلّم عليها علامة بالخطّ ليعلم أنّه قد احتازها ليبنيَها دارا. ينظر : ابن منظور، لسان العرب. م / 4 . ص 161.

اثنتين وسبعين وأربعمائة اختطّ تلمسان الجديدة، حتّى درست، ثمّ ملكها الموحّدون، ثمّ بنو مرين، ثمّ بنو عبد الوادي، ومنهم أخذ الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة)، يستفاد من هذه المعلومات التّاريخية الدّقيقة أنّ يوسف بن تاشفين قد اختطّ مدينة تلمسان الجديدة سنة 427 في ظلّ حكم دولة المرابطين فملكوها، وورثها بعده الموحّدون، فالمرينيون ثمّ بنو عبد الوادي المتّصلون بالدولة الزيانية. وسرعان ما انقلبت الأوضاع (ومنهم أخذ الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ثمّ صارت بين الفريقين فتنة إلى أن صفت للأتراك سنة ستّ وخمسين من القرن المذكور.) نستخلص من هذا أنّ الأتراك سيطروا على مدينة تلمسان نهائيا سنة 956 هـ.

بعد فتن كبيرة بينهم وبين الزيانيين منذ سنة 923 هـ. بعد هذه الإجابة التاريخية الكثيفة لم يردّ أو يعقّب عليه أيّ واحد من السّائلين، ممّل يدلّ أن هذه الإجابة مبنية على الحقائق التاريخية الثابتة المتّفق عليها، ومؤسّسة على قراءات عميقة في بطون الكتب التاريخية الموثوق في متونها الإخبارية، وفي أسانيد رجالها الرواة.

ب – في القرآن الكريم والحديث:

((ثمّ أنّ الشيخ الطيب بن كيران ناظرته في قوله صلّى الله عليه وسلّم: حبّب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطّيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة. فحمل الحديث على ظاهره، فقلت: الصلاة من أمور الآخرة، وإنّما الثالثة أكله صلّى الله عليه وسلّم الدباء مثلا. وأنّ هذا أسلوب العرب يذكرون جملة ويقتصرون لى البعض. قال تعالى: فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم . ولم يذكر غيره،

كعدم نزول الطيور عليها، وإهلاك الجبابرة، وإتيان الخلائق لها كلّ سنة من أقاصي المعمور. لذا قال الشاعر:

إنّ تميما أثلاث مثلّثة ... ثلث من العبيد، وثلث من مواليها

وسكت عن الثلث الثالث، وهم الأحرار من بني تميم، وكقول الآخر:

إنّ الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالي وكنت بها قديما مولعا

الخمر واللحم السمين واطلا ... بالزعفران، فلا أزال مولُعا

وسكت عن القسم الثالث، وهو القمح. وأمّا قوله (واطلا) الواو واو الحال، أي حال كون اللحم السمين مطليا بالزعفران. فسكت رحمه الله .))[105]. هذا النموذج ينبئ القارئ النظرة الواسعة لفكر أبي راس التي مكّنته من الاستشهاد بنصوص مختلفة من القرآن الكريم ومن الكلام العربي الفصيح ممثّلا في الشعر، من الستحضار ، وهذا يجعل من كلامه وردوده مؤسّسة على بيّنة وبصيرة من العلم والمعرفة، وثانيا يجعل السامع والحاضر متقبّلا لحديثه تقبّلا أساسه الاقتناع والرضى.

ت – في الآداب والصحّة:

((وكنت حضرت في حلقة ختمة، فقال لي مؤدّب الصبيان: لا أناولك هذه الملعقة حتّى تعرّفني حكم الله في الأكل بها. فقلت ذكر لي بعض الثقات أنّه لا بأس بالأكل بها، نقله عن ابن يامون. ورأيت بمازونة يهامش كتاب: قف، الأكل بالملاعق بدعة مستحسنة، فألقاها لي،

[105] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 104، 105.

وأكلت بها. ثمّ بقيت أفتّش عن ذلك النقل مدّة حتّى طالعت كتاب " المدخل " ، فوجدته نصّ على المسألة، ونصّه: والسنّة أن يأكل بيده، ولا يدخل أصابعه في فمه، ثمّ يردّها إلى القصعة، فإنّه ولا بدّ يصيبها شيء من لعابه فيعافه هو في نفسه، ويعافه غيره ممّن يراه. فإنذ فعل ناسيا فيغسل يده ثمّ يعود، لأنّ لعق الأصابع إنّما شرّع بعد أكل الطعام خوفا من الاستقذار، وحفظا لنعم الله تعالى أن تمتهن. وينبغي أن لا يأكل حتّى يمسّه الجوع، وعلامة ذلك أن يطيب له الخبز وحده. وينبغي له أن لا يذمّ طعاما، وأن لا يستعجل على السخون لعدم البركة فيه، كما في حديث " إنّ الله لا يطعمنا نارا " . ولا ينبغي أن يأكل بهذه الملاعق ولا غيرها، وذلك لثلاثة وجوه: أحدها: مخالفة سنّة السلف في ذلك. والثاني: أنّه يدخل ذلك في فيه ثمّ يردّها إلى الطعام كما مرّ اليد. والثالث: فيه نوع من الرفاهية، إلّا أن يكون له عذر، فأرباب الأعذار هم حكم خاصّ بهم)). [106] هذا الوصف للعلماء الذي سبق وأن سجّلناه إلى جانب تعرّضه الكثير للمسائل العلمية جعل رحلة أبي راس المعسكري تتميّز ((بمنهج دقيق خاصّة في تقسيم أبوابها كما سبق ذكرها، إذ تبدو رحلته مختلفة عن بقية الرحلات لأنّها تهتمّ بالدرجة الأولى بالموضوعات العلمية فكان محلّ عنايته ما يقابله من علماء وشيوخ وما يحفظه من علم أو رواية عن هؤلاء العلماء فقد اعتبر كثير من الباحثين رحلة أبي راس رحلة علمية بامتياز لأنّ الجانب العلمي طفا عليها بجميع مظاهره إلى الحدّ الذي كاد أن يخرجها من دائرة فنّ الرحلة لولا حضور بنية السفر الدالة على الحركة والانتقال داخل الإطار المكاني المعبّر عنه بأسماء المدن والأقطار،

[106] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص

والأكيد أنذ البعد العلمي سيكون مسيطرا على مختلف محطّات الرحلة .))[107]، فالذي ينظر إلى العلماء الذين درس على أيديهم وينظر جيّدا في اهتماماته العلمية ومصنّفاته لا يستغرب أبدا من هذا الحرض الشديد في رحلتة أبر راس على الجانب العلمي، الذي يعدّ من الدوافع التي أدّت بالكثير من العلماء على الرحلة والهجرة والسفر، ومن الأهداف التي كان يقصد إليها، ثمّ إذا عاد يفيد بها أفراد مجتمعه ومن يقرأ رحلته.

السيرة الذاتية التي عرضها أبي راس في مصنّفه لا غنى عن قراءتها وإدراك محتوياتها للقارئ الذي يريد مطالعة الرحلة وما تضمّنته من علوم ومعارف شتّى، فهذه السيرة الذاتية التي كتبها قبل إيراده للرحلة كفيلة بفقه القيمة العلمية التي زخرن بها الرحلة، ((اكتسب أبو راس الناصري ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتّصاله بالعلماء ومواظبته على حفظ العلوم ساعدته على ذلك حافظته القوية حتّى عرف بحافظ المغرب الأوسط. وقد كانت له اتّصالات وعلاقات بالعديد من علماء عصره الذين رجع إليهم وأخذ عنهم مثل محمّد الصادق أفغول، ومحمد بن جعدون، وأحمد بن عبّاد ، ومحمد بن الشاهد وعلي بن الأمين، ومحمّد بن مالك بمدينة الجزائر، ومحمد بن الفقون ، والحاج علي الونيسي، وأحمد العباس بقسنطينة، ومحمد بن المحجوب وصالح الكراش وإبراهيم الرياحي، وأحمد بيرم التونسي، بتونس، ومرتضى الزبيري، وعبد الله الشرقاوي،

[107] – شلابي نبيلة و عمر حيدوسي الحالة العلمية بالجزائر في العهد العثماني (القرنان الثامن عشر والتسع عشر للميلاد) من خلال رحلة أبي راس المعسكري " فتح الإله ونّته " مجلّة الإحياء. المجلّد 19. العدد 23 ديسمبر 2019م. الترقيم الدولي 4350 – 1112. الترقيم الدولي الالكتروني 2406 – 2588. ص 703.

ومحمد الأمير بمصر.))[108]، شخصية أبي راس قدوة لكلّ طالب علم وباحث عنه، فما يتعلّمه العقل في صغره وكبره على يد العلماء والمؤلّفين تعكسه أقواله ومصنّفاته، لذا ((هناك قيمة أخرى لكتب الرحلات هي القيمة التعليمية من حيث إنذ هذا النوع من الكتب يسهم في تثقيف القارئ وإثراء فكره وتأمّلاته عن الآخرين. ذلك أنّ كتّاب الرحلات يصوّرون إلى حدّ كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي قاموا فيه برحلاتهم، وثقافة البلدان التي ذهبوا إليها، وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها. إنّ مثل هذه الكتب في مثل هذه الحالة تعتبر مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية كما تعدّ أكثر المدارس تثقيفا للإنسان.))[109]. ولحدّ الآن فقيمة الرحلة التعليمية محفوظة لحدّ الآن. فما يوجد فيها قد لا يوجد في كتب التاريخ والطبقات والتراجم والسير. وما يوجد فيها من أساليب أدبية وأشكال فنية وأنواع أدبية قد لا يوجد في بعض الأحيان في غيرها.

وإذا كانت الرحلات الجزائرية قد أضاءت بالوصف الكثير من المدن والأماكن في المشرق والمغرب وفي داخل الوطن الجزائري، فإنذ الجزائر قد أضيئت مدنها ومرافقها من خلال الرحلات الأندلسية والمغربية العابرة للتراب الجزائري ((قلّما اتّجه الرحالة الجزائريون في القديم إلى المغرب أو الأندلس. كان اتجاههم مثل اتّجاه المغاربة أنفسهم نحو المشرق للحجّ أو طلب العلم بأو الهجرة. وكثرت الرحلات المغربية نحو المشرق حتّى أنّ من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية مثلا لا يمكنه أن

[108] – ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الجزائري، تراجم مؤرّخين ورحالة وجغرافيين. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1999م. ص 461.

[109] – سيّد حامد النسّاج ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا. دار غريب للطباعة. القاهرة مصر . د ت . ص 8 .

يستغني عن رحلات التمغروتي، والعبدري، والبلوي، والعياشي، والغسّاني، والجامعي، وابن زاكور، والدرعي وأضرابهم. وكان هؤلاء يسجّلون انطباعاتهم كلّ حسب مشربه وتكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتمّ بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدّث عن المدن ووصف "المسالك والممالك"، ولكن أعمالهم جميعا أصبحت لا غنى عنها للمؤرّخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع.[110])) فالجزائر بدورها قد كتب عنها في رحلات الأندلسيين والمغاربة، على الرغم من اهتماماتهم المختلفة وغاياتهم المتباينة، والعديد من القواسم المشتركة التي كانت تجمعهم.

[110] – أبو القاسم سعد الله . تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. 1981.ص 203.

القسم الثاني من الفصل الثاني :

الاشكال الفنية في
أدب الرحلة الجزائرية القديمة

سيجد المهتمّ بأدب الرحلات الجزائرية القديمة في جوانبها الخاصّة بالأشكال الفنيّة أنّها بُحِثت ودُرِست مرّات عديدة من عدّة جوانب في الكتب والمذكّرات والأطروحات. وبعد طول نظر ارتأينا أن نختار الأشكال الفنية التالية للدراسة، وهي الاقتباس، التصوير، السجع. هذا لا ينبغي أن يدفع القارئ لمذكّرتنا هذه أن يفهم أنّ هذه القضايا الفنية هي أهمّ القضايا فيها وأكثرها حضورا فيها، فالأساليب الفنية لا تحصر في الرحلات الجزائرية القديمة في مستوى التراكيب النحوية ودلالاتها، وفي المباني الصرفية ومعانيها، وفي الصور ومقاصدها، وفي أساليب البديع الصوتية والمعنوية.

وسواء أدرست الرحلات بأدوات فنية تراثية (بلاغية ونحوية) أو بوسائل حداثية (مثل التناص، الانزياح، الإيقاع والموسيقى ...) فإن الباحث في ذلك سينكشف له ثراء النصوص الرحلية وغناها الفنّي، وأنّ بحثا أو بحثين فيها لا يستوفيها حقّها من الوصف والشرح والتحليل.

أوّلا: الاقتباس

أسلوب من أساليب الحديث في التعبير الشفهي والكتابي يعتمده المتحدّثون في مختلف أجناس القول وأنواع الكتابة في القديم وفي العصر الحديث. وهذا الأسلوب يوظّف من قبل الكتّاب من أجل تحقيق أغراض ومقاصد متعدّدة. وهو من الأساليب التي لم يجمع على الاتّفاق على مفاهيم خاصّة بها. إذا يلاحظ العديد من الدارسين تداخل مفهومي الاقتباس مع التضمين. كما أنّ الكتّاب والنقّاد المعاصرين يتداولون مصطلح الاقتباس باسم

التضمين،والتضمين باسم الاقتباس، وهناك قسم آخر يلبسونهما مصطلحا حداثيا جديدا وهو مصطلح التناص.

يعرّف "أحمد بن فارس" من الناحية اللغوية الاقتباس انطلاقا من جذره الأصلي، ((القاف والباء والسّين أصل صحيح يدلّ على صفة من صفات النّار، ثمّ يستعار من ذلك القبس: شعلة النار، قال الله تعالى في قصّة موسى عليه السلام: لعلّي آتيكم منها بقبس سورة طه، الآية / 10. وولون: أقبست الرجلَ علما، وقبستُه نارا. قال ابن دريد: قبسْتُ من فلان نارا، واقتبسْتُ منه علما، وأقبسني قبسا))[111]. بناء على ما سبق فالاقتباس مشتقّ من الفعل المزيد اقتبس، ومعناه أخذ من الآخر، ونقل عن غيره. وطلب الشيء وجلبه من مصدر ليس له. هذا من الوجهة اللغوية. من الناحية الاصطلاحية قدّمه بعض البلاغيين والدارسين وفق ما يلي ((الاقتباس من القرآن وهو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية في الكلام تزيينا لنظامه أو تفخيما لشأنه))[112].

هذا التعريف "للفخر الرّازي"، وهو الذي اتخذ من الاقتباس مصطاحا، وكان من قبله الحديث عن التضمين. وقد تشبّث بمصطلح الاقتباس " الخطيب القزويني " فقدّمه مقرّرا ((وأمّا الاقتباس فهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنّه منه[113])). فالاقتباس عند " الخطيب القزويني " تضمين الكلام بعضا من القرآن أو الحديث، والفارق بين التعريفين

[111] – أحمد بن فارس، معجم المقاييس في اللغة. ص 871.

[112] – الفخر الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز . ص 173.

[113] – محمّد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة. ص 422.

أنّ القزويني – وخلافا للفخر الرازي– اشترط في الاقتباس العبارة التالية (لا على أنّه منه)، أي لا يساق النصّ المقتبس في الشعر أو النثر سوقا مستقلّا بائنا عن كلام المتحدّث. أمّا الرّازي فقد فلم يشترط هذا الشرط . وقد وافق صاحب كتاب التعريفات القزويني في الجزء الأوّل من التعريف، ولم يزد ما زاده صاحب الإيضاح، ((الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام نثرا كان أو نظما شيئا من القرآن أو الحديث .))[114] هكذا يرى محمّد بن علي مفهومه للاقتباس.

ينتقل "القزويني" بعد هذا إلى مصطلح يعدّ جارا للاقتباس ((وأمّا التضمين فهو أن يضمّن الشعر شيئا من شعر الغير مع التّنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء.[115])). وقد سار العديد من المعاصرين على درب "القزويني":

– ((الاقتباس أن يضمّن المتكلّم منثوره أو منظومه شيئا من القرآن أو الحديث على وجه لا يشعر بأنّه منهما))[116] ، فعبارة (على وجه لا يشعر أنّه منهما) تكريس لشرط "القزويني".

– ((الاقتباس تضمين النثر أو الشعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنّه منهما ويجوز أن يغيّر في الأثر المقتبس قليلا.))[117]، وقوله (من غير دلالة على أنّه منهما) تأكيد للقيد الذي اجتهد فيه "الخطيب القزويني".

---

[114] – علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات. ص 48.

[115] – محمّد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة. ص 424.

[116] – أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. شرح وتحقيق حسن حَمَد. دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت لبنان . د ت. ص 255.

[117] – علي الجارم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة مع دليلها. ديوان المطبوعات الجامعية الجهوية، وهران الجزائر. د ت . ص 270.

وهناك من المعاصرين من لم يقتنع بالشرط السابق، وتابع "الفخر الرازي" في جعل الاقتباس مرسلا دون أيّ قيد، يقول أحدهم عن الاقتباس ((هو أن يضمّن المتكلّم كلامه كلمة من آية أو آية من كتاب الله خاصّة، هذا هو الإجماع.))[118] ، الملفت في هذا النصّ كلمة الإجماع. والمعروف أنّه لم يكن هناك توافق مطلق بين البلاغيين بخصوص هذا المصطلح البلاغي.

إن كان العديد من علماء البلاغة والنقاد قد فصلوا بين التضمين والاقتباس فهناك بعض العلماء من هدم الحدود بينهما. "فابن القيّم الجوزية" يقدّم الاقتباس وفق الطرح الآتي ((الاقتباس ويسمّى التضمين وهو أن يأخذ المتكلّم كلاما من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به أو ترتيب. فإن كان كلاما كثيرا أو بيتا من الشعر فهو تضمين، وإن كان كلاما قليلا أو نصف بيت فهو إيداع.))[119]. عبارة "ابن القيّم" (الاقتباس ويسمّى التضمين) دليل على أن لا فرق جوهري بينهما حسب رأيه. والاقتباس عنده يشمل القرآن والحديث وأيّ نوع من كلام الغير. ويضيف إلى الاقتباس والتضمين مصطلحا آخر هو الإيداع. والملاحظ في تعريف "ابن القيّم" إشارته إلى وظيفتين من وظائف الاقتباس وهما التمكين (التأكيد) والتنظيم (الترتيب). وما ذهب إليه "ابن القيّم" سار إثره صاحبا المعجم الشامل ((التضمين من البديع، أن يضع الشاعر أو النّاثر في كلامه بعض كلام غيره [120])). وجملة القول بعد هذا الذي عرضناه فقد ارتضينا المفهوم الذي قدّمه "ابن القيّم"، فلا فرق بين الاقتباس والتضمين، ثمّ

[118] – أحمد أحمد فشل، علم البديع رؤية جديدة. دار المعارف. القاهرة مصر. 1996 م. ص 180.

[119] – ابن القيّم الجوزية، كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان. ص 117.

[120] – محمّد سعيد إسبر، بلال جنيدي ، الشامل معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها. دار العودة بيوت. ط / 1. 1981. ص302 .

أنّها يشملان كافّة أنواع القول من القرآن ولحديث، والشعر ولنثر دون قيد أو شرط. وهذا الذي سرنا عليه واقتفيناه.

1 – الاقتباس من القرآن الكريم:

أ – اقتباسات من رحلة "ابن عمّار":

جاء في حديثه ((عن وجوب الحجّ وفضله والحذر من تأخيره: قال الله تعالى ﴿ إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكّة مبارك وهدى للعالمين. فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا، ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العلمين ﴾ سورة آل عمران / 96، 97. النصّ الأساس في الاقتباس هو قوله تعالى ﴿ ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ لكن لم يورده مفردا لوحده، بل ساقه موصولا بالتعقيب الذي تلاه وهو قوله تعالى ﴿ ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العلمين ﴾. كما أنّنا نلاحظ أنّ الكاتب قد ذكر الآية التي توجد قبل النصّ المقتبس الأساس، وهي قوله تعالى ﴿ إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكّة مبارك وهدى للعالمين. فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا، ﴾.

بعد سوقه للنّصّ المقتبس للدلالة على مشروعية الحجّ وفرضيته يقدّم للقارئ وصفا بلاغيا دلاليا للنصّ الدال على الوجوب ((وقد أكّد أمر الحجّ في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، ,إبرازه في الصورة الأسمية، وإيراده على وجوه يقيّد أنّه حقّ واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أوّلا، وتخصيصه ثانيا، فإنّه كإيضاح بعد إبهام، وتثنية وتكرار للمراد.)) لم يكن همّ الكاتب هو عرض النصّ القرآني لبيان شأن منزلة الحجّ من الناحية

الشرعية بل بادر ليقدّم لنا ما فهمه من التذييل الذي ذيّل به القول بالوجوب ((قيل المعنى من لم يحج وعبّر عنه بالكفر تغليظا كقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من ترك الصلاة فهو كافر، وقيل أراد اليهود لأنّهم لا يحجّن، وقيل من زعم أنّ الحجّ ليس بواجب، وقال القاضي ناصر الدين البيضاوي وضع الكفر موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتسمية ترك الحجّ كفرا من حيث أنّه فعل الكفرة، وذكر الاستغناء فإنّه في هذا الموضع ممّا يدلّ على المقت والخذلان، وقوله عن العالمين يدلّ عنه لما فيه من مبالغة والتعميم، والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان، والإشعار بعظيم السخط لأنّه تكليف شاقّ جمع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرّد عن الشهوات والإقبال على الله تعالى...))[121]، هذا التذييل الذي أعقب به "ابن عمّار" النصّ القرآني ينصبّ بالدرجة الأولى على النصّ المقتبس الأساس الدالّ على وجوب الحجّ فيه وقفة عند دلالة الآية في ربط ترك الحجّ بالكفر.

وقد دعّم هذه الدلالة بالحديث النبوي، وبقول أحد المفسّرين، وهو "القاضي ناصر الدين البيضاوي" صاحب التفسير[122] ، وبأقوال أخرى غير منسوبة . بعد التأكيد على دلالات الكفر ينتقل صاحب الرحلة إلى الكشف عن أبعاد لفظة (الغني) و (العالمين).

ب – اقتباسات من رحلة " الورثيلاني " :

جاء في معرض حديثه عن أداء الحجّاج لشعيرة من شعائر الحجّ: ((في اليوم الثالث أخذ النّاس في الرحيل والتجهيز في الانتقال إلى مكّة لقوله تعالى: ﴿ فمن تعجّل في يومين فلا إثم

[121] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص 122.

[122] – عنوان التفسير هو : أنوار التنزيل وأسرار التأويل .

عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتّقى واتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون ﴾[123] سورة البقرة، الآية / 203 . صاحب الرحلة في هذه الفقرة يبيّن لنا مرحلة من أهمّ مراحل الحجّ وهي الإقامة بمنى بعد يوم النحر. فالحجّاج الذين شاهدهم قد قضوا في منى ثلاثة أيّام كاملة، ثمّ من بعد ذلك بادروا إلى مرحلة أخرى هي الانتقال إلى مكّة المكرّمة لتأدية بقية شعائر الحجّ ومناسكه. وإيراد للآية القرآنية الكريمة أراد من خلاله إيضاح أنّ هؤلاء الحجّاج كانوا على علم بالحكم الشرعي الذي تتضمّنه الآية الكريمة، والمتمثّل في إباحة البقاء في منى يومين أو ثلاثة أيّام (وهي أيّام الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجّة)، المسمّاة في السنّة النبوية الشريفة بأيّام التشريق .

الملفت أنّ هؤلاء العابدين فضّلوا المكوث في منًى ثلاثة أيّام تامّة غير منقوصة، وهذا إيثار منهم للأجر والثواب، وحبّ منهم للطّاعة والحسنة. ودليل سكينة وطمأنينة انطوت عليها قلوبهم وجوارحهم. فاقتباس الورثلاني للآية الكريمة في هذا المقام دليل وعي من القوم بالقرآن الكريم في توجيهاته الربّانية لحجّاج بيت الله الحرام.

النصّ الآخر الذي نقف عنده للكاتب "الورثيلاني"، حديثه: ((... ومنها غار ثور الذي اختفى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في هجرتهما وصرّح القرآن بذكره في قوله تعالى: ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾، وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكّة إذا مرّ السالك إليه فيما بين الخندمة وأبي قيس وهو وراءهما، وأمّا من مرّ بأسفل مكّة

[123] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية. ص 490.

حتّى يدور إليه بأضعاف ذلك.))[124]. والعبارة القرآنية الكريمة المقتبسة هي جزء من الآية القرآنية، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم. ﴾ سورة التوبة ، الآية / 40.

هذا النصّ استحضره المؤلّف "الورثيلاني" في معرض ذكر للأماكن المقدّسة الموجودة بمكّة وما يحيط بها. فمن الأماكن التاريخية التي تجسّد مرحلة من أهمّ مراحل السيرة النبوية الشريفة (غار ثور). يؤكّد عليه "الورثيلاني" – مثل مؤلّفي السيرة النبوية الشريفة قديما وحديثا – وأنّ هذا الغار اختبأ فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، بمعية أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، في أثناء هجرتهما من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. ومن أجل أن يعطي لهذا الخبر مصداقية وقبولا لدي القارئ له يقتبس من القرآن جزءا من الآية / 40 من سورة التوبة، وهو قوله تعالى: ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾.

ويحمل هذا الاقتباس قيمة احتجاجية إقناعية متوجّه بها إلى المتلقّي. كما يحمل قيمة تكريمية متوجّه بها إلى هذا المكان المختار. والقيمة الثالثة تقديرية متوجّه بها إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه.

[124] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 475.

تنمّ عن التضحيات الكبرى التي لا تضاهى والتي بذلت من قبلهما من أجل نصرة دين بالدعوة الإسلامية في بدايات صراعها مع الكفّار والمشركين، هذه التضحيات التي أسّست بخطوات قوية وعميقة لتمكين الإسلام ونصرته.

ولا نغادر حديث "الورثيلاني" عن غار ثور دون أن ننبّه إلى القيمة الجغرافية التي شحن بها كلامه عنه، وهو ما نسجّله بوضوح في قوله السابق ((وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكّة إذا مرّ السالك إليه فيما بين الخندمة وأبي قيس وهو وراءهما، وأمّا من مرّ بأسفل مكّة حتّى يدور إليه بأضعاف ذلك))، وفي هذا إعلام للقارئ إلى القيمة العلمية التي تبعث من حين إلى آخر من كلام "الورثيلاني"، القيمة العلمية في مختلف أشكالها الدينية، والعلمية، والأدبية، والتاريخية.

ت – اقتباسات من رحلة "أبي راس":

هذا النصّ يدرج في حواراته العلمية التي كانت بينه وبين العلماء في مختلف الأماكن التي يرحل إليها: ((وقد جرينا في فنون، والحديث شجون، حتّى وقعنا في قوله تعالى: ﴿ صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين ﴾ سورة الفاتحة، الآية / 7، فقلت بحضرة مجلسه بجامع الجزائر الأعظم، محطّ أهل التنسّك المخبتين الوافين، الذي بناه "أبو تاشفين"، لم لا التفات في هذا الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة، فوقف، فقلت: المراد – والله أعلم – أنّ هذا وقع من جانب الأدب، لأنّ النعمة وقع بها الخطاب، ولا يناسب الخطاب بالغضب، ألا ترى إلى قول الخليل: ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ ثمّ قال ﴿ وإذا مرضت ﴾ ولم يقل امرضني

تأدّبا، مع أنّ المرض والشفاء من الله وحده، ومنه ﴿ ومن عصاني [125]﴾ سورة إبراهيم، الآية / 36 ولم يقل من عصاك تأدّبا وهذه أساليب القرآن التي ليست في طوق البشر ﴾ الشعراء 80))[126].

الكاتب الرحّالة "أبوراس" في هذا الحديث من رحلته ينقل لنا طرفا ممّا حدث له في تنقّله إلى بلدة الجزائر، بالضّبط في جامع الجزائر الأعظم، في وسط جمع من العلماء والعارفين. النصّ المقتبس الذي كان موضع النقاش هو قوله تعالى من سورة الفاتحة ﴿ أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين ﴾، والسبب الرئيس من سوقه لذلك ليكشف للحضور أنّ في كلام الله هذا من سورة الفاتحة أسلوب التفات[127] .

وموضع الالتفات يقع في انتقال وتحرّك الأسلوب القرآني المعجز من صيغة الخطاب في بنية المفرد (أنعمت)، إلى صيغة الغائب في صيغة الجمع (غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين

---

[125] – ﴿ ربّ إنّهنّ اضللن كثيرا من النّاس، فمن تبعني فإنّه منّي، ومن عصاني فإنّك غفور رحيم. ﴾ إبراهيم 36 .
قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون (75) أنتم وآباؤكم الأقدمون (76) فإنّهم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين (77) الذي خلقني فهو يهدين (78) والذي يطعمني ويسقين (79) وإذا مرضت فهو يشفين (80) والذي يميتني ثمّ يحيين (81) زالذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (82) ربّ هب لي حكما وألحقني بالصالحين (83) واجعل لي لسان صدق في العالمين (84) واجعلني من ورثة جنّة النعيم (85) واغفر لأبي إنّه كان من الضّالّين (86) ولا تخزني يوم يبعثون (87) يوم لا ينفع مال ولا بنون (88) إلّا من أتى بقلب سليم (89) . سورة الشعراء.

[126] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 96.

[127] – الالتفات((وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا. وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصّة، لأنّه ينتقل فيه من صيغة لإلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك ...)) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. م /1. ص 408.

)، وهذا الالتفات المتنقّل من أسلوب لآخر قد برّر له "أبوراس" بتيرير العالم الفاهم الخبير بالتعبير القرآني ورأى أنّ الدافع إلى الخطاب كان بسبب من النّعمة، والدافع إلى الغضب كان بالغيبة. وهذا تعليل محمود بالنظر إلى الفرق الكبير بين الرضى والسّخط، فلا ينبغي سوق المتباينين بصيغة واحدة، بإضافة إلى ذلك –كما بيّن "أبوراس" – أنّ مقام الأدب مع الله عزّ وجلّ يقتضي ذلك ويتطلّبه. ولم يقف عند هذا الحدّ، بل راح يقتبس نصّين قرآنيين ليستدلّ بهما على صحة وصواب ما هداه إليه اجتهاده:

– النصّ الأوّل: ﴿ الذي خلقني فهو يهدين وإذا مرضت ﴾ والشاهد في هذا الاستدلال القرآني هو نسبة الخلق إلى الله تعالى، بصيغة المتكلّم، وفي المقابل نسبة المرض إلى النفس (نفس سيّدنا إبراهيم عليه السلام) بصيغة الغائب. ومقام الأدب مع الله سبحانه هنا يوجد في عزو الخلق إلى الله، وعزو المرض إلى الذّات البشرية.

– النصّ الثاني: ﴿ ربّ إنّهنّ أضللن كثيرا من النّاس، فمن تبعني فإنّه منّي، ومن عصاني فإنّك غفور رحيم. ﴾ سورة إبراهيم، الآية /36. ووجه الاستشهاد به يقع في قوله تعالى على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألحق العصيان بذاته ولم يلحِقه بالله عزّ وجلّ. ففرق بين (عصاك) وبين (عصاني).

ومن النصوص اللطيفة في باب الاقتباس ما ذكره " أبوراس " رواية عن بعض مصنّفي الروايات والأنباء حول مكّة وبعض تضاريسها نذكر قوله : ((وقد ذكر بعض من ألّف في أخبار مكّة وجبالها، أنّ من زار هذا الغار، وكان به حزن آلمه وسأل الله إذهابه أذهبه الله عنه،

ولا يحزن بعد ذلك، وكأنّه "اقتبس" ذلك من قوله تعالى: ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا. ﴾. الشيء الملفت في هذا النصّ توظيف الكاتب أبي راس لكلمة (اقْتَبَسَ)، وذلك في سياق ما أورده بعض المؤلّفين من أنّ زيارة غار ثور من شأنها أن تزيل الحزن، وترفع الغمّ، وتذهب بالعسر والشدّة. وقد رأى أبوراس في هذه المعاني أنّها مأخوذة من قوله جلّ وعلا السّالف الذكر.

هذا يدفعنا للقول حسب هذا الاجتهاد من رحلة الكاتب أبي راس أنْ ليس فقط النصوص من قرآن وحديث وشعر هي التي تقتبس وتجلب ليبنى عليها، بل كذلك المعاني والأفكار تقتبس وتستدعى من مختلف النصوص الأدبية الشعرية والنصوص النثرية من كلام العرب المأثور ، وكذالك من المصدر الرباني القرآن الكريم ، ومنها أحاديث النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم .

ج – اقتباسات من رحلة أحمد المقرّي :

النصّ الموالي من كتاب المؤلّف الرحّالة "أحمد المقرّي" توجّه به إلى شريف مكّة "محسن بن الحسين" ((اللهمّ يامن جعل من يشاء من عباده محسنا، وحلّاه بالعدل والإنصاف، وشاد به للعدل أعظم البنا، حباه أحسن الأوصاف، أسألك بأفئدة أنت أعلم بنياتها، ونمدّ إليك ضراعة أنت الكفيل ببلوغ أمنياتها، متوكّلين عليك توكّل المضطرّ العاني، متوصّلين إليك بقولك ﴿ وإذا

سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاعي إذا دعاني ﴾))[128]، هذه النصّ قائم على مجموعة من التوسّلات تدور كلّها حول قدرة الله وعظمته ومشيئته في الإحسان والعدل وكافّة الصفات الحسنة، متبوعة بمجموعة أخرى من التوسّلات. الكلام المقتبس هو قوله تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاعي إذا دعاني ﴾، اقتبسه الرحّالة " المقرّي " ليس ليستدلّ به ويحتجّ، وليس ليوضّح به ويكشف، وليس ليؤكّد ويمكّن، وإنّما استحضره إلى جانب ما سبق وسيلة لالتماس السماع والاستجابة، وواسطة لجعل السميع البصير يحنّ ويمنّ وهو الحنّان المنّان. فالاقتباس هنا يحمل قيما منها القيمة التعبّدية التي نجدها بين العبد الدّاعي ربّه والله المرغوب والمطموع فيه، العبد القاصد لفضله، المريد لخيره.

ث – اقتباسات من رحلة "ابن حمادوش":

هذا شطر من الخُطبة التي ساقها في رحلته، وهي من الخطب التي كانت أنشأها وقت عقد الزواج، يقول: ((الحمد لله الذي جعل الدنيا متاعا إلى حين، وأباح لعباده المؤمنين، ما نزّه به نفسه من الصاحبة والبنين، قال تعالى وهو أشرف القائلين: ﴿ أحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين،﴾ فالنكاح عصمة للدين، وشريعة من شرائع سيّد المرسلين، جمع الله به الأرحام المنقطعة، والأنساب المفترقة، وجعله سبحانه سببا للتناسل والتناسب والتصاهر، والتقارب فقال ولم يزل عليما خبيرا، ﴿ وهو الذي جعل من الماء بشرا، فجعله نسبا وصهرا، وكان ربّك قديرا. ﴾ نحمده على ما أمر به من محمود النكاح، ونشكره

[128] – أبو لعبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق. تحقيق محمّد بن معمر . مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر. 1425 هـ – 2004م. ، ص 75، 76.

على ما نهى عنه، من مذموم السفاح، والصلاة والسلام التّامّان الأكملان على سيّدنا محمّد الداعي إلى طريق القلاح والنجاح، وعلى آله وأصحابه الأكرمين أهل الفضل والصلاح ماغار كوكب في الأفق ولاح))[129].

– المقتبس الأوّل: ﴿ أحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين،﴾[130] هذا القِسم من الآية الكريمة إذن من الله تبارك وتعالى بالزواج من غير اللواتي حرّمهن، وأن يطلب ذلك بالأموال الطيّبة التي لا حرام فيها ابتغاء العفّة وحبس النفس عن الزنا . فهذا الاقتباس وضعة صاحب خطبة النكاح في المكان اللائق به لم يحرّف منه شيئا، وفيه دعوة من الخطيب إلى طلب الحلال والسعي من أجله، والكفّ عن الحرام والمبادرة إلى النّأي عنه. كما فيه ترغيب إلى الزواج والمسارعة إليه بالأخذ بأسبابه.

والملحوظ في الكلام الذي أورد فيه الرحالة الخطبة أنّ فيه توطئة للتوجيه القرآني المقتبس وذلك بقوله : (الحمد لله الذي جعل الدنيا متاعا إلى حين، وأباح لعباده المؤمنين، ما نزّه به نفسه من الصاحبة والبنين، قال تعالى وهو أشرف القائلين)، وهذا التمهيد منسجم وملائم لمحتوى الكلمات القرآنية المقتبسة. ويقف المتلقّي للحديث الذي عرضه الكاتب عقب قوله تعالى تأكيد للمعاني التي حملها وشملها، (فالنكاح عصمة للدين، وشريعة من شرائع سيّد

[129] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال.– ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب.، ص 266، 267.

[130] هذا جزء من آية في قوله تعالى: ﴿ والمحصنات من النساء إلّا ما ملكت أيمانكم، كتاب الله عليكم، وأحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهنّ فريضة، ولالا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة. إنذ الله كان عليما حكيما. سورة النساء، الآية / 24.

المرسلين، جمع الله به الأرحام المنقطعة، والأنساب المفترقة) . فكون الزواج حصن لدين المسلم والمسلمة ووقاية لهما، وسنّة بارزة من سننه صلّ الله عليه وسلّم، به تأتلف الأرحام وتتقارب كلّها دلالات مستقاة من قول الله اللطيف الخبير.

المقتبس الثاني في الخطبة نفسها، يستحضر صاحب الخطبة نصّا مقتبسا آخر، هو قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعل من الماء بشرا، فجعله نسبا وصهرا، وكان ربّك قديرا ﴾ سورة الفرقان، الآية /54، وقد وطّأ له بقوله (وجعله سبحانه سببا للتناسل والتناسب والتصاهر، والتقارب فقال ولم يزل عليما خبيرا) وهذه هي بعض القيم المقصودة من الزواج، من بشرية وفطرية، وعاطفية، واجتماعية. والملفت للانتباه أنّ عقب قوله تعالى أورد الحمد لله والثناء عليه، الحمد لله على نعمة الزواج، وشكره على مانهى عنه وحرّمه في كتابه من الزانا والزواج من غير الحلال. وفي الأخير نلمس أنّ توظيف النصّين القرآنيين كان فيه ذكاء كبير إذ لم تفسّر وإنّما فسّرا وفهّما من خلال التمهيد والتعقيب.

2 – الاقتباس من الحديث النبوي الشريف:

أ – هذا النصّ من رحلة " أحمد المقرّي " الكاتب الرحّالة، هو عبارة عن دعاء طويل يجمع فيه بين طرفي الدعاء، المتمثّلين في تقديم الوسيلة لله عزّ وجلّ من جهة، وبين الطلب وسؤال الحاجة، والاستعانة والتضرّع من جهة ثانية. وهذا ما ورد في قول " المقرّي ": ((متوسّلين إليك بنبيك عليه الصلاة والسلام الذي أوتي جوامع الكلم، فتمّت كلّ كلمة من كلماته ما لا يحضر من المعاني، أن تفرغ غمائم النصر وشآبيبه، وتسبغ عمائم الفخر وجلابيبه، على عبدك

الذي استخلصته من أشرف العناصر، واستخلفته على من تثني عليهم الخناصر، ومنحته النصر الربّاني، ولن يُخذل من أنت له ناصر، وزيّنت بطلعته الحسنبة أقطار بيتك الحرام ... وبوّأته من المجد نواصيه، وملّكته من السعد أقاصيه، ...))[131] . الاقتباس الذي نقصده في هذا النصّ قول الرحّالة (جوامع الكلام). هذه العبارة هي من قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم، اقتبسها الأديب " أحمد المقرّي " منه. وقو وردت هذه العبارة في عدّة روايات منها :

– قوله صلّى الله عليه وسلّم: ((فضّلت على الأنياء بستّ، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة وختم بي النبيّون)). رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

– وقوله صلّى الله عليه وسلّم: ((نصرت بالرعب، وأعطيت جوامع الكلم، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي. رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

– وقوله صلّى الله عليه وسلّم: ((بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي)) رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

– وقوله صلّى الله عليه وسلّم: ((أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا)) رواه أبو يعلى والبيهقي عن عمر رضي الله عنه، ورواه الدارقطني عن ابن عبّاس رضي الله عنه.

[131] – أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق. ص 75، 76.

– وقوله صلّى الله عليه وسلّم: ((إنّما بعثت خاتما فاتحا وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه، واختصر لي الحديث اختصارا فلا يهلكنّكم المتهوّكون)) رواه المحدّث البيهقي عن الصحابي أبي قلابة رضي الله عنه .

جوامع الكلم فيها شقّان:

– الإيجاز في اللفظ والقلّة في الكلام عن بيّنة وبصيرة، الاختصار في المفردات والتراكيب عن اقتدار.

– المعاني الكثيرة، والدلالات الوافرة، المقاصد المتعدّدة، والمرادات الكثيفة الثرية العامرة بالخير والبرّ تساق سوقا للعلم والمعرفة، والتزكية والتطهير، والبناء والتأسيس للفرد والأسرة معا، والجماعة والأمّة على حدّ سواء. وهذه المعاني والمقاصد موصولة بحبل قويّ رزين في هذين العنصرين مع القرآن الكريم.

والكلام إذا كان على هذا النحو كان نظم الكلام لطيفا جميلا ساحرا، لا غموض فيه ولا تعقيد، لا يشقّ على الفكر في القبض على مضامينه، ولا يتيه في رصد ما وراءه من ثمرات وغنائم شتّى. إنّها الجبلّة الربّانية والفطرة الموهوبة التي آتاها الله نبيّه ورسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم. والملاحظ أنّ " أحمد المقرّي " لم يغفل عن تقديم بعضا من معاني عبارة الرسول صلّى الله عليه وسلّم (جوامع الكلم)، إذ ذكر في ذلك : (فتمّت كلّ كلمة من كلماته ما لا يحضر من المعاني). فمعاني كلمات الرسول صلّى الله عليه وسلّم فوق العدّ والحصر، ولا يمكن إحصاءها من قبل أيّ كان من البشر الأذكياء العلماء، فضلا عن البشر الذين افتقدوا الفضانة والنباهة،

وافتقدوا الثقافة والمعرفة، لأنّ المصدر الذي أمدّها بالحياة والقوة، وأكسبها المناعة والحدّة ، وطعّمها بالزيادة والجمال إنّما هو قوله عزّت أسماؤه، وجلّت صفاته في كتابه العزيز من كلامه المكّي: ﴿ وما ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحى ﴾ سورة النجم، الآية / 3،4.

ب – والاقتباس النّبوي الثاني الذي نسوقه ذكره " أبو راس " ضمن رحلته " منّة الإله ". يروي " أبوراس " أنّه لقي الشاعر الرحّالة " أحمد بن عمّار " فقال له " المقرّي ": سألني أحد علمائها وكبير زعمائها ... عن قوله تعالى : ﴿ إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ﴾ ((قائلا: سألني عن ذلك بعض الطلبة، ونقل لي عن الشيخ زادة الحنفي في حواشي البيضاوي: أنّ الإثمين : إثم العزم، وإثم الفعل. هذا حاصل كلامه. قال لي: فقلت: إنّ الطالب الذي نقل لك عن الشيخ زاده أمين في النقل أم لا ؟ فإنّي ارتبت في صحّة هذه النسبة، لأنّ ظاهر الكلام يقتضي أنّ العزم المنضمّ إليه الفعل يكتب إثما مستقلّا – زيادة على إثم الفعل – ونصوص السنّة بخلافه. ففي الحديث الشريف (من همّ بسيّئة فلم يعملها كتبت عليه حسنة، فإن عملها كتبت له سيّئة)، نعم إن همّ بالفعل ومنعة مانع غير خوف الله كتبت له سيّئة، يشهد له قوله في الحديث الآخر (إنّما تركها جرّائي) ...))[132].

هذا الكلام النبوي هو جزء من الحديث القدسي، وهو وفق ما يلي: ((عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى قال: إنّ الله كتب الحسنات والسيّئات، ثمّ بيّن ذلك: فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتب الله عنده حسنة

[132] – أبوراس، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. ص 93

كاملة، وإن همّ بها فعملها، كتب الله عنده عشْرَ حسنات إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همّ بسيّئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيّئة واحدة.)) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما بهذه الحروف.)) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما[133].

هذا الاقتباس الذي قدّمه " أبوراس " على لسان "أحمد بن عمّار " هو ردّ علمي وشرعي على على القول بإثم العزم المقابل لإثم الفعل الذي يتبع بالسيّئة والخطايا. " أحمد بن عمّار" يرى أنّ العبد المؤمن يحاسب على ما ينوي فعله من سيّئة أو ما يريد أن يقترفه من معصية إذا أتبعت نيّته وإرادته بفعل السيّئة واجتراح المعصية. أمّا إذا حصل من المسلم أو المسلمة مجرّد القصد إلى السيّئة والعزم على فعلها دون عمل ذلك وارتكابه فلا يكتب له شيئا من الإثم والخطيئة، فلا تترّتب عن ذلك ذنوب ومعاصي بل يكتب الله في مقابل ذلك لعبده الأجر والحسنة، وذلك طبقا لما أورده الرحالة الفقيه "أحمد ابن عمّار" عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في القسم الثاني من الحديث النبوي الصحيح[134] السابق ((وإن همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيّئة واحدة.)). وهذا الحديث النبوي

[133] – الحديث مدوّن في: كتاب الأربعين النووية للإمام أبي زكرياء يحي بن شرف النووي. خرّج أحاديثه وشرح غريبه أحمد عبد الرزّاق البكري. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، لصاحبها عبد القادر محمود البكار. ط /4. 1428 هـ – 2007 م . ص 27، 28. وذكره كذلك حسن عبد الجليل يوسف، في كتابه: إعراب الأربعين حديثا النووية. مؤسّسة المختار للنّشر والتوزيع، مصر الجديدة القاهرة. ط / 1 . 1424 هـ - 2003 م . مصر ، القاهرة ، الإسكندرية. رقم الحديث كما هو مدوّن في الكتاب : السابع والثلاثون (37).

[134] – الحديث الصحيح: ((ما اتّصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علّة)) محمود الطحّان، تيسير مصطلح الحديث. مكتبة المعارف. الرياض، السعودية. ط /9. 1417 هـ – 1996 م . ص 34.

الشريف وبالنظر لما يتضمّنه من رحمة الله الواسعة وعفو الله العاميم أدرجه العديد من العلماء في باب " عظيم لطف الله وفضله "[135].

والكلام النبوي الذي ساقه الرسول عن الله تعالى (الحديث القدسي) واضح الدلالة لا غرابة فيه ولا إشكال. وفحوى الكلام النبوي من قصد سيّئة ولم يعملها فله حسنة تامّة، ومن عزم على سيّئة وفعلها كتب الله عليه سيّئة واحدة. وهذا الاقتباس يحمل قيمة علمية واحتجاجية كبيرة فيها ردّ مقنع عل الزاعم بأنّ من نوى إثما ولم يعمله فهو آثم. وليس بعد هذا الدليل دليل. وفيه قيمة الرحمة الربّانية الواسعة التي لا يحدّها حدّ . هذه نماذج قليلة من الاقتباسات في رحلات الجزائريّين، وللقارئ المهتمّ بذلك سيجد اقتباسات كثيرة ومتنوّعة فيها الأشعار، وأقوال العلماء، ونصوص رحلية لغيرهم.

ثانيا: الصورة :

نقصد بالصورة تلك الأساليب التي أدرجها " أبو يعقوب السكّاكي " في مجال العلم الثاني من علمي البلاغة التي تناولها في القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم الذي خصّصه لعلم البلاغة، والذي أسّسه من جديد. هذ العلم الثاني هو علم البيان. وقد عرّفه بقوله ((وأمّا علم

[135] – ومنهم : أجمد عبد الرزّاق البكري الذي ذكرنا كتابه آنفا. وعنوان هذا الباب له ما يقوّيه من قوله تعالى : واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هدنا إليك. قال عذابي أصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كلّ شيء. فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والذين هم بآيات ربّهم يومنون الأعراف / الآية 156. ومن الحديثين النبوي والقدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: ‘نّ رحمتي سبقت غضبي.)) رواه البخاري ومسلم.

البيان فهو معرفة إيراد المنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطإ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه [136])) . وقد تناول في علم البيان التشبيه، المجاز اللغوي، المجاز المرسل، الاستعارة، المجاز العقلي، الكناية.

والباحث في عبارة الصّورة سيجد أنّ الذي جعل النقاد والبلاغيين قديما وحديثا يطلقون على هذه الأساليب اسم الصورة هو التعريف والشرح الثاني لعلم البيان الذي أورده "السكاكي" بعد الأوّل المذكور آنفا وهو ((إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة))[137]. فذكر الصورة هنا جعل الدارسين يقرنون بينها وبين أساليب التصوير انطلاقا من هذا التعريف فصار يبحث عن الصورة أو أساليب التصوير ضمن التشبيه بأنواعه، والمجاز اللغوي بنوعيه، والمجاز العقلي، والكناية بأطرافها الثلاثة (الصفة، الموصوف، النسبة).

هذا لا يفهم منه أنّ القدماء لم يقفوا عند الصورة بأساليبها المتنوّعة، فأغلب المصنّفات التي كتبت في معاني القرآن وإعجازه وتفسيره، وفي النقد والبلاغة قد تناولت واحدا أو أكثر من هذه الأساليب التصويرية، فمثلا في القرن الثالث الهجري نجد " أبا عبيدة والجاحظ، وابن قتيبة وابن المعتزّ " قد درسوا واحدا أو أكثر. وكذلك في القرن الربع الهجري مثل " قدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وابن طباطبا، وابن فارس، والآمدي والقاضي للجرجاني، وابن جنّي ".

– نماذج من الصورة في رحلة " أبي راس " :

– في وصف القاهرة ((ثمّ ركبت البحر إلى مصر البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد، والفرا الذي في جوفه كلّ الصّيد، استقلّ به كرسي خلافة الإسلام، وأعار بالرصافة والحسن ومدينة الإسلام،

[136] – أبو يعتقوب السكاكي، مفتاح العلوم.. ص/162

[137] – المصدر نفسه. ص 230.

وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، وتعبّر عن كماله فنون الكلام،ودخلت بناءها المبهت المعجب، وخارجها المنبت المنجب، فحمدت الرؤوف المنزل، ذا العطايا المجزل، حتّى صار (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، هنّا بمعزل، ذا العمارة الهامية، كأمواج البحور الطامية، ذا العلوم الزاهرة بالأزهر، والعساكر القاهرة بالقلعة، والمزهر والفسطاط))[138].

1 – الصورة الأولى نجدها في بداية الفقرة (ركبت البحر) يعبّر في هذه الجملة الخبرية عن لحظات السفر إلى مصر، والانتقال إليها بواسطة البحر. والمتواضع عليه أنّ البحر واسع عظيم حدوده مترامية الأطراف. لا يمكن بأيّة حال من الأحوال أن يركبه شخص يمفرده، فشتّان بين الحيّز الي يشغله الفرد والجماعة مهما كبر عددها وعظم، وبين الحيّز الي يستولي عليه البحر والذي لا يمكن أن يقاس. ومادام أنّ البحر لا يمكن مهما كانت الظروف أن يُركب في مجمله فالتعبير غير وارد على وجه الحقيقة المتعارف عليها، بل هناك صورة مجازية .

اللفظ المجازي هو البحر. والقرينة الدالّة على ذلك هي: البحر. وفي الوقت نفسه هي التي منعت من إيراد المعنى الأصلي الحقيقي. والمتابع لهذا الصورة سيجد أنّ الرحّالة الورتيلاني قد أطلق لفظ البحر وهو كلّ، لكنّه أراد الجزء منه، لأنّ الركوب يكون في قسم صغير من البحر مهما كبُر المركب واتّسع، وقد اصطلح بعض علماء البلاغة وتبعهم في ذلك العديد من المعاصرين على تسمية هذا النوع من المجاز " المجاز المرسل[139] " والعلاقة بين الكلمة الحقيقية (

[138] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 115.

[139] – ((المجاز اللغوي ينقسم قسمينهما المجاز المرسل والمجاز الاستعاري، وأنّ المرسل ما كانت علاقته غير المشابهة والاستعاري ما كانت العلاقة فيه المشابهة. 152. علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة. بدوي طبانة. دار الثقافة بيروت لبنان.

في حيّز صغير من البحر) والمجازية (البحر) هي علاقة الكلية[140] بمعنى ذكر الكلّ وأريد الجزء. ومن المعاني التي يمكن أن نستشفّها من هذه الصورة المجازية:

- حبّ الّسفر على ظهر البحر لما يحصل جرّاء ذلك من أحداث ووقائع وذكريات منها الحلو والمرّ ومنها المتعب والمريح.

- الشوق الكبير إلى البحر والتعلّق القوي بالبحر، فالركوب في جزء منه كالركوب في بأكمله.

– تعلّقه العميق بما ما يحمله البحر من جمال في ظاهره ، ونزوعه إلى سحره الكامن في بواطنه كألوان السمك الصغيرة والكبيرة، والجواهر النفيسة المفقودة، والأعشاب الزاهية الألوان المتوارية في الأعماق، والتي لا تعرف السكون والموت، والصخور المبهرة الفاتنة.

- إبراز العلاقة الحميمية بين الرحالة " الورتيلاني " والبحر الذي أقاله إلى متغاه في مصر. فلولا هذه العلاقة الخاصّة التي تربطه به ما عبرّ عن ذلك الجزء اليشير القليل الذي حمله بالكلّ الكبير الواسع الذي يحمل كلّ الدنيا ولا يضيق به مهما كانت الظروف، وهذا الحمل قد تعقبه النجاة المقصودة، وقد يتلوه الهلاك المفضي بالأنفس وما يصاحبها والذي لا يبقي ولا يذر.

---

[140] – من علاقات المجاز المرسل (الكلية): ((الكلية أي أن يذكر اللفظ الدالّ على الكلّ مرادا به بعض أجزائهما في قوله عزّ اسمه يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت فالمراد من الأصابع الأنامل التي هي جزء منها والقرينة استحالة إدخال الأصابع في الآذان وفي ذلك إيحاء بشدّة الخوف والقزع. حسن طبل، في علم البيان. 1995م. مكتبة الزهراء، القاهرة مصر. ص 39.

((الكلية أن يكون اللفظ المذكور كلّا للمعنى المراد، كقوله تعالى: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا المائدة 38. والمراد القطع إلى الرسغ، فعبّر بالكلذ وأراد الجزء. ومثلها قوله تعالى على لسان سيّدنا نوح عليه السلام وإنّ كلّما دعوتهم اتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم نوح 7. عبد الفتّاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم. دا الفكر العربي، القاهرة مصر. 2000 م . ص 144.

2 – الصورة الثانية في قوله: (والفرا الذي في جوفه كلّ الصّيد).

أصل هذا القول مثل[141] من أمثال العرب الخالدة (كلّ الصيد في جزف الفرا)، وقد ذكر في مورده ((قال ابن السكّيت: الفرا الحمار الوحشي، وجمعه فراء. قالوا: وأصل المثل أنّ ثلاثة نفر خرجوا متصيّدين، فاصطاد أحدهم أرنبا، والآخر ظبيا، والثالث حمارا ، فاستبشر صاحب الأرنب، وصاحب الظبي بما نالا، وتطاولا عليه. فقال الثالث: كلذ الصيد في جوف الفرا، أي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما، وذلك أنّه ليس ممّا يصيده النّاس أعظم من الحمار الوحشي. وتألّف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبا سفيان بهذا القول حين استأذن على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فحجب قليلا ثمّ أذن له، فلمّا دخل قال: ما كدتَ تأذن لي حتّى تأذن لحجارة الجلهمتين، قال أبو عبيد: الصواب الجلهتين، وهما جانبا الوادي، فقال صلّى الله

[141] – المثل : ((وقال المرزقي في شرح الفصيح: المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتّسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يضحّ قصدهبها من غير تغييريلحقها في لفظها، وعمّا يوجبه الظاهرإلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستُجيز من الحذف. ممّا أملاه أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسين المرزوقي، شرح الفصيح لثعلب. قراءة وتحقيق سليمان بن إبراهيم العايد. دار المعارف القاهرة مصر. د ت . ص 297.

– ((والمثل ما ترضاه الخاصّة والعامّة في لفظه ومعناه حتّى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السرّاء والضرّاء، واسادرّوا به المتمنّع من الرّ، وتوصّلوا به إ لى المطالب القصية، وتفرّجوا به عن الكرب المكربة، وهو من أبلغ من الحكمة، لأنذ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدة في النفاسة.)) أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي. ديوان العرب . ج /1. تحقيق أحمد مختار عمر، مراجعة إبراهيم أنيس. مجمع اللغة العربية. مؤسسة دار الشعب القاهرة مصر. 1974 م. ص 74.

عليه وسلّم: يا أبا سفيان أنت كما قيل: كلّ الصيد في جوف الفرا، يتألّفه على الإسلام. وقال ابو العبّاس: معناه إذا حجبتك قنع كلّ محجوب. يضرب لمن يُفضّل على أقرانه)).[142]

يمكن اعتبار هذا المثل بتمامه صورة من الصور المجازية في شكل استعاري[143]. فقد استعار الكاتب هذا المثل العربي للتعبير به عن مكان جغرافي عزيز وجليل. والملاحظ أنّه عدل عن تقديم الصورتين في شكل تشبيه بركنيه المعروفين، ما دام أنّه لم يصرّح بالمشبّه، وإنّما اكتفى بالتصريح بالمشبّه به وهو الحمار الوحشي الكبير الضخم إذا قيس بالارنب من جهة وبالظبي من جهة أخرى. من هنا كانت الاستعارة تصريحية[144]، وأركانها:

- المستعار منه : المثل العربي
- المستعار له : بلد مصر العربية
- المستعار : (والفرا الذي في جوفه كلّ الصّيد).
- المحذوف من عناصر الاستعارة: الميتعار له

[142] - أحمد الميداني، مجمع الأمثال. ج / 2 . تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد. 1376 هـ – 1955 م. مطبعة السنّة المحمّدية، د ب. ص 136.

[143] - ((الاستعارة في لسان العرب هي طلب الإعارة، فإذا طلب صديق من صديقه أن يعيره كتابا فإنّ هذا الطلب يسمّة استعارة. أمّا الاستعارة في الاصطلاح فهي تعني اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له أو بتعبير آخر مجاز علاقته المشابهة .. في الحقيقة تشبيه حذف أحد طرفيه، لأنّ المستعار له يقابل المشابه، والمستعار منه يقابل المشبّه به، وحتّى يكون الأسلوب استعارة لا بدّ من االستغناء عن أحد الطرفين، إمّا المشبّه أو المشبّه به. عبد الفتّاح محمّد سلامة، نظرات تطبيقية في علم البيان. دار المعارف، القاهرة مصر. 1995 م. ص 80.

[144] - ((الاستعارة التصريحية وهي ما صرّح فيه بلفظ المشبّه به دون المشبّه، أو ما استعير فيها لفظ المشبّه به للمشبّه، وذلك قوله تعالى: كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . إبراهيم 14.)) حسني عبد الجليل يوسف، التصوير البياني بين القدماء والمحدثين دراسة نظرية تطبيقية. دار الآفاق العربية القاهرو، مصر. 1998م. ص 49.

– المثبت المذكور : المستعار.

وممّا يمكن استخلاصه من توظيف هذه الاستعارة:

– التقدير الكبير الذي تحتلّه مصر في قلب الرحّالة الورتيلاني لما تحتضنه من قيم وآثار مازالت شاهدة على عظمة هذا البلد ومنزلته العالية في الحضارة العالمية وفي التاريخ العربي الإسلامي القديم والحديث.

– الحبّ العظيم الذي يكنّه لهذا القطر الإفريقي الشمالي لما يزخر من معالم وآثار حيّة خالدة لا تحصى، لا يمكن حصرها في زاوية وحيدة بل هي مبثوثة في كلّ مكان، ومتواجدة في كلّ عهد من عهود حياتها، وفي كلّ زمن من الأزمنة القديمة والمتوسّطة والحديثة بالنسبة للوقت الذي كتبت فيه رحلة الورتيلاني، وفي شتّى مجالات الحياة الفكرية العقلية، والثقافية العلمية، ة والعمرانية، والاجتماعية، والدينية، والجغرافية، والأدبية. فما من مجال إلّا وفيها أعلام وعلماء، وفيه كتب ومصنّفات، وفيه عمارات ومجسّدات نابضة بالحيات على الرغم من صروف االدهر التي كابدتها.

– فضل مصر على سائر البلدان العربية والإسلامية، لما صدّرته لها من صادرات أدبية وفكرية وعلمية بالدرجة الأولة، ولما قدّمته من خدمات لا تعدّ، ولعلّ جامع الأزهر وما تخرّج منه من علماء في مختلف فروع العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والأدبية واللغوية. دليل وضّاء على ذلك. ولا زالت تحظى هذه المنارة العلمية العتيقة لحدّ الآن بهاذا الأعتراف والفضل والجميل.

3 – الصورة الثالثة: (وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام)، الصورة التي نودّ الوقوف عندها هي الواردة في قوله (ألسنة الأقلام) والحديث هنا عن شدّة إعجابه ببلد مصر، ولعلوّ مكانتها بين البلدان وعظم شأنها بين الأقطار . (وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام)، تعبّر عن كماله فنون الكلام، هذه الصورة صورة حاملة متضمّنة لصورتين متداخلتين، يصعب الفرز بينهما. الأولى تستغرقها العبارة كاملة (ألسنة الأقلام)، والثانية محصورة في لفظة (الأقلام).

– الصورة الأولى (ألسنة الأقلام) هذا تشخيص واضح، وتجسيد جليّ للأقلام، فما الأقلام بإنسان أو حيوان يملك جوارح، ومن بينها اللسان. فما الأقلام إلّا أدوات اضطرّ لصنعها سائر البشر منذ القديم، فكان استعمالها وسيلة دقيقة ناجحة للكتابة وللإبانة عن الأفكار والعواطف المختلفة والمواقف الداخلية والخارجية الفردية والجماعية. لكنّ الرحّالة أبا راس المعسكري هنا اصطنع هذه العبارة التصويرية وركّبها فجعل من القلم إنسانا له لسان. والأصل في هذه الصورة التشبيه، تشبيه القلم بالإنسان، لكنّه لم يُورده الكاتب وفق هذه الهيئة البيانية، فالذي ذكره هو المشبّه (الأقلام)، والمشبّه به محذوف (الإنسان) ناب عنها أحد لوازمه أو مكوّناته (اللسان). وبناء على ما سبق فالصورة البيانية هنا مجاز لغوي من نوع الاستعارة، وبالتدقيق استعارة مكنية، لما لأوضحنا ذلك آنفا.

وعناصر هذه الاستعارة هي كالتّالي:

– المستعار: ألسنة . وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، وتعبّر عن كماله فنون الكلام .

– المستعار منه: الإنسان.

– المستعار له : الأقلام.

ومن دلالات هذه الصورة الاستعارية التي اهتدة إليها صاحب الرحلة نذكر ما يلي:

– القلم في تعابيره الوصفية والتصويرية لا يقلّ قيمة عن اللسان في التفصيل للوقائع وإيضاح الأحداث وبيان العواطف والآراء بيانا كافيا شافيا.

– قيمة ما يُكتب بالأقلام لا يقلّ قيمة عن ما تتحدّث به الألسنة، فما يقال لا يعمّر إلّا وقتا قصيرا ضيّقا وسرعان ما يزول وبنسى. أمّا ما يكتب في مختلف فنون التأليف الأدبية واللغوية والشرعية والتاريخية وغيرها يبقى خالدا متواترا، وأكبر دليل على ذلك ما نقرؤه للأوائل ونطالعه للأجداد، فكم من قول ذي قيمة كبيرة لم يدوّن رحل واندثر، وفي المقابل كم من خبر حرّر وكتب قرّ وبقى حيّا لم يمت منتشرا متناقلا في أنحاء كبيرة من المعمورة، وبين عدد كبير من النّاس بمختلف أجناسهم.

– الصورة الثانية (الأقلام): وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، وتعبّر عن كماله فنون الكلام.

في واقع الأمر الأقلام ليست هي التي تحكي الأخبار وتسرد المرويات، وليست هي تصف تكشف الحقائق والمخفيات، وليست هي التي تسترسل في عرض الأفكار والإطناب وفي تقديم

المشاعر. فالأقلام من خلفها (العقول والقلوب)، وهي المصدر لكلّ ما يكتب، والأصل والمنطلق في كلّ ما يطّلع علية في القراءة، فلولاها ما عسى أن يقدّم القلم مهما كان جميلا ومذلّلا، ومهما كان مصنوعا صناعة متقنة فائقة؟ وبالاعتماد على ما سلف فالأقلام استعملت استعمالا مجازيا فهي لا حول لها ولا قوّة، والحقيقة التي عبّرت عنها هي القلوب والعقول أو الإنسان المتعلّم المثقّف. والقرينة التي منعت من إيراد المعنى الأصلي هي (الأقلام)، وهذه القرينة هي التي دلّتنا من الناحية الثانية على أنّ المراد من توظيفها هو قصد مجازي وليس حقيقيا. وهذا المجاز مجاز مرسل علاقته السببية[145]، بمعنى أنّ الأقلام وظّفت بديلا مكان القلوب أو العقول لكونها سببا ووسيلة للكتابة. كما يمكن عدّ علاقتها آلية لأنّ الأقلام بدورها آلة استخدمت لتجسيد الأفكار والعواطف. واركان التعبير المجازي هي:

- اللفظة المجازية: الأقلام.
- الحقيقة المعبّر عنها بالمجاز وهي غائبة: القلوب والعقول.
- القرينة المانعة من إيراد المعنى الحقيقي والدالّة على التعبير المجازي : الأقلام.
- الأقلام مجاز وقرينة.

[145] – المجاز المرسل وعلاقته السببية: ((السببية: وذلك بأن يطلق لفظ السبب ويراد المسبّب. نحو قولهم: رعينا الغيث أي المطر، وهو لا يرعى ولإنّما يرعة النبات الذي كان المطر سبب ظهوره. ومن أجل ذلك سمّي النبات غيثا، لأنذ الغيث سبب وجود النبات وظهوره، فالعلاقة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في هذا المجاز هي السببية. ومنه قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه. المجاز هنا في لفظة الشهر والشهر لا يشاهد وإنّما الذي يشاهد هو الهلال الذي يظهر أوّل ليلة في الشهر، والهلال سبب في وجود الشهر. فإطلاق الشهر عليه مجاز مرسل علاقته السببية)). عبد العزيز عتيق، علم البيان.دار النهضة العربية بيروت لبنان. د ت . ص 158.

– العلاقة البين اللفظة الحقيقية والمجازية هي السببية أو الآلية.

ومن أهمّ المعاني التي استهدفها الكاتب الرحّالة هي من هذا المجاز : إبراز قيمة القلم ومكانته العليا. وهذا متجانس مع بعض المعاني التي يمكن فهمها من قوله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربّك بمجنون. وإنّ لك لأجرا غير ممنون. وإنّك لعلى خلق عظيم ﴾ سورة القلم / 1،2،3،4. فالقسم بالقلم يحمل من المعاني ما يمكن الاستعانة به في فهم هذ الصورة المجازية المتميّزة، والتي تعبّر عن خيال خصب وثري أنتجها وساقها لتسبح في خيال المتلقّي للمرّة الثانية.

نماذج أخرى من الصورة في رحلة " أبي راس " :

يقول صاحب الرحلة ((وها أنا أذكر نبذة في مدحها نظرا إلى ما كانت عليه في سالف الأزمان، وأمّا الآن فهي كأمس الدّابر والميت القابر، وقد استولى على أكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغراب. فأقول: تلمسان ! وما أدراك ما تلمسان ! فبقعة الظلّ الأبرد، ونسيجه، المنوال المفرد، وكناش الغيد الخرد، وكرسي الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون، وخروب التين والزيتون، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مجانية، وتشرق بشاطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانية ... يا تلمسان اصبري على كمد الزمان وكدّه، وقلب مِحنّة، وذهاب رفده، فعسى الله أن يأتي بالفتح من عنده .))[146]

[146]– محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 108.

والصور البيانية التي أوردها الأديب في رحلته (فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته) هي وفق ما يلي :

- التشبيه: وأمّا الآن فهي كأمس الدّابر.
- التشبيه : والميت القابر.
- الاستعارة المكنية: وقد استولى على أكثرها الخراب،
- الاستعارة المكنية: وناح على خاوي عروشها الغراب.
- الاستعارة المكنية: وتشرق بشاطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانية ...
- المجاز المرسل : يا تلمسان ذكر المكانية .
- الاستعارة مكنية: اصبري على كمد الزمان وكدّه.

اخترنا للدراسة الصورتين التشبيهيتين الأولى والثانية وهما على التوالي: (وأمّا الآن فهي كأمس الدّابر) والثانية (والميت القابر) . في الصورة الأولى شبّه مدينة تلمسان (هي) بقوله (أمس الدابر)، وقد ربط بين المشبّه (هي)، والمشبّه به (أمس الدابر) بواسطة (ك)، وهي هنا كاف المعروفة بأداة التشبيه من الناحية البلاغية، ومن الناحية النحوية حرف جرّ. وهذا النوع من التّشبيه يسمّى تشبيها مرسلا لتوفّره على أداة التشبيه، ويسمّى كذلك بالتشبيه المجمل لغياب وجه الشبه عنه.

في الصورة الثانية شبّه المدينة الزيانية بقوله (الميّت القابر)، وأداة التشبيه هنا محذوفة، ووجه الشبه كذلك غير مذكور. وهذا النوع من التشبيه يسمّى تشبيها مؤكّدا لغياب أداة

التشبيه، ومجملا كذلك لعدم ذكر وجه الشبه. ومن المعاني التي يمكن أن يستخلصها القارئ لهاتين الصورتين التشبيهتين ما يلي:

– الأسى الكبير الذي يغمر مشاعر الشاعر جرّاء تفكّره الماضي الزاهر وما كانت تعيش فيه من حضارة ورفاهية في مختلف مجالات الحياة، على مستوى الأفراد والجماعات والدولة.

– الحزن الغزير الذس يحسّ به الناظم كلّما وازن بين الواقع المرير الخاوي الشقيّ التي تكابده تلمسان وتعيشه في محتلف الأصعدة، وبين السالف الحلو العامر السعيد.

– تحريض أهالي تلمسان والمحبّين لها من أجل الالتفات إلى الماضي الفائت بغية الاعتبار والاتّعاظ من أجل رفع التحدّي والمتعب، وتجاوز كلّ العوائق والمصائب وتحقيق آمال الأجداد الأحفاذ وأمانيهم.

نماذج من الصورة في رحلة " المقرّي " :

بعد قراءتنا للعديد من النصوص في رحلة أحمد المقرّي استوقفتنا العديد من الصور البيانية، وقد اخترنا منها للدراسة والتحليل تلك التي وقعت في أشعار أحمد المقرّي في رحلته، وهذه عيّنات منها:

– النصّ الشعري الأوّل:

((يا قلب لا تشتكي الجوى ... إلّا لمولاك الرحـــيم

واصبر على حكم القضاء ... وذاك أمر من حكيم

والدهر ألوان وكـــــــم ... قصر المدى بالمستديم

فغدا يمـــــــــزّق شمله ... ويقدّه قدّ الأديـــــم

دهـــــــر ينبّه غافلا من ... هجعة العزّ المنيـــــم

ويصير الندب الكـــــريم ... مؤمّلا باب اللئـــــيم

ويديل أنـــــــوار النهار ... بظلمة الليل البهيـــم [147]))

– النصّ الشعري الثاني:

((هاج شجوي وللزمان حوادث ... فقد نجل من آل عبد الوارث

قد رماه الردى بسهم مصـــيب ... وانـــبرت نحوه المنايا الحثائث

أيّ غصـــــن ذوى بدوحة مجد ... أيّ نجـــم هوى دمعي باحث

فغدا مسرعا لجنّـــــــات عدن ... في جوار الخلـــيل ليس بحانث

أبا الفضل يا من أبرم للمجد ... حبالا ثقـــــــــيلة لا رثائث)) [148]

ومن خلال هذه الأبيات الشعرية الواقعة في النصّين حصلنا على جملة من التعابير التي تحتوي على أساليب التصوير. وهي: يا قلب لا تشتكي الجوى . واصبر على حكم القضاء . والدهر ألوان . فغدا يمزّق شمله . ويقدّه قدّ الأديم . دهر ينبّه غافلا . ويصير الندب الكريم . ويديل أنوار النهار. هاج شجوي رماه الردى بسهم مصيب .وانبرت نحوه المنايا الحثائث . أيّ غصن ذوى بدوحة مجد . فغدا مسرعا لجنّات عدن ... يا من أبرم للمجد حبالا ثقيلة.

[147] – أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب. ص 82.

[148] – أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب. ص 29.

– أوّلا: النداء المجازي (يا قلب):

المعلوم أنّ الأساليب الإنشائية متعدّدة، منها الطلبية وأخرى غير طلبية[149]، واسلوب النداء واحد من الأساليب الطلبية. وقد ورد في البيت الشعري:

يا قلب لا تشتك الجوى ... إلّا لمولاك الرحـــــيم

وأسلوب النداء هذا يتكوّن من قسمين. جملة النداء، وهي (يا قلب). وفيها أداة النداء " يا "، والمنادى " قلب " وهو نكرة مرفوع. القسم الثاني جواب النداء (لا تشتكي الجوى ... إلّا لمولاك الرحـــــيم)، وهي جملة إنشائية طلبية، وردت في صيغة النهي، والذي دلّ على ذلك (لا) وهي هنا ناهية جزمت الفعل المضارع (تشتك)، وعلامة الجزم هنا حذف حرف العلّة (الياء). والذي يهمّنا في أمر النّداء هو البحث في طبيعته.

الأصل في النداء أن يتوجّه به إلى الإنسان العاقل، فيستجيب للنداء وفقا لجواب النداء وما يحتوية من طلب ما، أو خبر، أو قسم ... لكن الملحوظ في هذا النداء أنّ الشاعر توجّه به إلى عضو من أعضاء الإنسان وهو " القلب ". وكما هو معلوم أنّ القلب لا ينادى في علام الحقيقة، وبناء على ذلك فالنداء هنا مستعمل على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، والقرينة الدالّة على ذلك قرينة حالية وعقلية مفهومة من سياق الكلام وفحواه، ولفظية وهي أداة النداء (يا)، فلا يمكنفي عالم الواقع والحقيقة المتعارف عليها أن ينادى بها " القلب ".

[149] – الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية هي: ((– طلبي وهو خمسة أنواع، الأمر والنهي والتمنّي والاستفهام والنداء، ويعرف بأنّه يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلّم وقت الطلب. – غير طلبي وهو ما يستدعي مطلوبا حاصلا. وأنواعه كثيرة منها صيغ المدح والذمّ ... والعقود والقسم ... والتعجّب وربّ وكم الخبرية.)) أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع. دار القلم بيروت لبنان. د ت . ص 59، 60. وهذا الموضوع مدروج في علم المعاني.

ويمكن إدرج هذا النداء المجازي ضمن نوع من المجاز وهو المجاز لمرسل، ولهذا النوع المجازي علاقات كثيرة ذكرها علماء البلاغة العربية قديما وحديثا [150] هذه العلاقات تعرّف به وتميّزه عن المجاز الآخر وهو المجاز العقلي الذي فصّل فيه كثيرا عبد " القاهر الجرجاني " في كتابه (أسرار البلاغة). فالشاعر هنا أطلق الجزء ، وهو (القلب مجازا، والمراد هو الكلّ أي الإنسان حقيقة. وبناء على ما سبق فالعلاقة المجازية هي علاقة الجزئية[151].

ومن الدلالات التي تحملها هذه الدلالات المجازية نذكر:

– لا صاحب للشاعر ولا جليس له يستند عليه ويعوّل إلّا القلب الذي بين جنبيه، بثّه أحزانه، ويعلمه بما حلّ به من أرزاء .

– وقت الشكوى والشدّة يندثر ما حول الإنسان من أدعياء كثيرين كانوا يدّعون الحبّ والصداقة,

– تصوير الشاعر عظم ما ألمّ به من نكبات وبلوى لم يستطع كتمانها فانبعثت قوية من القلب.

[150] – علاقات المجاز المرسل : ((وللمجاز المرسل علاقات منها: السببية، المسببية، الجزئية، الكلية، اعتبار ما كان، اعتبار ما سيكون، الحالّي، المحلّية)). محمّد طاهر اللدقي، المبسّط في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع نماذج تطبيقية. مراجعة إبراهيم محمّد طاهر اللدقي. المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان. ط / 1. 1425 هـ – 2004 م. ص 179.

[151] – علاقة الجزئية: ((علاقة الجزئية: تحدث هذه العلاقة حين يطلق الجزء على الكلّ وهذا نحو قولنا : سأجازيك بما قدّمت يداك. المجاز هنا في كلمة يداك، لأنّ الذي عمل العمل الذي يستحقّ عليه الجزاء إنّما هو النفس والجسم لا اليدان وحدهما، فإطلاق اليدين، وهما الجزء على النفس والجسم وهما الكلّ وهو المراد مجاز مرسل علاقته الجزئية.)) ابن عبد الله شعيب، الميسّر في البلاغة العربية علم البيان، علم المعاني، علم البديع، دروس وتمارين. دار الهدى عين مليلة. الجزائر. 1992م. ص 78.

– الدعوة إلى الصبر والاحتساب وعم إلقاء الشكوى إلى العباد بل إلى الله عزّ وجلّ السميع الرحيم.

– ثانيا: الاستعارة المكنية:

العبارة الاستعارية	المستعار	المستعار منه	المستعار له	نوع الاستعارة
لا تشتكي الجوى	تشتكي(الشكوى)	الإنسان	القلب	استعارة مكنية
اصبر على ...	اصبر (الصبر)	الإنسان	القلب	استعارة مكنية
يمزّق شمله	مزّق (التمزيق)	الإنسان	الدهر	استعارة مكنية
دهر ينبّه	ينبّه (التنبيه)	الإنسان	الدهر	استعارة مكنية
هاج شجوي	هاج (الهيجان)	الإنسان	الحزن والهمّ	استعارة مكنية
رماه الردى بسهم مصيب	رماه (الرمي)	الإنسان	الردى (الموت)	استعارة مكنية
انبرت تحته المنايا	انبرت (الانبراء)	الإنسان	المنايا (الموت)	استعارة مكنية

ثالثا: التشبيه

العبارة التشبيهية		المشبه	المشبّه به	الأداة	وجه الشبة	نوع التشبيه
1	الدهر	الدهر	ألوان	محذوفة	محذوف	تشبيه بليغ

	ألوان						
2	دوحة مجد	دوحة	مجد	محذوفة	محذوف	تشبيه بليغ	

نختار من هذين التشبيهين التشبيه الأوّل، وهو الوارد في البيت الشعري التالي:

والدهر ألوان وكـــــــــم ... قصر المدى بالمستديم

شبّه الشاعر في الجملة الاسمية الواردة في صدر البيت المبتدأ (الدهر) بكلمة الخبر (ألوان). فالمشبّه به هو (الدهر)، والمشبّه به (ألوان). الدهر هو الزمن الذي يعيشه الإنسان ويشعر به قصيرا كان أم طويلا . وهو الذي تحدث فيه كافّة الأحداث والوقائع مرتبطة بالمكان والإنسان.

والمعروف أنّ الدهر لا يقرّ على حال ولا يثبت على وضع، بل هو متقلّب مثل أوقات الليل والنهار، متغيّر مثل فصول السنة. والمعلوم عنه كذلك أنّه لا يأتي النّاس بما يشتهون وبما يحبّون ويرغبون، بل يأتيهم بما يحبّون ويكرهون، بما يشتهون وينفرون، بما يسعدون ويشقون، بما يشبعون ويجوعون، لذا شبّهه الشاعر بالألوان في تباينها واختلافها، في تنوّع آثارها على القلوب والأذواق، في ذبولها وانبعاثها، في إقبال الناس على بعضها الآخر. كما يوحي المشبّه به (ألوان) بالحركة الدائمة المتقلّبة للزمان من العسر إلى اليسر، من النعمة إلى النقمة، من المسرّات إلى الأحزان، من الهناء غلى الشقاء، من الحياة إلى الموت.

والواضح في هذه الصورة التشبيهية أنّها سيقت بدون أداة التشبيه، وبدون ذكر وجه الشبه، وفق ذلك فالتشبيه هنا يدعى (البليغ). يفهم من هذه الصورة أن لا فرق في الزمان

وبين الأمر ونقيضه، وأنّ لا ثابت فيه ولا قارّ، ولذلك فالحذر مطلوب، والحيطة واجبة، وعدم الاغترار بإحسانه ضروري.

– نماذج من الصورة من " رحلة ابن حمادوش " :

قال الرحّالة عبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري مادحا السلطان مولاي عبد الله :

((لأجلكم يا من مـــكارم فضله ... تعالت عن الإحصاء والعدّ والحصر

وشمّرت ساق الجـــدّ راجلا حافيا ... فصرت كمـــجنون أكابد في السير

فنعم النويل لا يخيـــــــــب نزيله ... ولا يشتـــــكي فقرا ولا أزمة الدهر

كذلك هـــــــم دار النبوة كلّما ... ألمّ بهم شـــــــــخص تهيا لليسر

هم اللؤلؤ المكنون في صدف التّقى ... وأنّهم الياقوت فيـــــــنا إلى الحشر

هم زيـــــنة الدنيا وشمس نهارها ... ولولاهم ما أتبـــــــع الليل بالفجر)) [152]

والصور البيانية التي وردت في هذه الأبيات الشعرية هي:

[152] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 117، 118.

– مكارم فضله تعالت عن الإحصاء (استعارة مكنية)، وثمّرت ساق الجدّ (استعارة مكنية). – فصرت كمجنون أكابد (تشبيه تامّ الأركان). مكوّن من المشبّه (أنا)، المشبّه به (مجنون)، أداة التشبيه (ك)، وجه الشبه (أكابد: المكابدة).

أمّا الصور التالية: هم دار النبوة . هم اللؤلؤ المكنون. صدف التّقى. وأنّهم الياقوت فينا إلى الحشر . هم زينة الدنيا. وشمس نهارها فكلّها تشبيهات بليغة. يمكن أن نقسّمها إلي قسمين.

– الأوّل: هم دار النبوة . هم اللؤلؤ المكنون. وأنّهم الياقوت فينا إلى الحشر . هم زينة الدنيا. وشمس نهارها. وجمعناها في قسم واحد لأنّها مشتركة في المشبّه الذي عبّر عنه الشاعر بضمير الجمع الغائب (هم). والملحوظ أنّ المذكور فيها ركنا التشبيه (المشبّه: هم)، والمشبّه به: دار النبوة، اللؤلؤ المكنون، الياقوت، زينة الدنيا. وحذف منها أداة التشبيه ووجه الشبه، لذا فهي تشبيهات بليغة.

– الثاني: يمثّله التعبير التالي: صدف التّقى. فقد شبّه الشاعر فيه الصدف بالتقى وهذا تشبيه بليغ، مثل تشبيهات القسم الأوّل.

ونستخلص من هذه التشبيهات عدّة معاني نفسية وأخلاقية واجتماعية:

– حبّ الشاعر القوي لهؤلاء القوم، فمشاعر المودّة هي التي نسجت الخيوط التشبيهية البهية.

– شدّت تعلّقه بهم لما اتّصفوا به من فضائل سامية وأحلاق عالية تأسر القلوب والألباب.

– هؤلاء القول الممدوحين صنعوا لأنفسهم شرفا وذكرا بسببه خلّدهم الشاعر في شعره، كما قدّموا لمجتمعاتهم خدمات جليلة جعلتهم أهلا لهذا الذكر الحميد والثناء الباهر العظيم.

– تابع لنماذج من الصور في رحاة أحمد المقرّي :

يقول واصفا ما يشعر به من راحة وهناء: ((حيث الزمان ثغره بسّام، والأمن بالتخويف لا يسام، والشمل وجموع، وأطيار الهنا صادحة، والعيش وضّاح السنى، سقى الله نافع الحساب، معاهد الإخوان والصحاب.)) [153] . ويقول في بيت شعري له في الجوّ والشعور السابقين:

وامتدّ ظلّ غصون الأمن وابتسمت ... زهور عدل بأغوار وأنجاد)) [154] .

وفي موضع آخر من الرحلة يقول مادحا : ((إنّ أوهى درر زانت صدر الشريعة حليا، وأبهى غرر أبانت بدر الهداية جليا، حمد الرحمن الذي شرّف عبده فاستنار به الوجود، وأسدى إليه من المآثر ما أفحم الناظم والناثر، ,أفعم التهائم والوجود، وأرشد به إلى المعارف، وألبسه من العناية أجمل المطارف، وجمع له المجد التالد والطارف، وحلا جيده بالكرم والجود، ومنّ على المسلمين بأعلام لم يحتج بين فضلهم إلى زيادة أعلام، فبهم سحر الزمان، وتنظم حلاهم في لبته نظم الجمان، ومن أجلهم افتخر بوجوده هذا العصر، الحائز للفضل يأدات الحصر ...)) [155]

استخلصنا من هذه النصوص ما يلي: – استعارة مكنية: الزمان ثغره بسّام، – تشبيه بليغ: وأطيار الهنا صادحة، – استعارة مكنية: والعيش وضّاح السنى، – استعارة مكنية: وامتدّ ظلّ غصون الأمن – استعارة مكنية: وابتسمت زهور عدل بأغوار وأنجاد))

درر زانت صدر الشريعة حليا، – تشبيه بليغ: وأبهى غرر أبانت بدر الهداية جليا، – استعارة مكنية: وألبسه من العناية أجمل المطارف، – تشبيه بليغ: وحلا جيده بالكرم والجود، – تشبيه

[153] – أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب. ص 78.

[154] – أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب. ص 78.

[155] المصدر نفسه . ص 88، 89.

بليغ : فبهم سحر الزمان – استعارة مكنية: ومن أجلهم افتخر بوجوده هذا العصر، ((سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الشامي))[156] .

من الصور البيانية الجميلة في هذه المجموعة نذكر :

((ومنّ على المسلمين بأعلام لم يحتج بين فضلهم إلى زيادة أعلام، فبهم سحر الزمان)).

وهذه الصورة الأخيرة ستكون محلّ دراستنا. السياق الذي وردت فيه قول الكاتب : ((ومنّ على المسلمين بأعلام لم يحتج بين فضلهم إلى زيادة أعلام، فبهم **سحر الزمان**، وتنظم حلاهم في لبته نظم الجمان، ومن أجلهم افتخر بوجوده هذا العصر، الحائز للفضل بأداة الحصر ...)).

أشار الأديب الرحّالة في كلامه قبل إيراد هذه الصورة البيانية المؤسّسة على عماد التشبيه أنّ الله عزّ وجلّ قد أنعم بمنّه العظيم على المسلمين برجال عظماء ذوي فصل كبير وشأن بارز ومكانة جليلة.

هؤلاء الأفراد الشرفاء قد ملأوا القلوب وشغلوا العقول فلا أحد يحتاج إلى غيرهم لامتلاكهم كلّ الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة. ويضيف أحمد المقرّي الرحّالة أنّ هؤلاء بهم قد تحقّق أمام النّاس (سحر الزمان) وهذا التعبير يحمل تشبيها إذ مثّل لفظة (سحر) بكلمة (الزمان). فالمشبّه هو عبارة (سحر)، ومفردة المشبّه به هي (الزمان). فقد شبّه الكاتب السحر بالزمان، ومن معاني كلمة السحر الحسن والجمال، المباهج والمفاتن، وكلّ شيء يستميل الوجدان، وبسلب العقل، وبفتن الشعور، ويحدث في النفس سرورا ورضا، وغبطة وبهاء، والزمان

[156] – أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب.. ص 97.

هو الدهر والعصر الذي يعيش فيه الإنسان. فبفضل وجود أولئك الأعلام العظماء صار الزمن جمالا وحسنا، وأضحى بهجة وهناء، وأمسى سرورا يؤنس القلوب.

ومن الدلالات التي تفهم من توظيف هذا التشبيه:

– أثر هؤلاء الأعلام المتفرّدين بصفات التمام والحسن في حياة النّاس وتقلّباتهم النفسية والاجتماعية .

– لا بدّ في حياة النّاس من أفراد يصنعون لهما الفرح والشرور والهناء والسعادة في مختلف أشكالها.

– الزمن له ذوق حلم وطعم طيّب إذا كان فيه أشخاض يصنعون وينجزرونه لغيرهم .

– غياب الرجال الذين يسعون في سبيل غسعاد الناس وإدخال السرور عليهم يجعل الزمان كرّ وتعسا.

ثالثا: السجع

السجع أسلوب من أساليب الكلام صنّفه بعض البلاغيين في علم البديع، وصبعوه بالطابع الصوتي. وقد سمّاه البعض ((التسجيع أن يكون مقاطع شطر الأجزاء على سجع موافق للرويّ ومقاطع شطرها الآخر متداخلة للموافقة مسجوعة وغير مسجوعة ...)).[157] . والسجع طريقة من طرق التعبير الكثيرة التي عرفها العرب منذ القديم في العصر الجاهلي. وما تداول عبارة

[157] – بدرر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط / 1. 1422 هـ – 2001 م . ص 198.

(سجع الكهّان) في أمّهات كتب القدماء إلّا دليا ساطع على ذلك. ويلمح القارئ الممعن توظيف هذا الأسلوب في الحديث النبوي الشريف، وفي الأدعية النبوية الصحيحة خاصّة.

وفي الفنون النثرية يلاحظ ذلك جليا في الخطب والوصايا، وفي الحكم والأمثال، وفي الرسائل والتوقيعات وفي المقامات، وهذا الحضور لأسلوب السجع في هذه الألوان يتفاوت كثرة وقلّة من لون لآخر. وفي الشعر حضر هذا التعبير الصوتي، وقد أطلقت عليه عدّة مصطلحات عند النقّاد وعلماء البلاغة، منها التصريع[158]، وكذلك الترصيع[159] ، إلّا أن هذه الصفة الأسلوبية – أي السجع – جعلوها في عالم النثر دون الشعر.

أمّا عن ورود هذا الفنّ التعبيري في القرآن الكريم فقد اختلفت العلماء يشأنه ، فمنهم من أثبته في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف [160] مع تقديم القرائن والبراهين، ومنهم الذي

158 – التصريع : ((التّصريع هو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته... واشتقاق التصريع من مصراعي الباب، ولذلك قيل لنصف البيت (مصراع)، كأنّه باب القصيدة ومدخلها، وقيل بل هو من الصّرعين وهما طرفا النهار، قال أبو إسحاق الأوّل من طلوع الشمس الزجاج الأوّل من طلوع الشمس إلى استواء النهار، والآخر من ميل الشمس عن كبد السماء إلى وقت غروبها. قال شيخنا أبو عبد الله وهما العصران. وقال قوم الصرع المثل. وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ليعلم من أوّل وهلة أنّه أخذ في كلام موزون غير مقفّى، ولذلك وقع في أوّل الشعر، وربّما صرّع الشاع فيغير الابتداء.)) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ج /1. تحقيق محمّد بمحيي الدين عبد الحميد. دار الجيل بيروت لبنان. ط / 5. 1401 هـ – 1981 م. ص 173، 174.

159 – الترصيع : ((الترصيع عند البلاغيين هو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأوّل شعرا ونثرا مساوية لكلذ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية، ثمّ زادو على هذا التعريف شرطا آخر وهو قولهم من غير مخالفة لأحدهما للثاني في زيادة ولا نقصان.)) عبد الواحد حسن الشيخ . البديع والتوازي. مكتبة الإشعاع مصر. ط / 1. 1419 هـ – 1999 م. ص 38.

160 – المثبت: ((وكذلك جميع ما في القرآن ممّا يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وضفاء اللفظ وتضمّن الطلاوة والماء لما يجريمجراه من كلام الحقّ... وقد جرى الكثير من كلامه عليه الصلاة والسلام)) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. ص 285. 286.

أنكره ولم يقبل به إلذا في كلام البشر [161] مع الدعوة لتنزيه الكلام الله تعالى عن ذلك، على اعتبار أنّ هذا الفنّ مرتبط بالتكلّف والتصنّع، ومُذهبٌ بحضور المعنى الصائب المفيد. وقد ابتدع العلماء مصطلحا جديدا يقوم مقام الشدع بالقرآن وهو " الفاصلة[162] القرآنية ".

ومن التعاريف الواضحة الجامعة نذكر تعريفا أحد العلماء في القرن الثامن الهجري، يقدّم فيه أسلوب السجع وفق ما يلي: ((الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر، وهو ثلاثة أقسام: مطرف ومرصّع ومتواز: فالمطرّف: هو أن يختلفا في الوزن، كقوله تعالى { مالكم لا ترجون لله وقارا 13 وقد خلقكم أطوارا 14} سورة نوح . والمرصّع: أن تكون ألفاظ القرينتين متساويتين في الوزن والتقفية، كقول الحريري: (فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه)، وقول البديع الهمذاني: (إن بعد الكدر صفوا، وبعد المطر صحوا)، وكقول أبي الفتح البستي: (ليكن إقدامك توكّلا وإحجامك تأمّلا). والمتوازي: هو ما عدا القسمين، كقوله تعالى: { فيها سرر مرفوعة 13 وأكواب موضوعة 14} سورة الغاشية .))[163]، هذا النصّ فضلا على أنّه عرّف بمصطلح الأسجاع (السجع)، فقد قدّمه في أنواع ثلاثة مطرّف، ومرصّع ومتوازي، وقراتنا للنصوص في هذا العنصر سنستند فيها إلى هذا الميزان الذي وضعه " محمّد بن محمّد بن علي الجرجاني " .

---

161 – المنكر: ((ذهب أصحابنا كلّهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنهفي غير موضع من كتبه... وهذا الذي يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز.)) الباقلاني، أعجاز القرآن . تحقيق أحمد صقر. دار المعارف المصرية. ط / 3. ص 57. فصل نفي السجع عن القرآن.

162 – الفاصلة : ((وهي آخر كلمة الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع)) – بدر الدين عبد الله الزركشي. البرهان في عوم القرآن. ج / 1. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة بيروت لبنان.. ص 53.

163 – محّد بن علي بن محمّد الجرجاني. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. ص 236 .

1 _ سجع من " رحلة ابن عمّار " :

تحت عنوان (ترجمة الشيخ أبو عبد الله محمّد بن محمّد الشهير بابن عليّ) قدّم "ابن عمّار " هذه الشخصية العلمية والأدبية بما يلي: ((ثمّ جاء مصلّيا خلفه علم الاعلام اللّاعب لسانه بأطراف الكلام سبحان أكثار جريان دوران البلاغة وقس الحاذق البراعة، ومالك أزمة المعاني، ومصرف اليراعة فارس الأدب المفرد وحامي ذماره وحارس روضه الأُنُف الجديد لم يرع من قبل ، ومطلع شموسه، وأقماره، شيخنا ابن محمّد الشهير بابن علي، أمطر الله ثراه من الرحمة والرضوان، بكلّ وسمي مطر الربيع الأوّل ووالي المطر الذي يأتي بعد مطر سابق، تبعه من غير فصل ، المطر بعد المطر ، وقد أثبت له هنا ما يرشف رحيقا، وينشقّ مسكا سحيقا، ويستروح نسيما ويستلمح محميا وسيما ويسترق عذبا زلالا ويستنطق سحرا حلالا))[164] وإثر ذلك قدّم صاحب الرحلة للقارئ قصيدة شعرية طويلة للشاعر ابن عليّ، عنوانها (هاج الغرام) في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وف مدح مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

وبعد ذلك علّق الرحّالة على الشاعر ونظمه ((وهذا الإمام هو خاتمة الشعراء العظام بهذا الصفع، ليس لغليل الأدب بعده نقع، وكثيرا ما كنت أرتاح إليه رحمه الله تعالى، كما يرتاح إليّ، ويا طال ما كان يفرغ من سجال آدابه عليّ، ومضت لي معه مجالس كقطع الرياض، تكسى النفس والطبع منها مطارف ارتياح وارتياض، وشعره الكثير، وهو يفوق الدرّ النظيم والزهر النثير، ونثره على جودته قليل وسيفه فيه غير كليل، وله ديوان اشعار تغلو في عكاظ الأدب إذا رخصت الأسعار ، وكان رحمه الله تعالى في نظمه متين الجدّ لطيف الهزل محكم

[164] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص 184.

النسج رفيق الغزل ، وقد ترجمته في تأليفي لواء النصر في فضلاء العصر، وباسمه صدّرت في الكتاب واقتحمت ...)) [165]. وهذا النصّ يمكن إدراجه في الترجمة الأدبية.

أ – (وهذا الإمام هو خاتمة الشعراء العظام بهذا الصفع، ليس لغليل الأدب بعده نقع)، في الكلام هناك سجعة أولى في الكلمتين(الإمام) و (العظام). وموقع السجع هنا موجود في كون الكلمتين متّفقتين في التقفية (م)، وهو حرف الميم، وإذا استحضرنا اتّفاقهما في الوزن صار عندنا سجع متوازي. وبين (الإمام) و (العظام)، فضلا عن السجعة فهناك انسجام معنوي فالإمام حاكما كان صعيرا أو كبيرا، في أيّ مجال من مجالات الحياة، يفترض فيه أن يكون عظيم العقل والأخلاق، عظيم العلم والخبرة، عظيم الحكمة والتدبير، وعظيم التخطيط والتنفيذ.

– السجعة الثانية هي بين المفردتين (الصفع [166]) و (نقع) [167]. الصفع بعد أن قرأنا ما قبله من الكلام فهمنا أنّ صاحب الرحلة يقصد بالصفع القصيدة السابقة في مدح محمّد الأمين صلّى الله عليه وسلّم ذات الشعر الرصين الذي عرضه، والنظم الساحر والكلام البارع،

[165] – ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص 191.

[166] – ((صفع الصفع ضربي بجُمْع اليد، على القفا، ليس بالشديد. والسين لغة فيه، ويقال الصفع بالكفّ كلّها، ورجل صفعان.)) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين . ج / . ص 401. محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط. م / 3. . ص 57. صفع: ((يبسط كفّه فيضربَ)).

[167] – المصدر نفسه . م / 3 . ص 101.

وما احتواه من لغة ساحرة وصور لطيفة فاتنة. فشعر "ابن عليّ" شبيه الصفع[168] في إيلامه لقلوب المنافقين التي تبغض الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي إهانته لقلوب الكافرين المنكرين لنبوّته. أمّا النقع فكلمة يراد بها زوال العطش ((نقع الماء في المسيل ونحوه ينقع نقوعا واستنقع اجنمع، واستنقع الماء في الغدير أي اجتمع وثبت ... وإنّما قيل للماء نقع لأنّه ينقع به العطش أي يروى به .))[169] . والمراد بالتركيب الذي وردت فيه السجعة بين (صفع)، و (نقع) أن ليس للمتعطّش[170] لشعر المديح النبوي بعد أن يرتوي من نهر قصيدة "ابن عمّار" من من مكابدة للعطش واشتهاء للماء. ومن هنا يمكن أن نستخلص بأنّ هذا السجع فيه أمران، توافق الفاصلتين في الوزن (فَعْل)، وتطابقهما في التقفية (ع). كما يمكن أن نستخلص تشابه خفي في الدلالات. فالنقع من شأنه أن يزيل العطش، ويورّث في نفسية الممتلئ بالماء راحة وسعادة وسكينة ورضى. والصفع المؤذي للكافرين والمنافقين وأعداء النبوّة يورّث في وجدان الشاعر وأنصاره والمحبّين للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم شعورا بالراحة والسعادة والرضى نتيجة لما أصاب أولئك من غلية وانهيار وذلّة.

---

[168] – عبارة (هذا الصفع) هنا يمكن تصنيفها ضمن الاستعارة التصريحية، وذلك لحضور المشبّه به، والتصريح به في مكان المشبّه به وهو السعر المثني على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وللتّذكير فكلمة (هذا) تعلاب اسم إشارة مبتدأ، مبدل منه، وعبارة (الصفع) بدل. فهما واحد.

[169] – ابن منظور، لسان العرب. م / 14، ص 292.

[170] – المتعطّش هو معنى ذكرناه لمفردة (الغليل) استقيناه من المعجم: ابن منظور، لسان العرب. م / 10. ص 117. ((غلل: الغُلّ والغلّة والغُلل والغَليل كلّه شدّة العطش وحرارته، قلّ أو كثر ... وربّما سمّيت شدّة الحزن والحبّ غليلا ... وغَلَّ البعيرُ إذا لم يقض ريَّه.))

– (ونثره على جودته قليل وسيفه فيه غير كليل)، ولفظة (كليل)مشتقّة من " كلّ " ، ومن بين معانيها في هذا السياق ((نبا وضعف))[171]. نفهم من هذا الصياغة اللغوية أنّ تفرّد " ابن عليّ " في الشعر واستحقاقه فيه لأعلى الرّتب لم يمنعه من الكتابة في فنون النثر، لكن إذا قيس ذلك بمنظومه الشعري فهو قليل ويسير لا يضاهي الشعر في غزارته وكثرته. إلّا أنّ هذه القلّة لا تعني عجزا وضعفا، ولا تعني مشقّة وصعوبة. والناظر في السجعتين سيجد التئاما في حرف التقفية (ل)، وفي الوزن (فعيل)، الذي يشير من الناحية الصرفية إلى الصفة المشبّهة[172]، وكذلك التئاما آخر في حرفين من الفاصلتين (قليل) و (كليل):

– فحرف اللام الأول المكسور من العبارة (قليل)، يتّسق مع حرف اللام المكسور الأوّل في الكلمة (كليل).

– وصوت الياء الساكنة في كلمة (قليل)، يتّسق مع حرف الباء الساكنة من العبارة (كليل).

والاختلاف الوحيد الموجود ما بينهما نلفيه في الحرف الأوّل من المفردتين، فالحرف الأوّل من الكلمة الأول هو حرف (ق) القاف، والحرف الأوّل من المفردة الثانية هو حرف (ك) الكاف.

[171] – ابن منظور، لسان العرب. م / 12. ص 157.

[172] – الصّفة المشبّهة: ((الصفة المشبّهة هي اسم مضوغ من مصدر الثلاثي اللازم للدلالة على الثبوت والدوام.)) أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية في اللغة العربية. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. 1354 هـ. ص 313.

أمّا من الناحية الدلالية ما بين الكلمتين (قليل) و (كليل) فإنّنا نلاحظ تظافرا في بناء المعنى وتكاملا من أجل تحقيقه ما يحمله من معاني. فابن عمّار الرحّالة في وصفه لنظم الشاعر ابن علي ذكّ المتلقّي بأنّ هذا الأخير لم ينبغ فقط في الفنون الشعرية بما فيها المديح النبوي وإنّما كان له حضور في مجال الكتابة النثرية، إلّا أنّها كانت قليلة ويسيرة إذا قيست بوفرة وكثرة النظم الشعري.

هنا يذيّل " ابن عمّار" هذه الفكرة (ونثره على جودته قليل) بفكرة أخرى (وسيفه فيه غير كليل) هذه الفكرة التي يوكّد فيها من خلال الصورة والخيال أنّ هذا الشعر على قلّته ليس نابعا عن عجز وقصور، ولا عن ضعف وفتور، وإنما هو قويّ ورصين، وكذلك جميل ومؤثّر. وهذه الفكرة المُذيّل بها يمكن فهمها أنّها جواب عن شؤال قد يتبادر من الأولى، أو تشكيك أو طعن يفهم منها. لذا اعتبرنا أنّ السجع هنا فضلا عن جانبه الصوتي الممتع، فإنّ له مهمّة معنوية ذات قيمة ومكانة . وإلى جانب الأسجاع السابقة فالقارئ يلاحظ أنّ هناك أسجاعا أخرى لا تقلّ قدرا وشأنا عن مثيلاتها من أساليب السجع السابقة، وهي وفق التّالي:

– كثيرا ما كنت أرتاح إليه رحمه الله تعالى، كما يرتاح إليّ، ويا طال ما كان يفرغ من سجال آدابه عليّ.

– ومضت لي معه مجالس كقطع الرياض، تكسى النفس والطبع منها مطارف ارتياح وارتياض.

– وشعره الكثير، وهو يفوق الدرّ النظيم والزهر النثير.

– وله ديوان اشعار تغلو في عكاظ الأدب إذا رخصت الأسعار .

– كان رحمه الله تعالى في نظمه متين الجدّ لطيف الهزل محكم النسج رفيق الغزل.

– وقد ترجمته في تأليفي لواء النصر في فضلاء العصر،

– وباسمه صدّرت في الكتاب واقتحمت ...

سجع من رحلة عبد الرزاق ابن " حمادوش الجزائري ":

يقول في مقدّمة من مقدّمات خطبه: ((الحمد لله الواهب جزيل الإنعام ، الدافع عن بريته وقائع الانتقام، الذي أشرق بنوره الظلام ، وخطّت عن أمره الأقلام، جميع ما قضى به وحكم، من عاجل وآجل في الأمم، ثبت ذلك في اللوح المحفوظ ورسم، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له موجدنا من العدم، وجاعل أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، خير الأمم. وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله الذي طبع على أثر النبوة وختم. وشقّ على قلبه بلا ألم، ومُلئ حكمة فالتحم، ومسح جرحه فالتأم، وظهرت منه ينابيع الحكم، صلّى الله عليه وسلّم، وشرف وكرم، وأشرق بنوره الظلام، ومحا الكفر بدعوته، فبدّد الحسام ...))[173].

في هذا النصّ الرّحَلي أساليب سجعية كثيرة :

– الحمد لله الواهب جزيل الإنعام ، الدافع عن بريته وقائع الانتقام.

– وظهرت منه ينابيع الحكم، صلّى الله عليه وسلّم، وشرف وكرم.

– الذي أشرق بنوره الظلام ، وخطّت عن أمره الأقلام.

– جميع ما قضى به وحكم، من عاجل وآجل في الأمم.

[173] – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال. ص 245.

– ثبت ذلك في اللوح المحفوظ ورسم، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له موجدنا من العدم.

– وجاعل أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، خير الأمم.

– وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله الذي طبع على أثر النبوة وختم. وشقّ على قلبه بلا ألم.

– وملئ حكمة فالتحم، ومسح جرحه فالتأم.

– وأشرق بنوره الظلام، ومحا الكفر بدعوته، فبدّد الحسام ...

اخترنا للدراسة منها قول الخطيب في افتتاحه لخطبته: (الحمد لله الواهب جزيل الإنعام ، الدافع عن بريته وقائع الانتقام) السجع في هذه العبارة واقع بيم المفردتين (الإنعام) و (الانتقام). وهما متّفقتين وزنا (إفعال)، ومتّفقتين في حرف التقفية (م)، وهو سجع من نوع المتوازي . وهذا لسجع بعيد عن التكلّف والحشو. والدليل البارز على ذلك هو قوّة الرابطة بين الإنعام والانتقام. ونقصد بالرابطة رابطة التضادّ، فعند ذكر الإنعام يتبادر إلى الذهن الانتقام. فمن ناحية أنّ الإنعام دليل عناية وحفظ وتقدير، والانتقام دليل عقاب على ما بدر من المنعم عليه من جحود ونكران، وما ظهر عليه من سوء استعمال للنعمة والعبث بها. والرابطة الكبرى الأخرى التي نستجليها من أسلوب السجع هي أنّ الله هو المنعم على كافّة البشر، وهذا من أسمائه الحسنى سبحانه. وكذلك فالله عزّ وجلّ هو الحافظ لعباده من كلّ شرّ والحافظ اسم من أسماء الله الحسنى كذلك، وهذا ما يفهم من قول الخطيب بيسر وسهولة (الدافع عن بريته وقائع الانتقام).

سجع من رحلة " محمّد أبي راس الجزائري " :

هذا الحديث أورده " محمد أبي راس الجزائري " عقب جوابه على أسئلة طرحت له حول آية من آيات القرآن الكريم : ((ولما حصل هذا القدر في الجواب، وتحرّر هذا الكلام بتوفيق ملهم التحقيق والصواب، أمسكت عن البحث والخوض، واكتفيت بمنهل من ذلك الحوض، ولم يكن من نيّتي استقصاء جميع ما تحتويه الآية الكريمة، ولا من عزيمتي استمطار تلك الديمة، واقتصرت على ما يتعلّق بالسّؤال من القول، وأحلت على عالم الغيب والشهادة ذي الطول، علما منّي أنّ هذا البحر لا قعر له ولا ساحل، وإن تكلّف المتكلّف وأحيى للعالم النحرير بالفكر والرياضة الرسم الماحل.))[174]

في هذا النصّ طائفة من الأسجاع، وهي:

- ولما حصل هذا القدر في الجواب، وتحرّر هذا الكلام بتوفيق ملهم التحقيق والصواب.
- أمسكت عن البحث والخوض، واكتفيت بمنهل من ذلك الحوض.
- ولم يكن من نيّتي استقصاء جميع ما تحتويه الآية الكريمة، ولا من عزيمتي استمطار تلك الديمة.
- واقتصرت على ما يتعلّق بالسّؤال من القول، وأحلت على عالم الغيب والشهادة ذي الطول.
- علما منّي أنّ هذا البحر لا قعر له ولا ساحل، وإن تكلّف المتكلّف وأحيى للعالم النحرير بالفكر والرياضة الرسم الماحل.

[174] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 94.

اخترنا للدراسة العبارة التالية: (ولم يكن من نيّتي استقصاء جميع ما تحتويه الآية الكريمة، ولا من عزيمتي استمطار تلك الديمة، ينبّه صاحب الرحلة قارئه الكريم أنّ ما ذكره للسائل حول معاني الآية ومقاصدها ما هو إلّا قليل من كثير، وجزء من كلّ. ولو اراد الاستقصاء والتفصيل لذكر أضعاف ما أجاب. والملاحظ المتأمّل بين لفظتي (الكريمة) و (الديمة) سيجد أنّ هناك اتفاقا صوتيا في ثلاثة أصوات هي الياء الساكنة والميم المفتوحة والتّاء المربوطة، (بـ ، مـ، ة). فالتقفية التي انبنى عليها السجع ليست صوتا واحدة وإنّما هي مركّبة من مجموعة أصوات. ومع هذا الاشتراك الصوتي فإنّ العبارتين غير متّفقتين من حيث الوزن (ديـمة = فعلة) و (كريـمة = فعيلة). وهذا النوع من السجع يدعى المتطرّف زهو ما تفقت فيه الفاصلتين في حرف التقفية واختلفت من جهة الوزن.

نصّ آخر نورده للرحّالة " أبي راس " يصف فيه المدينة المنوّرة وقد كانت محطّة من محطّات رحلته الكبرى، يقول فيه: ((ثمّ رحلت لطيبة، بعد هذه الغيبة، وملء العيبة، وهي المدينة المشرفة على من تشرّفت به أفضل الصلاة والسلام، فيا حبّذا بهبوط الوحي ونزول جبرائيل عليه السلام، وتشريع الأحكام، من حلال وحرام، ونعم المهاد، ومبعث الجيوش والسّرايا للجهاد، وضريح سيّد المرسلين والكونين والثقلين والفريقين من عرب وعجم.))[175] . تضمّن هذا النصّ مجموعة من أشكال التعبير السجعي، نذكرها فيما يلي:

– ثمّ رحلت لطيبة، بعد هذه الغيبة، وملء العيبة.

[175] – محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". ص 119.

– المدينة المشرفة على من تشرّفت به أفضل الصلاة والسلام، فيا حبّذا بهبوط الوحي ونزول جبرائيل عليه السلام.

– وتشريع الأحكام، من حلال وحرام.

– ونعم المهاد، ومبعث الجيوش والسّرايا للجهاد.

– وضريح سيّد المرسلين والكونين والثقلين والفريقين من عرب وعجم.

من هذه الطائفة الأسلوبية اخترنا التعبير التالي للشرح والتفسير (وتشريع الأحكام، من حلال وحرام،)، والسجع في هذا يتجلّى في المفردتين (الأحكام) و (حرام)، والتقفية متجسّدة في حرف الميم (م). وللتنبه فالعبارتان تختلفان وزنا (أحكام = أفعال) و (حرام = فعال)، إلّا أنّها يشتركان فضلا عن حرف التقفية في حرف الألف (ا)، وحركة الحرف الذي يسبق الميم هنا وهناك. وهذا النوع من السجع من السجع المطرّف. والتناسب الموجود في العبارتين محلّ السجع هو في كون الأحكام كلٌّ، والحرام جزء منه في اصطلاح علماء أصول الفقه. إذن العلاقة بينهما متينة ومتبادلة.

والتعبير الثاني من النصّ السابق الذي ارتضيناه للشرح والتفسير قول الرحّالة (ونعم المهاد، ومبعث الجيوش والسّرايا للجهاد،). فالسجع ظاهر بين العبارتين (المهاد) و (الجهاد). وحرف الدال هو الذي صنع الأسلوب البديعي هذا. والعبارتان متّفقتان وزنا (مهاد = فعال) و (جهاد = فعال). قالسجع هنا من المتوازي.

سجع من رحلة الحسين " الورثيلاني " :

التقطنا نصّين اثنين، من رحلته، الأوّل يصرّح فيه بما يلي: ((فكم دموع تدفّقت، كم ضلوع تحرّقت، وكم نسمات هبّت، وكم شخائب رحمة صبّت))[176]. هذا المشاعر التي أفصح عنها الورثيلاني ذكرت في معرض الحديث عن يوم الوقوف بجبل عرفات وما حصل للقلوب من أفراح وأحزان عمرت الوجدان، وما وقع فيه من نعم وبركات عمّت الواقفين والمكان. أورد صاحب الرحلة فيما سبق أسلوبين سجعيين هما :

أ – (فكم دموع تدفّقت، كم ضلوع تحرّقت)، اعتمدنا في تحليل هذا الأسلوب السجعي على الجدول الآتي:

لفظ الفقرة الأولى	لفظة الفقرة الثانية	الوزن
كَمْ	كَمْ	حرف متحرّك مفتوح + حرف ساكن
دموع	ضلوع	صيغة الجمع في وزن (فعول)، مفردها (فعْل)
تَدَفَّقَتْ	تَحَرَّقَتْ	فعل ماض مزيد بحرفين صيغتة (تفعّلت) والزيادة في التاء الأولى والعين

نلاحظ في هذا الجدول أنّ كلّ كلمة في الفقرة الأولى تقابل الكلمة في الفقرة الثانية متّفقة معها في عدد الحروف وحركاتها وفي الوزن، وبناء على هذا فنوع السجع في العبارتين سجع "

[176] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. ص 461.

مرصّع " لإنّ ألفاظ الفقرة الأولى (فكم دموع تدفّقت،) مماثلة لألفاظ الفقرة الثانية (كم ضلوع تحرّقت،) كما بينّا آنفا. وزيادة على هذا التناسب الصوتي فهناك تناسب في المعاني والمشاعر .

ب – (وكم نسمات هبّت، وكم شخائب رحمة صبّت)، اعتمدنا في تحليل هذا الأسلوب السجعي للمرة الثانية على نظام الجدول، وهو وفق ما يلي:

لفظ الفقرة الأولى	لفظة الفقرة الثانية	الوزن
كَمْ	كَمْ	حرف متحرّك مفتوح + حرف ساكن
نسمات	شخائب	صيغة الجمع في وزن (فعول)، مفردها (فعْل)
هبّت	صبّت	فعل ماض مضعّف. متّفقان في الوزن (هبّ = صبّ)

نلاحظ في هذا الجدول أنّ العبارة الأولى والثالثة في الفقرة الأولى تقابل الأولى والثالثة في الفقرة الثانية. الكلمة الأولى في الفقرتين متّفقتان في عدد الحروف وحركاتها وفي الوزن. الكلمة الثالثة في الفقرتين متّفقتان بدورهما في عدد الحروف والحركات، ما عدا الكلمة الثانية في الفقرة الأولى (نسمات) تختلف مع الكلمة الثانية في الفقرة الثانية (شخائب)، ومادام في الفقرتين أمثر من كلمة متفقة بينهما فهذا فنوع السجع في العبارتين سجع " مرصّع " . وزيادة على هذا التلاؤم الصوتي فهناك تلاؤم في الدلالات وطبيعة الأشياء.

النصّ الثاني من رحلة " الورثيلاني " ((ثمّ عمرت الأسواق، وكثر الإنفاق، وأخرجت البضائع ذوات الأثمان، وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان في ذلك الزمان ... فإنّه موسم شريف، ومحلّ بركة وتشريف، يأتيه الناس من كلّ فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله عليه في أيّام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.))[177].

نسجّل فيه مجموعة من الأسجاع كما يتّضح ذلك في الجدول التالي :

الفقرة الأولى	الفقرة الثانية	موضع السجع	نوع السجع
عمرت الأسواق	كثر الإنفاق	القاف في: الأسواق و الإنفاق	مطرّف
رجاء بركة ذلك المكان	في ذلك الزمان	حرف النون في المكان والزمان	=
فإنّه موسم شريف	ومحلّ بركة وتشريف	حرف الفاء في شريف وتشريف	=

والسبب في اعتبار هذه الأشجاع من نوع المتوازي كونها مختلفة في الأوزان ومشتركة في التقفية.

سجع من رحلة " أحمد المقرّي ":

هذا النصّ في مدح ((الحمد لله الذي قد ألهما، لحلّ مشكل عرا وأفهما، وصلوات على المقرّب، كقاب قوسين النبيّ العربيّ، ثمّ الرضى عن صحبه وعترته، الفائزين بمزايا عزّته، ووارثيه

[177] – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. ص 489.

علماء الملّة، السعدا العاملين الجلّة، وبعد : يا صدر الكمال والورع، فقد أتاني نظمك الذي عجز عن ألفاظه قاريها، فأسلم النفوس إلى باريها. وكيف لا وقد رمى عنها فلم تحط شريد الفهم، وأسهم القلم، فسوق ربوع العلوم نافقة، وأعلام الفهوم خافقة، أقسمت بالسورة من فوق الفلق، لقد أضاء سور علاك وائتلق، وفقت علما كلّ بان يبني، والتبر غير مشبّه للتبن، جمعت بين البرّ والإيناس، يا لك جمع شاقني لفاس، وسوف يأتي القلب روح وأرج، بعون من بيده كلّ فرج، فالشّوق للمعاهد المنسوقة، عمّ الملوك أمره والسوقة، نسأل الرحمن مل العيبة، من ربح تجر مكّة وطيبة، مغنى رسول الله مولى الاشتها، صلّى عليه الله دون انتها، مع آله وصحبه ومن ورى فنال من حسن الختام وما نوى))[178].

انتقينا للدراسة والتحليل من أساليب السجع الواردة في النصّ الرحلي السابق ما يلي:

أ – الحمد لله الذي قد ألهما، لحلّ مشكل عرا وأفهما،ألهمني حلّا للغز[179] الوارد في القصيدة المرسولة إليه. وفّقني لحلّه، وهداني لفكّ عقده. فهذا اللغز الوارد في الأشعار قد غمص وأشكل عليّ حلّه لكن الله بحمد وقدرته بصّرني به وفقّهني إيّاه. قبل أن نسترسل في شرح أسلوب السجع الواقع في لعبارة السالفة نشير أنّ الألف (ا) المتّصلة بـ (ألهم) ليست أصلية في الفعل فلا مبرّر لوجودها من الناحية النحوية أو الصرفية أو البلاغية، ولا ندري سبب وضعها

[178] – أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق.

[179] – اللغز الشعري نوع من الشعر يمكن وصفه بشعر التسلية والترويح، أو بشعر الاختبار والذكاء، ينظمه شاعر ما فيه لغز ديني أدبي لغوي تاريخي ... ويرسله إلى الطرف الثاني المتلقّي له، فيقرأ النصّ الشعري ويعمل جاهدا لحلّ اللغز وتفكيك العناصر الغامضة فيه. ويكون الحلّ بأبيات شعرية تتضمّن إيضاح وبيان اللغز يرسلها المتلقّي للذي أرسل الشعر الملغز. .

من قبل الكاتب أو الناطق بها، ويذكّرنا هذا الفعل بظاهر الإشباع التي يقوم بها عادة الشعراء في نظمهم في بعض الحالات فنراهم يشبعون الفتحة ألفا (ا)، والضمّة واوا (و) والكسرة (ياء). لذا فتسجيلنا للسجع في هذه العبارة يوجد ما بين الكلمتين (ألهما) و (أفهما) في حرف الميم (م) فقط دون الألف الزائدة. وإن كان حرف الألف الموظّف للإشباع يفهم منه الكثرة والاستمرار والامتلاء.

والمقصود لذلك كثرة الإلهام وكثرة الفهم، ودوامهما ممّا ينتج عن ذلك وضوحا كبيرا وجلاء كاف لفهم ماوراء اللغز زما ينطوي عليه من لبس وغموض. وإذا عدنا لموضعي السجع لا حظنا بين الفعلين (ألهم) و (أفهم) اشتراكا في كافّة الأصوات (أ، هـ، م، ا) ما عدا عدم التوافق في اللام والتي يقابلها حرف الفاء في الكلمة الثانية. وهذا السجع بما يحتويه من تناسب صوتي إيقاعي فإنّه كذلك ينطوي على انسجام دلالي، إذا إلهام الله للعبد وهدايته يؤدّيان دوما إلى الخير والبركة، والفهم من أهمّ النعم وأجلّها.

ب – جمعت بين البرّ والإيناس، يا لك جمع شاقني لفاس، يخاطب كاتب الرحلة ممدوحه بأنذ نفسه فيها الخير والهدوء، وفيها السكينة والطمأنينة، وهاتان الخصلتان دفعته دفعا للحنين إلى مدينة فاس والاشتياق إليها. والسجع في هذا الكلام واقع بين العبارتين (إيناس) و (فاس). فالسين هو المنشئ لهذا الأسلوب الصوتي. والعلاقة حاضرة بين الكلمتين فبقدر ما في روح الممدوح من برّ وإيناس فكذلك مدينة فاس أرواح ساكنيها فيها الخير والبركة، وفيهم السعادة والطمأنينة.

والنصّ السابق الذي أثبتناه للرحالة " أحمد المقرّي " يحتوي على مجموعة كبيرة ومتنوّعة من أساليب السجع، وهي:

- الحمد لله الذي قد ألهما، لحلّ مشكل عرا وأفهما. (ألهما / أفهما).
- ثمّ الرضى عن صحبه وعترته، الفائزين بمزايا عزّته، (عترته / عزّته).
- ووارثيه علماء الملّة، السعدا العاملين الجلّة، (الملّة / الجلّة).
- فقد أتاني نظمك الذي عجز عن ألفاظه قاريها، فأسلم النفوس إلى باريها. (قاريها / باريها).
- وكيف لا وقد رمى عنها فلم تحط شريد الفهم، وأسهم القلم، (الفهم / القلم).
- فسوق ربوع العلوم نافقة، وأعلام الفهوم خافقة، (نافقة / خافقة).
- أقسمت بالسورة من فوق الفلق، لقد أضاء سور علاك وائتلق، (الفلق / ائتلق).
- جمعت بين البرّ والإيناس، يا لك جمع شاقني لفاس، (إيناس / فاس).
- وسوف يأتي القلب روح وأرج، بعون من بيده كلّ فرج، (أرج / فرج).
- فالشّوق للمعاهد المنسوقة، عمّ الملوك أمره والسوقة، (المنسوقة / السوقة).
- نسأل الرحمن مل العيبة، من ربح تجر مكّة وطيبة، (العيبة / طيبة).
- مغنى رسول الله مولى الاشتها، صلّى عليه الله دون انتها، (اشتها / انتها).
- مع آله وصحبه ومن ورى فنال من حسن الختام وما نوى. (ورى / نوى).

وحضور مثل هذه الأساليب من شأنه أن يشحن الكلام بإيقاع صوتي جميل وساحر يطرب الأذن ويؤنس الخاطر، ويربط المتلقّي له بالنصّ قراءة وتدبّرا وفهما.

الخاتمة

سعت هذه الدراسة حول الأدب الجزائري االقديم إلى التطرّق لفنّين من فنون النثر فيه، يتمثّلان في أدب الرحلة والمقامة. وقد كان التركيز في المحطّتين النثريتين السابقتين على ما ذكرناه في العنوان من المضامين والأشكال الفنية . وهذا مجرّد اختيار قد انبنى على اجتهاد كان نتيجة عملية القراءة والمطالعة.

ومنذ البداية استحضرنا العديد من الأهداف – عرضنا بعضها في المقدمة – نأمل أنّنا قد حقّقنا ولو القسط القليل منها ، وذلك يرجع إلى طبيعة نصوص الرحلات والمقامات وما تحتويه من مواضيع وقضايا عديدة، وسمات جمالية خلّابة ومتنوّعة. حسب تجربتنا في كتابة هذا الموضوع فإنّ نصوص الرحلات والمقامات يمكن أن تستغرق دراسات وبحوث وليس عملا واحدا مثل ما أقدمنا عليه.

إنّنا على يقين أنّنا لم ندرس كافّة المضامين ومختلف الأشكال الفنية، وإنّ الذي كتبناه أجزاء من كلّ كبير. وإنّ ما تناولناه في دراستنا لا ندّعي فيه الاستقصاء والتمام في الجانبين المشار إليهما ، إنّ ما وسم المقامة وأدب الرحلة الجزائريتين عند القدماء لا يمكن حصره فضلا عن عدّه والتفصيل فيه. .

فهناك مضامين لم ندرسها في كافّة الرحلات والمقامات ذات الطابع الديني والاجتماعي والعلمي والثقافي والنفسي والجغرافي والتاريخي والسياسي. فعلى سبيل المثال مقامات محمد بن ميمون الجزائري الواقعة في كتابه (التحفة المر ضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية) يمكن أن تدرس فيها مضامين تاريخية وسياسية وعسكرية.

ومقامات ابن محمد بن محمد بن محرز الوهراني الواقعة في كتابه الموسوم (بمنامات الوهراني ومقاماته ورسائله.) يمكن كذلك متابعة المضمون التاريخي السياسي، والاجتماعي الأخلاقي. وذلك يرجع لكثرة المواضيع المطروحة بطريقة أدبية ذكية وبفكر يعي ما يكتب ويفهم ما يسجّل ويذكر.

أمّا المضامين الحاصلة في الرحلات فلا يمكن أن تأتي عليها دراسات ودراسات ، فرحلة مثل الرحلة الورثيلانية الموسومة (بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) للحسين بن محمّد الورثيلاني، فيها من المضامين والمواضيع ما تستغرق في دراسته والتعليق عليه بحوث شتّى تبحث في المضامين الجغرافية والدينية والاجتماعية والأخلاقية . وكذلك الشأن بالنسبة لرحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري المسمّاة (لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال) فيها مضامين علمية مهمّة جدّا ومضامين سياسية وجغرافية.

ففي الأشكال الفنية هناك خصائص جمالية أخرى لا تقلّ أهمّية عن الذي فصّلنا فيه القول في الفصلين، ودليلنا في ذلك تلك البنى اللغوية المتقنة الساحرة في تلك الرحلات والمقامات . وهذه القضايا الفنية والجمالية لم نستطع الوقوف عندها برمّتها ، وهذه الأشكال الفنية في حوض النصوص المقامات والرحلات الجزائرية القديمة يمكن دراستها والبحث فيها بأدوات نقدية حديثة مثل : المعجم ، الحقول الدلالية ، البنى الإفرادية ، البنى التركيبة ، الإيقاع ، الانزياح ، التشاكل ، التناص، التقابل ، الترابط والانسجام ، السرد (الزمان ، المكان، الفضاء، الشخصيات، الأحداث) ...

ولا يفوتنا في هذه الخاتمة الإشارة إلى قضية أدبية وجمالية هي قديمة في الكتابة الشعرية والنثرية وقد نبّه إليها بعض النقاد قديما ، لكن في العصر الحديث أخذت طابع التأسيس والتنظير والتطبيق أطلق عليها (تداخل الأجناس). ووفقا لهذا المنظور فإنّ العديد من المتون الجزائرية القديمة المقامية والرحلية يمكن دراستها والتنقيب فيها من خلال هذا المصطلح والإجراء الحداثي .

فالناظر في رحلة عبد الرزاق بن حمادوش سيجد فيها فضلا عن الرحلة فنونا أدبية وأجناسا نثرية كثيرة منها : التراجم والتاريخ، الخبر، الشهادة، الإجازة، القصّة، العَقد ، الخُطبة، الغرائب، القصّة، الغريبة، النادرة، التعزية، الرسالة، اللطيفة ، التعليق، الحكاية، المقامة، المشاهدات، الإجازة، المناقشة، الفهارس، الزيارة .

كما نجد في مختلف الرحلات والمقامات نصوصا من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية شريفة، والأمثال والحكم والوصايا . كما نعثر بوفرة على نصوص شعرية لشعراء معروفين وغير معروفين في مختلف الأغراض مثل الرثاء، الوصف، المدح، التهنئة، الشوق والحنين، التصوف .

ومن بين أهمّ ما خلصنا إليه من هذه الدراسة أنّ البحث والكتابة حول المقامة وأدب الرحلات أنّها أهل للنقد والشرح والتحليل ، مضمونة الابداع والاكتشاف، غزيرة الثمرات والنتائج القيّمة. فهذه مقامات بن ميمون لازالت قادرة على مدّ يد العون للباحثين في تاريخ الأدب الجزائري القديم كونها تعدّ مصدرا غنيا من مصادر الأدب الجزائري القديم

بنوعيه. وهذه رحلة الورثلاني بدورها تشكّل مصدرا غنيا لمعرفة تاريخ الجزائر آنذاك في جوانبه الدينية والأخلاقية والاجتماعية . ومقولة الأدب مرآة عاكسة للبيئة تظهر بوضوح فيما أشرنا إليه سابقا. ومقولة أنّ الأدب مرتبط بالحياة تجد لنفسها موقعا مناسبا ووجيها فيما ذكرنا . فالأدب الجزائري القديم تحضر فيه الحياة بمختلف أطرافها .

يبدو لنا أنّ هذه الخصوبة الأدبية والفكرية في شتّى الجوانب ، والثراء الواسع في مختلف المكوّنات ، والجمال الممتدّ الأطراف – كلّ ذلك – هو الذي يمكن عدّه من بين أهمّ العوامل والحوافز التي دفعت طائفة من الأدباء الجزائريين في العصر الحديث إلى مواصلة الكتابة الفنية في هذين الحقلين النثريين، مع العلم أنّهما يقتضيان من المقبل على الإنشاء فيهما ثقافة لغوية عميقة من نحو وصرف، وبلاغة ، وعلم بالأدب والتاريخ والجغرافية، والغلوم الشرعية ، وتصورا عقليا كبيرا للأحداث والمواضيع وتجارب شعورية حيّة نابضة.

تأثير فنّ المقامة القديمة في الكتّاب الجزائريين أنجب لنا مقامات ذات شأن لأعلام أدبية وفكرية وإصلاحية نذكر منهم : عبد الرحمن الديسي، والأمير عبد القادر، البشير الإبراهيمي ، والبشير بو كثير ... وكذلك الشان بالنسبة لتاثير فنّ أدب الرحلة القديمة في الكتّاب الجزائريين تجسّد في رحلات مكتوبة للشخصيات التالية : الأمير عبد القادر، عبد الحميد ابن باديس ، البشير الإبراهيمي ، المهدي البوعبدلّي ، أبو القاسم سعد الله ، رضا حوحو ، ورحلات محمّد بوزوزو، علي مرحوم، محمّد الصالح رمضان .

واستمرار هؤلاء في دروب الأسلاف في فنّي المقامة وأدب الرحلة شهد قواسم مشتركة وعناصر تجديدية خاصّة على مستوى المواضيع الواقعية المطروحة فيها ، والقضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وكذلك النواحي الفنية التي شكّلتها وأعطتها الصبغة الأدبية الجزائرية .

هذه الدراسة التي قمنا بها علّمتنا أنّ ما يقال عن الأدب الحزائري واقع مفترض، وما هو منجز منه واقع آخر. فبمجرّد دراسة قدر معيّن منه في نوع أدبي ما ستتّضح للقارئ والمتتبّع أنّ الأحكام التي يُقذف بها، وتلك الشبهات التي تلصق به لا برهان لها ولا سند . ولا تكاد تصمد أمام النصوص الأدبية الجزائرية المحكمة في بنائها وصياغتها، والممتلئة في باطنها بالقضايا والمسائل.

وأولئك الذين يزرعون الفتن والأباطيل ويحاولون مسخ وتشويه الثقافة الجزائرية وآدابها شعرا ونثرا ما هم إلّا مجترّين لأقوال الأعداء والمتآمرين على الجزائر ، ومكرّرين لأفكار بعض أبناء الوطن المتنكّرين الحاقدين .

والواجب في مثل هذه الظروف على المثقّف البصير وطالب العلم الحاذق أن يبني أفكاره وأحكامه وملاحظاته واستنتاجاته في ضوء القراءة والمطالعة، وأن يؤسّس مواقفه واستنتاجاته في ضوء النصوص التي يبحث فيها والكتب التي يدرسها ويحلّلها.

وهذه الأفكار التي ذكرناها نتوجّه بها إلى الطلبة الجامعيين وبعض الأساتذة الذين يكتفون بما يقوله ويردّده الآخرون غرضنا منها أن يتّصلوا بالأدب الجزائري قديمه وحديثه شعره ونثره ، وأن يوثّقوا هذه العلاقة ويوطّدوها وأن لا يكون ذلك في أوقات قصيرة، ودون تأمّل وتفحّص. والمطلوب هو الدراسة والفهم والتذوّق والملاحظة وعندئذ سيستخلصون نتائج لم تكن في الحسبان، وثمرات طيّبة غالية لم ترد على الخاطر.

ومن حسن حظّ المتابعين والمنشغلين بالأدب الجزائري القديم أنّ هناك كوكبة مجاهدة من العلماء والمؤرّخين والنقّاد والمحقّقين بذلت جهودا ضخمة ومضنية وجادت بتضحيات يمكن وصفها على الرغم من قّلة الإمكانيات المادية والمعنوية من أجل بعث وإحياء هذا الأدب ، وفي سبيل عرضه وتقديمه للقرّاء والباحثين تامّا مكتملا.

فالمسؤولية ثقيلة من أجل إتمام هذا المشوار وتثمين ما عرضوه وما قدّموه، وذلك يكون بدراسته دراسة متأنّية مبنية على العلم والثقافة، وبنقده وتحليله نقدا مؤسّسا بعيدا عن الانطباعية والارتجال، وبالغوص في أعماقه لاستخراج جواهره الجميلة والدرر الثمينة.

مكتبة البحث

المصادر

القرآن الكريم .

1 – المصادر الأولى والأساسية للبحث :

(أ)

– محمّد أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته. " حياة أبي راس الذاتية والعلمية ". حقّقه وضبطه وعلّق عليه محمّد بن عبد الكريم الجزائري. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1986 م .

(ح)

– عبيد الرزّاق بن حمادوش الجزائري. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة لسان المقال في النّبإ عن النسب والحسب والحال. تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله. المؤسّسة للفنون المطبعية . الجزائر 1983م.

(ع)

– أبي العبّاس سيدي أحمد بن عمّار ، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب . سنة 1330 هـ – 1903 م طبع بمطبعة فونتانة في الجزائر.)

– ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. درلسة وتحقيق. إعداد عبد الجليل شقرون. إشراف شعيب مقنونيف. السنة الجامعية 1437 – 1438 هـ / 2016 – 2017 م . جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان. ص " د " من مقدّمة رسالة الدكتوراه.

(م)

– محمّد بن ميمون الجزائري . التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. تقديم وتحقيق الدّكنور محمّد بن عبد الكريم. ط/ 2 . الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر 1981.

– محمّد بن محمد بن محرز الوهراني. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تحقيق إبراهيم شعلان ومحمّد نغش. منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا. 1998 م . ط / 1.

– أبو العبّاس أحمد المقرّي، رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق. تحقيق محمّد بن معمر . مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر. 1425 هـ – 2004م.

(و)

و – الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. تصحيح محمد بن أبي شنب. الناشر مكتبة الثقافة الدينية، الفاهرة مصر. ط / 1 . 1429 هـ – 2008 م

2 – المصادر الأخرى :

(أ)

– الفيروز آبادي، القاموس المحيط. تحقيق مجدي فتحي السيّد. ج/4. المكتبة التوفيقية القاهرة مصر. د ت ط .

– الحسين الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن. تحقيق وضبط محمد سيّد كيلاني. دار المعرفة بيروت. لبنان.

– ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب. ج / 1. تح محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية بيروت، لبنان. 1327 هـ – 2006 م .

– محمّد الفيروز آبادي. القاموس المحيط. تح مجدي فتحي السيّد. المكتبة التوقيفية القاهرة، مصر. د ت

– ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. حقّقه وعلّق عليه الشيخ كامل محمّد محمّد عويضة. منشورات محمّد علي بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. 1419 هـ – 1998 م

(ب)

– أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. نكت الانتصار لنقل القرآن . تحقيق محمد زغلول يلّام. الاسكندرية 1971 م.

– الباقلاني، إعجاز القرآن . تحقيق أحمد صقر. دار المعارف المصرية. ط / 3.

(ت)

– عبد الله التجاني. رحلة التجاني، قدّم لها حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981م.

– الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزّام. ط / 5 . دار المعارف . د ت .

(ج)

– ابن قيّم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. حققت أصوله وضبطه جماعة من العلماء بإشراف الناشر. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط / 2 . 1408 هـ – 1988 م .

ج – علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات . ضبطه وفهرسه محمد بن عبد الحكيم القاضي ، دار الكتاب المصري القاهرة و دار الكتاب اللبناني بيروت . ط / 1 . 1991 .

– محمّد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. تحقيق إبراهيم شمس الديندار الكتب العلمية بيروت لبنان. ط / 1 . 1423 هـ – 2002 م .

– قدامة بن جعفر ، نقد الشعر. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. د / س.

– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة. تحقيق عبد الحميد هنداوي. منشورات محمد علي بيضون، لنشر كتب السنة والجماعة. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ط / 1 . 1422 هـ – 2001 م .

(خ)

– ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون. تحقيق محمد عبد الله درويش. دار يعرب دمشق سوريا. ط / 1 . 1425 هـ - 2004 م .

– ابن سنان الخفاجي الحلبي، سرّ الفصاحة. تحقيق علي فودة. مكتبة الخانجي القاهرة مصر. ط / 2 . 1414 هـ – 1994 م .

(د)

– أبو العبّاس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية. حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ المملوكي. المؤسّسة العربية للدراسات والنشر . دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتّحدة. أبو ظبي. ط/1. 2011م.

(ر)

– ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمّد بمحيي الدين عبد الحميد. دار الجيل بيروت لبنان. ط / 5. 1401 هـ – 1981 م.

– فخر الدين الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز . تحقيق سعد سليمان حمودة . ط 2003 . دار المعرفة الجامعية . مصر .

(ز)

– بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة بيروت، لبنان. ط / 2 . 1391 هـ - 1972 م .

(س)

– أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم. ظبطه وكتب حواشيه وعلّق عليه نعيم زرزور. دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان. ط / 2 . 1408 هـ – 1987 م .

– أبو عبد الله محمّد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة. الدار التونسية للنشر، تونس. 1402 هـ – 1982 م.

– بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . تحقيق عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت لبنان. ط / 1. 1423 هـ – 2003 م . ج / 2.

– أبو عبد الله محمّد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة. الدار التونسية للنشر، تونس. 1402 هـ – 1982 م.

– السموأل، ديوان السموأل. تحقيق وشرح واضح الصمد. دار الجيل بيروت، لبنان. الطبعة الأولى . 1416 هـ – 1996 م .

(ط)

– ديوان طرفة بن العبد . شرح وتقديم محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان. ط / 3 . 1433 هـ – 2002 م .

(ع)

– ابن عصفور ، المقرب. تحقيق أحمد عبد الستّار، وعبد الله جبوري. إحياء التراث الإسلامي. د ت .

– عبد الله بن محمّد العياشي، الرحلة العيّاشة. حقّقها وقدّم لها سعد الفضلي وسليمان القرشي. ط /1. 2006 م. دار السويدي للنشر والتوزيع، الأمارات العربية المتّحدة.

– أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. حقّقه وضبط نصّه مفيد قميحة. دار الكتب العلمية بيروت، لبنلن. ط / 2 . 1409 هـ – 1989 م .

– عبد الله بن محمّد العياشي، الرحلة العيّاشة. حقّقها وقدّم لها سعد الفضلي وسليمان القرشي. ط /1. 2006م. دار السويدي للنشر والتوزيع، الأمارات العربية المتّحدة.

– ج / 2. يحي بن جمزة العلوي، الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلو حقائق الإعجاز. تحقيق عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت لبنان.

(ف)

– الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين. المجلّد / 1 . تحقيق عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ط / 1 . 1424 . هـ / 2002 م ..

– أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي. ديوان العرب . ج /1. تحقيق أحمد مختار عمر، مراجعة إبراهيم أنيس. مجمع اللغة العربية. مؤسسة دار الشعب القاهرة مصر. 1974 م.

– ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان. ط/ 2 . 1417 هـ – 1994 م.

(ق)

– الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة. دار الفكر العربي. ط / 2 . 1350 هـ – 1932 م

(م)

– ابن منظور، لسان العرب. تحقبق ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيّد. ج / 14 . المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر. ج/ 11.

– ابن المعتزّ، البديع. تحقيق إغناطيوس كراتشقوفسكي . دار المسيرة . بيروت، لبنان. ط ة/ 3. 1402 هـ – 1982.

– ابن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام. تحق محمد رضوان الداية. دار الثقافة بيروت لبنان 1966 م.

– علي صدر الدين بن معصوم المدني، حقّقه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر . أنوار الربيع في أنواع البديع. ج / 1 . ط / 1 1388 هـ – 1968 م . مطبعة النعمان ، النجف الأشرف العراق.

– أحمد الميداني، مجمع الأمثال. ج / 2. تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد. 1376 هـ – 1955 مطبعة السنّة المحمّدية، د ب .

- بدرر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط / 1. 1422 هـ – 2001 م .

- ممّا أملاه أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسين المرزوقي، شرح الفصيح لثعلب. قراءة وتحقيق سليمان بن إبراهيم العايد. دار المعارف القاهرة مصر. د ت .

(ن)

- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان.ط/2. 1400 هـ – 1980 م.

- كتاب الأربعين النووية للإمام أبي زكرياء يحي بن شرف النووي. خرّج أحاديثه وشرح غريبه أحمد عبد الرزّاق البكري. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، لصاحبها عبد القادر محمود البكار. ط /4. 1428 هـ – 2007 م .

- أبي عبد الله محمّد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الناصرية الكبرى . بدراسة وتحقيق المهدي الغالي . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. 1434 هـ – ر2013 م .

المراجع

1 – الكتب:

(أ)

– محمّد سعيد إسبر، بلال جنيدي ، الشامل معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها. دار العودة بيوت. ط / 1. 1981.

– محمّد أبو الليث الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنّفين فيه. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط / 1. 1429 هـ – 2009 م.

– أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون. دار البيان العربي للنشر والتوزيع. جدّة، السعودية. د ت

– محمّد أبو الليث الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنّفين فيه. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط / 1. 1429 هـ – 2009 م.

– بكري الشيخ أمين. البلاغة في ثوبها الجديد ، علم البديع. دار العلم للملايين، بيروت، لينان. ط/ 1 . 1987 م .

– يوسف الإدريسي، عتبات النصّ في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر. ط / 1 . الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لينان. 1436 هـ - 2015 م .

– بكري شيخ أمين، البلاغة في ثوبها الجديد علم البيان. دار العلم للملايين، بيروت لينان. ط / 1 . 1982 .

– أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون . دار البيان العربي للنشر والتوزيع . جدّة، السعودية. د ت .

– راجي الأسمر، المعجم المفصّل في علم الصرف. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. 1418 هـ – 1997 م .

- سعيد الأفغاني، في أصول النحو. مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . دمشق. 1414 هـ – 1994 م .

- جرجس عيسى الأسمر، قاموس الإعراب. دار العلم للملايين. بيروت لبنان. ط / 6 . 2001 م

- بكري الشيخ أمين، علم المعاني. دار العلم للملايين، بيروت لبنان. ط / 6. 1999 م.

- محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي، الشامل معجم في اللغة العربية ومصطلحاتها. دار العودة بيروت، لبنان. ط/ 1 . 1981.

(ب)

- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب. ج / 1 . دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر. 2013.

- عبد الحقّ بنعابد ، عتبات جيرار جينت (من النصّ إلى المناص). الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان. منشورات اختلاف الجزائر، الجزائر 1429 هـ – 2008 م .

- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النصّ دراسة في مقدمات النقد العربي القديم. تقديم إدريس ناقوري. إفريقيا الشرق . الدار البيضاء المغرب. 2000 م .

- إبراهيم بادي، دلالة لعنوان وأبعاده في موتة الرجل الأخير. مجلّة المدى . ع / 26. 1999 م . دمشق، سوريا .

- صالح بلعيد، الصرف والنحو. دار هومة، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر. 1998 م..

(ذ)

- الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والبلاد الروسية. 94. عبد النبي ذاكر. دار السويدي أبو ظبي ط/1. 2006.

(ج)

- خليل الجرّ، المعجم العربي الحديث لاروس. مكتبة لاروس باريس فرنسا. 1973. ص 1298.

– إبراهيم محمد الجرمي ، معجم علوم القرآن علوم القرآن، التفسير، التجويد ، القراءات.دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت. ط / 1 . 1422 هـ – 2001 م .

– عبّاس رهاني الجرّاح، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية. الطبعة الأولى. 2014 هـ – 1435 هـ . دار الرضوان للنشر والتوزيع. عمان، الأردن.

– علي الجارم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة مع دليلها. ديوان المطبوعات الجامعية الجهوية، وهران الجزائر. د ت .

– معجم علوم القرآن علوم القرآن، التفسي، التجويد، القراءات. إبراهيم محمّد الجرمي. دار القلم دمشق. ط/1. 1422 هـ 6 2001 م .

– معجم علوم القرآن علوم القرآن، التفسي، التجويد، القراءات. إبراهيم محمّد الجرمي. دار القلم دمشق. ط/1. 1422 هـ 6 2001 م .

– خليل الجرّ، المعجم العربي الحديث لاروس. مكتبة لاروس، باريس. المنشورات الفرنسية المتّحدة. ط / 1973.

(ح)

– زكي محمّد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر. 2013م.

– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات. عالم المعرفة ، الكويت. 1989 م.

– خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل . دار التكوين للتأويل والترجمة والنشر، دمشق سوريا . ط / 1 . 2008 م .

– سالم عبد الله حابوص، أدب الرحلات عند العرب نشأته وتطوره ابن بطوطة أنموذجا. منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ليبيا 2009م. ط / 1 .

- مصطفى سالم عبد الله حابوص، أدب الرحلات عند العرب نشأته وتطوره ابن بطوطة أنموذجا. منشورات المركز الوطني للمحفزظات والدراسات التاريخية، ليبيا 2009م. ط / 1 .

- جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة. مجلّة عالم الفكر . المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب. الكويت. مج ة/ 28 . العدد 1 . مارس 1997 م .

- زكي محمّد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر. 2013م.

- أحلام عبد اللطيف حادي، جماليات اللغة في القصة القصيرة، قراءة لتيار الوعي في القصة السعودية (1970 – 1995 م) ط / 1 . المركز الثقافي العربي المغرب . 2004م.

- محمّد رشدي حسن. أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة مصر. 1394 هـ - 1974 م.

(خ)

- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات. دار ابن كثير. د ب. 1426 هـ – 2005 م.

- محمّد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه. المؤسسة الوطنية للكتاب، وحدة الرغاية، الجزائر. 1989 م.

- محمّد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه. المؤسسة الوطنية للكتاب، وحدة الرغاية، الجزائر. 1989 م.

- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات. دار ابن كثير. د ب. 1426 هـ – 2005 م.

- أحمد الخوص، قصّة الإعراب، الأدوات . دار الهدى عين مليلة الجزائر. 1991.

(ذ)

- الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والبلاد الروسية. 94. عبد النبي ذاكر. دار السويدي أبو ظبي ط/1. 2006 م

(ر)

– عامر جميل شامي الراشدي، العنوان والاستهلال في مواقف النفري. دار حامد للنشر والتوزيع عمان، الأردن. ط / 1 . 2012 م .

– ومصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. ج / 3 . دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان. 1394 هـ – 1974.

– صالح محمود عبد الرحيم، فنون النثر في الأدب العبّاسي. ط / 1. 1994 م. مطبعة وزارة اللثقافة ، عمّان، الأردن.

– أحمد رضا ، معجم متن اللغة ، موسوعة لغوية حديثة. المجلّد 1 . دار مكتبة الحياة بيروت. 1377 – 1958.

– ياغي عبد الرحمن، رأي في المقامات. ط / 1. 1985 م . دار الفكر للنشر والتوزيع. عمّان، الأردن.

– نبيل خالد رباح أبو عليّ، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتّى نهاية العصر العبّاسي 656م. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة مصر. ط 1993 م .

(ز)

– نسيمة زمالي. قراءة في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء : الجانب الاجتماعي والفنّي وتحليل قصائد وفق المقاربات النصية المعاصر. دار الهدى عين مليلة الجزائر. ط / 2012 م .

(س)

– ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الجزائري، تراجم مؤرّخين ورحالة وجغرافيين. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1999م.

– عبد الفتّاح محمّد سلامة، نظرات تطبيقية في علم البيان. دار المعارف، القاهرة مصر. 1995 م.

– دزيرة سقال، تحقيق المخطوطات. الجامعة اللبنانية 2020.

– عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز. مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت لبنان. ط / 1. 2009م.

– أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20). ج / 2. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985.

– أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج / 1 . عالم المعرفة . الجزائر. طبعة خاصّة، 2011 م .

ـــ أبو القاسم سعد الله . تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. 1981.

– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره. عالم المعرفة الجزائر. 2015 م .

– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب. امؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1983 م .

– عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز. مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت لبنان. ط / 1. 2009م.

– دزيرة سقال، تحقيق المخطوطات. الجامعة اللبنانية 2020.

– فاضل إبراهيم السامرائي، معاني النحو. ج / 3 . دار الفكر للطباعة والنشر عمّان الاردن. ط / 1. 1420 هـ – 2000 م .

(ش)

– ابن عبد الله شعيب، الميسّر في البلاغة العربية علم البيان، علم المعاني، علم البديع، دروس وتمارين. دار الهدى عين مليلة. الجزائر. 1992م.

– عبد الواحد حسن الشيخ. البديع والتوازي. مكتبة الإشعاع مصر. ط/ 1. 1419 هـ – 1999 م.

– عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في علم المعاني. مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية. الأسكندرية، مصر. د ت .

- شلتاغ عبود شرّاد، حركة الشعر الحرّ في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985.

(ص)

- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، مصر. ط / 1 . 1416 هـ – 1996 م :

- عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية علم المعاني. الناشر مكتبة الآداب القاهرة، مصر. ط / 2. 1423 هـ – 2002 م .

- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، مصر. ط / 1 . 1416 هـ – 1996 م :

- علي محمد محمد الصلابي، دولة الموحّدين. دار البيارق للنشر. عمّان الأردن. 1998 م .

- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء دراسة فنّية تحليلية. ط / 1. 1407 هـ – 1987 م . دار البعث قسنطينة الجزائر.

(ض)

- شوقي ضيف، الرحلات دار المعارف . ط 4 .

- شوقي ضيف، المقامة. . ط / 3 . دار المعارف القاهرة مصر.

(ط)

- محمود الطحّان، تيسير مصطلح الحديث. مكتبة المعارف. الرياض، السعودية. ط /9. 1417 هـ – 1996 م .

- حسن طبل، في علم البيان. 1995م. مكتبة الزهراء، القاهرة مصر.

- حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم. مكتعبة الإيمان بالمنصورة منتدى سوق الإزبكية القاهرة مصر. ط / 2. 1425 هـ – 2004 م . ط – بدوي طبانة، معلّقات العرب. دار المرّيخ للنشر، الرياض السعودية. ط 1404 هـ – 1984 م .

– بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية. دار المنار للنشر والتوزيع جدّة المملكة العربية السعودية، ، ودار ابن حزم بيروت لبنان. ط / 4. 1418 هـ – 1997.

(ع)

– محسن علي عطية، الأساليب النحوية عرض وتطبيق. ط / 1. 1428 هـ – 2007 م . دار المناهج للنشر والتوزيع. عمان ، الأردن. ص 19.

– إنعام فوال عكاوي، مراجعة أحمد شمس الدين. المعجم المفصّل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ط / 2 . 1417 هـ – 1996 م . ص 95.

– حسن عبّاس، نشأة المقامة في الأدب رالعربي. دار المعارف، القاهرة . مصر. د ت .

– محمد بن صالح العثيمين، مصطلح الحديث. مكتبة العلم ، القاهرة. ط / 1 . 1415 هـ – 1994 م .

– وفاء محمّد علي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام. ط/ 1 . 1407 هـ . دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

– محمد شعبان علوان، و نعمان شعبان علوان ، من بلاغة القرآن المعاني البيان البديع. ط / 2 . 1998 م . الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر.

– عبد العزيز عتيق، علم البيان.دار النهضة العربية بيروت لبنان. د ت .

– أحمد مختار عمر، علم الدلالة . عالم الكتب، القاهرة ، مصر. ط / 5 . 1998.

– علي محمد أحمد العبيدي، العنوان في قصص وجدان الخشاب (دراسة سيميائية), مجلّة دراسات موصلي. الموصل، العراق. العدد 23. شباط 2009 م .

– عبد السلام عبد الحكيم العيد ، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث. د / ط . مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية. 1989 م

(غ)

– مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة. دار الانتشار بيروت لبنان. ط / 1. 2015 م.

– مصطفى الغلاييني، الجامع الدروس العربية . المكتبة العصرية صيدا ، لبنان. ط / 1 . 1423 هـ – 2003 م . بيروت.

– غربي شميسة، السيرة في الأدب الجزائري القديم من القرن السابع الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري دراسة في الأنماط والبناء. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 2010 م .

(ف)

– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات. عالم المعرفة ، الكويت. 1989 م.

– عمر فرّوخ ، الرسائل والمقامات عبد الحميد الكاتب، بديع الزمان، الحريري. ط / 2. 1369 هـ – 1050 م. منشورات مكتبة ميمنه ، بيروت لبنان.

– الكك فكتور، بديعيات بديع الزمان الهمذاني. ط / 1 . 1961 م . المطبعة الكاثوليكية، بيروت. لبنان .

(ق)

– أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية. دار الفكر العربي بيروت لبنان. دار الفكر دمشق سورية. ط / 3 . 1424 هـ – 2003 م ..

– فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة . ط /2. 1423 هـ – 2002 م .

– بسّام قطوس . سيمياء العنوان. ط / 1 . 2001 م . وزارة الثقافة . عمّان ، الأردن.

– محمود شاكر القطّان، الإيجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية . 1410 هـ – 1989 م . دار الطبع جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنوّرة السعودية.

– سيزا أحمد قاسم ، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر. د ط . 1978م.

– إبراهيم قلّاتي، الأدوات. دار الهدى عين مليلة الجزائر. 1998م.

(ل)

– عبد الفتّاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم. دا الفكر العربي، القاهرة مصر. 2000 م .

– محمّد طاهر اللدقي، المبسّط في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع نماذج تطبيقية. مراجعة إبراهيم محمّد طاهر اللدقي. المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان. ط / 1. 1425 هـ – 2004 م.

– عبد الفتّاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن. الناشر المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر. ط / 3 . 1986.

– محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية. ط / 1 . 1405 هـ – 1985 م . مؤسسة لرسالة بيروت لبنان، ودار الفرقان عمان، الأردن.

(ك)

– عيسى علي الكاعوب وعلي سعد الشتيوي. الكافي في علوم البلاغة المعاني، البيان، البديع . (الكتاب الأوّل في علم المعاني).الجامعة المفتوحة، الاسكندرية، مصر. 1993 م .

(م)

– محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ القثهية. دار الفضيلة.القاهرة، مصر. 1999 م .

– عبد الملك مرتاض، فنّ المقامات في اللأدب العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1980.

– عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردي. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1986 .

– عبد الملك مرتاض، القصّة الجزائرية المعاصرة. المئسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1990.

– عبد الملك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري، دراية تشريحية لقصيدة أشجان يمانية . دار الحداثة للطباعة والنشر واتوزيع، لبنان . بيروت. ط / 1 . 1986 .

– عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر. فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م – 1954م) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 1983 م .

– أحمد مدلس ، العنوانة في الخطاب الشعري. مجلّة المخبر، منشورات قسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بسكرة. ع 3 . 2006 م .

– أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، مصر. 1388 هـ – 1969 م .

– عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد . دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران. الجزائر. 2005 م .

– علي أبو المكارم، الجملة الفعلية . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، مصر. ط / 1 . 1428 هـ – 2007 م .

– علي أبو المكارم، الجملة الاسمية. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، مصر. ط / 1 . 1428 هـ – 2007 م .

م – أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم عربي، عربي. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان. ط / 1 . 2001 م .

– جلال محمّد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية وتطوّرها . دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان . 1982 م.

– محمّد المختار المالكي مدارسه ومؤلّفاته، خصائصه وسماته. مركز زايد للتراث والتاريخ. العين، الإمارات العربية المتّحدة. ط /1. 1422 هـ – 2002 م.

– أحمد مطلوب، أساليب بلاغية الفصاحة البلاغة المعاني. وكالة المطبوعات شارع فهد السليم، لكويت. ط / 1 . 1980.

– محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ القثهية. دار الفضيلة.القاهرة، مصر. 1999 م .

– أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع. دار القلم بيروت لبنان. د ت .

– محمّد المختار المالكي مدارسه ومؤلّفاته، خصائصه وسماته. مركز زايد للتراث والتاريخ. العين، الإمارات العربية المتّحدة. ط /1. 1422 هـ – 2002 م.

– أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان.

(ن)

– سيّد حامد النسّاج ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا. دار غريب للطباعة. القاهرة مصر د ت

– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان.ط/2. 1400 هـ – 1980 م.

– سيّد حامد النسّاج ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا. دار غريب للطباعة. القاهرة مصر . د ت

– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان.ط/2. 1400 هـ – 1980 م.

– سعدون عبّاس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين. دار النهضة العربية. بيروت لبنان. ط / 1 . 1405 هـ – 1075 م .

(هـ)

– أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية في اللغة العربية. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. 1354 هـ.

– أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. شرح وتحقيق حسن حَمَد. دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت لبنان . د ت.

– عبد السلام محمّد هارون، تحقيق النصوص ونشرها. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط /7 . 1418 هـ – 1998 م ..

– عبد السلام محمّد هارون، تحقيق النصوص ونشرها. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط /7 . 1418 هـ – 1998 م ..

– خليل شكري هيّاس، سيرة جبرا الذاتية منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2002م .

– عبد النصر هلال، آليات السرد في الشعر العربي المعاصرتص: عبد الحليم فرحات. الناشر مركز الحضارة العربية القاهرة. ط /1. 2006م.

– الجملة ناصر بن عبد الله الهويريني، مفاتيح الإعراب. دار الصميعي للنشر والتوزيع ، الرياض السعودية. ط / 1 . 1429 م – 2008 م .

(و)

– ناصر عبد الرزاق الوافي، الرحلة في الأدب العربي حتّى نهية القرن الرابع الهجري. ط / 1. 1415هـ – 1995م. مكتبة الوفاء. القاهرة.

(ي)

– حسني عبد الجليل يوسف، التصوير البياني بين القدماء والمحدثين دراسة نظرية تطبيقية. دار الآفاق العربية القاهرو، مصر. 1998م.

– حسن عبد الجليل يوسف، في كتابه: إعراب الأربعين حديثا النووية. مؤسّسة المختار للنّشر والتوزيع، مصر الجديدة القاهرة. ط / 1 . 1424 هـ – 2003 م . مصر ، القاهرة ، الإسكندرية.

– الشيخ ناصيف اليازجي، العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب. المجلّد 2 . دار صادر بيروت. ط / 2 . 2005 م.

– عوض يوسف: فن المقامات بين المشرق والمغرب، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1986 م.

2 – أطروحة دكتوراه :

– عبد الله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتّى سقوط غرناطة. أطروحة انيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي. المملكة العربية السعودية، جامعة أمّ القرى، كلية اللغة العربيية، قسم الدراسات العليا، فرع الأدب. 1422 هـ – 2001 م. إشراف الأستاذ الدكتور محمد حسن زيني.

– عبد الله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتّى سقوط غرناطة. أطروحة انيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي. المملكة العربية السعودية، جامعة أمّ القرى، كلية اللغة العربيية، قسم الدراسات العليا، فرع الأدب. 1422 هـ – 2001 م. إشراف الأستاذ الدكتور محمد حسن زيني.

– ابن عمّار أبي العبّاس سيدي أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. درلسة وتحقيق. إعداد عبد الجليل شقرون. إشراف شعيب مقنونيف. السنة الجامعية 1437 – 1438 هـ / 2016 – 2017 م . جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان. ص " د " من مقدّمة رسالة الدكتوراه.

3 – مقالات :

– شلابي نبيلة و عمر حيدوسي الحالة العلمية بالجزائر في العهد العثماني (القرنان الثامن عشر والتسع عشر للميلاد) من خلال رحلة أبي راس المعسكري " فتح الإله ونّته " مجلّة الإحياء. المجلّد 19. العدد 23 ديسمبر 2019م. الترقيم الدولي 4350 – 1112. الترقيم الدولي الالكتروني 2406 – 2588..

– عائشة دبّاح ، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات " رحلة الحسين الورثيلاني أنموذجا" مجلّة قضايا تاريخية. فصلية أكاديمية محكمة نصف سنوية تصدر عن مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة. العدد 08. 1439 هـ – 2017 م .

الفهرس

البسملة.
الإهداء
المقدمة : ..... (أ) – (ص)

الفصل الأوّل: مضامين المقامة الجزائرية عند القدماء وأشكالها الفنّية .....1 – 142

القسم الأوّل من الفصل الأوّل : مضامين المقامة الجزائرية.....1 - 77
تمهيد : مفهوم وتاريخ المقامة ..... 4 - 19
– مضامين مقامات محمّد بن ميمون .....20 - 36
– مضامين مقامات ابن محرز الوهراني .....37 – 69
– مضامين مقامات عبد الرزاق بن حمادوش .....70 - 77

القسم الثاني من الفصل الثاني: الأشكال الفنية في المقامة الجزائرية .....78 – 142
التمهيد : مفهوم الأشكال الفنية. .....79 - 81
– العنوان : المصطلح والمفهوم ..... 81 - 83
– العنوان في مقامات محمّد بن ميمون .....84 - 100
– العنوان في مقامات عبد الزاق بن حمادوش .....100 - 103
– العنوان في مقامات ابن محرز الوهراني .....103 – 105
– الابتداء : المصطلح والمفهوم .....105 – 109
– الابتداء في مقامات عبد الرزّاق بن حمادوش ..... 109 – 119
– الابتداء في مقامات ابن محرز الوهراني ..... 119 – 126
– الابتداء في مقامات محمّد بن ميمون ..... 126 – 142

الفصل الثاني : مضامين أدب الرحلة الجزائرية عند القدماء وأشكالها الفنّي .....143 – 282

القسم الأوّل من الفصل الثاني : مضامين أدب الرحلة الجزائرية .....145 - 221
تمهيد: مفهوم وتاريخ أدب الرحلة ..... 146 – 153

- مضامين رحلة الحسين بن محمّد الورثلاني ..... 153 – 170
- مضامين رحلة عبد الرزّاق بن حمادوش .....170 – 189
- مضامين رحلة أبي العبّاس بن عمّار ..... 189 – 206
- مضامين رحلة محمّد أبي راس ..... 206 – 221

القسم الثاني من الفصل الثاني: الأشكال الفنية في أدب الرحلة الجزا..... 222 – 282
– الاقتباس : المصطلح والمفهوم ..... 223 - 227
– الاقتباس من القرآن الكريم ..... 227 - 237
- في رحلة ابن عمّار .....227 – 228
- في رحلة الورثيلاني ..... 228 - 231
- في رحلة أبي راس .....231 – 234
في رحلة أحمد المقري ..... 234 – 235
_ في رحلة ابن حمادوش .....235 – 237
– الاقتباس من الحديث النبوي .....237 - 242
- في رحة المقرّي ..... 237 – 240
- في رحلة أبي راس ..... 240 - 242
– الصورة : المصطلح والمفهوم ..... 242 – 243
- الصورة في رحلة أبي راس ..... 243 – 254
- الصورة في رحلة المقرّي ..... 254 – 260
- الصورة في رحلة ابن حمادوش ..... 260 – 261
- نماذج من الصور في رحلة المقرّي ..... 262 – 264
– السجع : **المصطلح والمفهوم** : .....264 - 266
- السجع في رحلة ابن عمّار.....267 – 272
- السجع في رحلة ابن حمادوش .....272 – 273
- السجع في رحلة أبي راس .....274 – 276
- السجع في رحلة الحسين الورثيلاني .....276 - 279
- السجع في رحلة المقرّي .... 279 – 282

– **الخاتمة**..... 283 – 289
– **مكتبة البحث** ..... 290 – 312
– **الفهرس** ..... 313 – 316


ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
Quran-HD.com

الملخص :

لازال الأدب الجزائري العربي القديم يحمل بين جنباته قيما غنية عالية ، و مختلفة في كافة المستويات ، و خاصة تلك المتعلقة بالشعر و أنواعه و النثر و فنونه . و هذا ما تكشف عنه العديد من الدراسات النقدية الجزائرية الحديثة التي تقاربه من زوايا مختلفة من حين لآخر . و قد أبانت لنا هذه الدراسات النقدية أهمية العديد من الأجناس الأدبية النثرية الجزائرية القديمة مثل : الخطبة ، الوصية ، الرسالة ، و المقامة ، أدب الرحلة و كان تركيزنا في هذه الدراسة على هذين الفنين الأخيرين (المقامة ، أدب الرحلة) فدرسناهما من جهتي المضامين التي يحتويان عليها ، و الأشكال الفنية التي قدمها بواسطتها .

الكلمات المفتاحية : الأدب ، النثر ، الجزائري ، القديم ، المقامة ، أدب الرحلة ، المضامين ، الأشكال الفنية .

Résumé:

La littérature arabe algérienne ancienne continue à avoir des valeurs élevées, différentes à tous les niveaux, notamment en ce qui concerne la poésie, les genres, la prose et l'art. C'est ce que révèlent de nombreuses études monétaires algériennes récentes qui convergent de temps à autre sous différents angles. Ces études critiques nous ont montré l'importance de nombreuses races littéraires algériennes anciennes comme les sermons, les commandements, les lettres et la littérature de voyage. Nous nous sommes concentrés dans cette étude sur ces deux derniers artistics (érigés, littérature de voyage), que nous avons étudiés à la fois sur le contenu qu'ils contenaient, et les formes artistiques qu'ils présentaient.

Mots-clés : littérature, prose, algérienne, ancienne, érigée, littérature de voyage, contenus, formes d'art.

Summary:

Ancient Algerian Arab literature continues to hold high values among its sides, different at all levels, especially those related to poetry, genres, prose and art. This is what many recent Algerian monetary studies reveal that converge from different angles from time to time. These critical studies have shown us the importance of many ancient Algerian prose literary races such as sermons, commandments, letters, and journey literature. Our focus in this study was on these last two artistics (erected, journey literature), which we studied on both the content they contained, and the artistic forms they presented.

Keywords: literature, prose, Algerian, ancient, erected, journey literature, contents, art forms.